

Scanned by CamScanner



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

لِيُو هُونــغ

الشــيخ والوقائع الفاضحــة

قصــص

ترجمة (عن الصينية) وتقديم:

د. محســن فرجــاني

مقـدمة

لأسباب كثيرة اخترت أن أترجم - ولأول مرة إلى العربية، بل لأول مرة في أي لغة أجنبية، تقريبًا - مختارات قصصية للكاتب الصيني الساخر "ليو هونغ".

أسباب مهمة تتوسل بها هذه الترجمة لتجعل من عملية النقل أكثر من مجرد تفاعل لغوي مع نصوصها المختارة، أو مجرد قراءة في ظروف إنتاجها واستقصاء لخصائصها النقدية، مما قد يسفر عن إدراك لقيمةٍ ما، تجعل منها اختيارًا مفيدًا في تتبع أحوال السرد الروائي في الصين الحديثة والمعاصرة، أو حتى مجرد تقدير ناجز لمحتوى أدبي مترجم، من وجهة نظر عملية تفرضها جهود النشر بشكل عام؛ بل هي- بالإضافة إلى هذا كله- محاولة، أرجو لها أن تكون استشرافًا لأفق جديد في جهود الترجمة عن الصينية- في الإنتاج الروائي- ينفتح على ساحة الإبداع الأدبي وفق خطة أو رؤية تستهدف التعرف على الكتابة الروائية، وفق التصنيف الموضوعي (فهناك: الكتابة التاريخية، والعجائبية، والرومانسية الشعبية، والثورية، والتسجيلية، والريفية، والنسوية الحديثة؛ بل ظهرت حديثًا جدًّا: الرومانسية الذاتية [الفردانية، الانطوائية] .. إلخ، والساخرة؛ التي نُفرد لها اليوم مساحة للترجمة؛ ولو أنه يجب أن نمايز بينها وبين رواية

"الكوميديا السوداء"). لعلنا بذلك نتجاوز مأزق الارتجال والعفوية والطابع الانتقائي الذي يصبغ جهود الترجمة الفردية؛ ولو أن هذه الجهود- بطابعها التلقائي العفوي- تثبت كثيرًا أنها أقرب إلى التقدير العملي الناجز لقيمة اختياراتها.. وسنعود إلى هذه النقطة لاحقًا. لكن ما يهمنا الآن هو أن نشير إلى أهمية تقديم نصوص تعبر عن ملامح نوعية لتيارات إبداعية لها خصائصها المعتبرة في الكتابة الصينية. ومن هنا، تسعى هذه الترجمة- التي بين يديك- إلى أن تقدم للمكتبة العربية نصوصًا تتلمس الطريق إلى الوعي بالكتابة الصينية الساخرة.. نصوصًا تتفرد بمزايا تجعل منها شواهد إبداعية مهمة، أو علامة على طريق، أو مداخل تعين على التماس المسالك الممهدة لساحة الإبداع الأدبي الصيني، وتحديد أبوابها.. المهم أنها من تلك النصوص التي يمكن أن تحتل موقعًا أعلى من هامة مبدعها. ولحسن الحظ، فإن "ليو هونغ"- مع تفرده ومزاياه- لهو من التواضع بحيث يقبل أن يتوارى وراء المتون. لكن لماذا اخترته- هو بالذات- دون غيره من كتاب السرد الساخر؟

أجيب عليك بأن أهم عنصر في اختياره يتعلق بطبيعة إبداعه، وبوضعيته ككاتب من جيل "الفترة الجديدة"، وبانتمائه إلى طائفة كتاب ما سُمي- في الساحة الأدبية الصينية في منتصف ثمانينات القرن العشرين- بـ"أدب الجراح"؛ وأهم من هذا كله، فثمة سبب جوهري يتصل بكونه أحد أولئك الذين عاشوا تجربة الثورة الثقافية؛ أحد شهود عيان من جيل المثقفين في منتصف ستينات القرن الماضي، ممن شاركوا في الأحداث، وصاروا جزءًا من أهم حلقات التاريخ الحديث في بلادهم؛ واستطاعوا- فيما كتبوا من أجناس أدبية مختلفة- أن يحفظوا للذاكرة الإنسانية (في بلد اشتهر بالتدوين من قديم، لكنه آثر أن يطوي أوراق الثورة التي هزت أركانه) مدونات باقية تحتفظ بكثير من

تفاصيل المشهد، الذي لن يجد أي باحث أو مؤرخ أو مدقق أو مطلع أو أي قارئ- في أي ركن من أركان العالم- مصادر "رسمية" موثقة تعطيه فكرة صريحة وواضحة عما حدث في الصين إبان الفترة من 1966 إلى 1986، على وجه التحديد. ولا أقصد من هذا غلبة الطابع التسجيلي على كتاباته، بل أقول إن لديه مادة حكائية منخرطة كيانيًا في أجواء الثورة الثقافية الستينية؛ اندمجت في سياقها، واستطاعت أن تبلور منظورًا إنسانيًا لمشاهداتها، عبر كتابة ساخرة. وهي- بهذا القدر- مؤهلة لمعالجات نقدية مركبة، وكاشفة.

ولأني أدرك نقطة البداية في هذه الكلمة دون أن أعرف نهايتها، فليسمح لي القارئ بأن أسترسل في الحكي، غير مقيد بعناصر تقديم محددة؛ تمامًا كما لو كنت أسرد انطباعات، على طريقة أحد أصدقاء الروائي نفسه، ممن سأوافيك بعد قليل بكلمة له تتضمن انطباعاته الشخصية، هو الآخر، عن هذا المبدع الذي آثر أن يبقى في الظل طوال الوقت..

والرجل ما يزال على قيد الحياة، على الأقل حتى لحظة كتابة هذه الأسطر [في أكتوبر 2015]. ولحسن الحظ أنه ما يزال يتنسم هواء الدنيا منذ مولده في 1933؛ فقد عاش إذن عمرًا يكفي لأن يجعل منه واحدًا من حكماء الصين، لولا أنه اختار الكتابة الساخرة؛ وهي نمط من الكتابة لم يكن مقدرًا له أن يحظى باحترام عميق من جانب التقاليد الكونفوشية الأصيلة؛ بل إن هذه التقاليد تسببت في إحداث نوع من الإعاقة المزمنة لكل أنواع الكتابات الفكاهية، ولكل أشكال الإبداع التخيلي، سواء في القصة أو المسرح. ولم يسلم من قبضة التعاليم المتزمتة سوى الشعر، باعتباره حامل القواعد الفنية، عميد الأوزان والقوافي، والأقرب بمزاياه إلى الالتزام الفني والانضباط وفق معايير جمالية صارمة، مما يؤهله لأن يكون تعبيرًا رمزيًا راقيًا عن "قالب" القواعد

الأخلاقية الصارمة، أيضًا، بطبيعتها. أما الرواية والمسرح وباقي الأجناس، فقد اعتُبرت ضمن الانشغال الثقافي المنحط والحقير، وما تزال تقريبًا آثارٌ من هذا المنظور المحافظ تتبدى في أوقات مختلفة، وإلى اليوم (!)؛ حتى أن كثيرًا من الصينيين [من الباحثين والمبدعين على حدٍ سواء، وللغرابة!] يتصورون أن الكتابة الفكاهية أو الساخرة جزء من تأثير غربي وفد إلى الصين، في ركاب حركة الثقافة الجديدة إبان العشرينات من القرن الماضي؛ مع أن لهذا النمط من الكتابة قدمًا راسخة في أدب الصين؛ فقد جرى توثيقها نحو عام 2500 ق.م. أي وقت ظهور أول كتاب فكاهي في تاريخ الصين الأدبي: كتاب "تشوانغ تسي"، وهو أحد المصادر المهمة في الفلسفة الطاوية، الفلسفة التي شجعت ودعمت كل أساليب الهجاء والسخرية والفكاهة القديمة (وهناك من يؤرخون لأقدم فكاهة صينية بمدونة اسمها **"شياولين"**، أي **'حدائق الضحكات'**، وقد ظهرت في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، تقريبًا). ورغم التشدد الكونفوشي العتيد، فقد ظل المبدعون الصينيون يمارسون ألوانًا من "السخرية الاستنكارية"، و"الفكاهة الناقدة"، بأكثر مما انشغلوا بـ "الإثارة الماجنة"، أو حتى "الفكاهة التأملية الخفيفة". واحتوت أعمالهم إشارات ناقمة مست- في كثير من فترات التاريخ- هيبة وجلال الأباطرة، لدرجة دفعت بأول امبراطور للصين الموحدة (تشين شيهوانغ، القرن الثاني قبل الميلاد) إلى ممارسة أكبر قدر عرفته البلاد في تاريخها من الحجر على حرية الأدباء والمعارضين، حتى لقد أصدر قراره بوأد أربعمائة فرد بسبب كتاباتهم التحريضية؛ ولا غرو فقد كان أيضًا صاحب أكبر محرقة كتب في تاريخ آسيا القديم.

وكانت صين الثورة الثقافية الكبرى (66 – 1976) مناسبة مثيرة للكتابة الساخرة، بعمق وبمرارة، خصوصًا بعد أن تطورت خصائص هذه الكتابة

وأدواتها الفنية على يد رواد التجديد الكبار؛ إذ أضفوا عليها مسحة من التطور [أقول "مسحة" من التطور، لأن الأساس القاعدي للفكاهة الصينية بروحها التقليدي كان أعمق تجذرًا، فلم تضف إليه طفرة التجديد الوافدة منذ نهايات القرن التاسع عشر إلا هامشًا ضئيلًا؛ ولو أن تأثيره بدا متضخمًا، وسنفصل ذلك في حينه!]. هنا، وفي الفترة التي أعقبت الثورة مباشرة، ظهر كاتبنا "ليو هونغ"، شأنه في ذلك شأن كل جيل "الفترة الجديدة"، مستفيدًا من طفرة إبداعية وضع أسسها جيل الرواد. ولنا معه وقفتان؛ أولاهما حول تأثره بطرق المعالجة الواقعية (السائدة في زمنه)، وثانيتهما بشأن طبيعة منحاه الساخر في الكتابة؛ فالرجل ابن زمنه الذي شهد تطورات كبيرة على الساحة السياسية (تأسيس جمهورية الصين الشعبية في 1949، بينما بدأ مشواره الإبداعي في 1952)، وفي المضمار الأدبي- حيث كان كبار الأدباء وقتئذ من أقدر الأجيال التي حصَّلت تجارب واعية، بتفاعلها مع نتائج حركة التنوير في العشرينات، وباطلاعها الواسع على مشهد الأدب العالمي، بفضل حركة ترجمة نشطة منذ بواكير القرن العشرين. فقد وجد الرجل نفسه- كغيره ضمن أجيال شابة يراد لها أن تنخرط وسط جماهير تصنع تاريخًا جديدًا لـ "صين جديدة"- هنا وجد نفسه جنبًا إلى جنب عدد ممن سيلمعون في سماء الإبداع الروائي الصيني بعد سنوات قليلة، بجوار جماعات من "شباب المثقفين" الذين سينزلون إلى المزارع الجماعية والمصانع ليكتبوا عن واقع جديد يتشكل تحت أعينهم..

هنا يجب أن نتوقف لنراجع مسألة مهمة جدًا حول المنحى الواقعي الذي شغل كثيرًا من الباحثين والنقاد على مدى سنوات طويلة. ولعلنا نحاول- في هذا الصدد- أن نتأمل صورة ممكنة للحقيقة، مع أنها قد تبدو غير معقولة!

فمن العسير تمامًا القبول بما يشاع أحيانًا من أن الإبداع الأدبي والفني في

صين الثورة، على مختلف مراحله وتوجهاته، كان يخضع لإملاءات سياسية. ولا أظن أنه قد حدث- في أية فترة من فترات التاريخ الصيني الحديث أو القديم- أن أصدرت الإدارة السياسية في الدولة الحديثة، أو في عصور الحكم الامبراطوري في العصر القديم- سواء حتى مع تأسيس جمهورية الصين الشعبية أو قبل قيامها- توجيهًا "رسميًّا" يحدد مسار وشروط الإبداع الفني والأدبي في صوره وأشكاله كافة، ملزمًا إياه بالامتثال لكتابةٍ من نمط محدد، حتى لو كان هذا النمط هو "الواقعية الاشتراكية" مثلًا.

والصحيح، فيما هو متاح للباحث المدقق من مصادر تسمح باستطلاع الحقائق، وباختصار موجز جدًّا (لعله مُخل أيضًا) أن التداخل بين السياسي والفني الجمالي في الصين له جذوره التاريخية، منذ الكونفوشية، وبعد أن تحولت إلى منهج في الأخلاقيات الاجتماعية، وإلى مبدأ حاكم في السياسة، وأيضًا، إلى رؤية في الإبداع الأدبي والفني؛ فقد كانت ريشة الكتابة- التي دونت أصول الحكم والأخلاق- هي نفسها القلم والدواة الذي كتب شعرًا وتاريخًا، ومدونات "واقعية" تصف وتشرح الأحوال الموضوعية للناس والمجتمع والأفراد والمشاعر والأفكار؛ بل تطورت لتصبح هي نفسها ريشة الرسم والإبداع بالصورة واللوحة والتصميم الجمالي. ولا يفوتنا أن "كونفوشيوس" كان معلمًا وباحثًا وقارضًا للشعر ومثقفًا ومُنظرًا للسياسة والفن (بما في ذلك "فن الحرب")، و... وزيرًا في بلاط الحكم، لأمد غير قصير!

وإذا كانت الإشارة، تاريخيًّا، تذهب إلى مؤتمر عُقد بإحدى القواعد الثورية الصينية (مؤتمر 'يانآن' الأدبي الأول والثاني) برئاسة ماو تسي تونغ في 1942، باعتباره دليلًا على قيام السلطة السياسية بتقييد الإبداع الأدبي ضمن قوالب سياسية جامدة؛ فإن المصادر المتاحة في هذا الباب، وما أكثرها الآن تحت

يد أي قارئ في أي مكان، تفيد أيضًا أن تيار الفكر الماركسي والحزب الشيوعي نفسه كان أحد أهم وأروع إنجازات الحركة التنويرية الثقافية التي عرفتها الصين منذ آخر عصورها الامبراطورية (عصر تشينغ، القرن 17 ـ 19 م)، وكانت ترمي، من بين أشياء كثيرة، إلى تحديث أشكال التعبير الأدبي والفني والتطوير الاجتماعي؛ وذهبت- في ذلك- إلى حد المراجعة النقدية لقواعد الإبداع التقليدية، و"قوالب" النقد المتوارثة. ولم يكن مؤتمر "يانآن" برئاسة ماو تسي تونغ بعيدًا عن هذا الاتجاه، الذي برز- أول الأمر- على يد مثقفي الاتجاه الليبرالي، ثم راح اليسار يكمل المسيرة بدرجة فائقة من الوعي، ولم يبلغ حد الشطط؛ بل أثبت- في كثير من الأحيان- أنه قادر على التعامل نقديًّا مع مواريث الماضي، وكان له رأيه في الكتابة الواقعية؛ فقد كان أقرب إلى تمثل واستيعاب الذائقة الجمالية الشعبية في تلمس طرائق الإبداع، إنتاجًا ونقدًا، وكان وعيه حاضرًا وهو يرفض تشكيل المزاج الأدبي الصيني وفقًا للنماذج الوافدة من الغرب (أي أنه كان من الأساس رافضًا لفكرة التشكل الكاذب، على غرار القوالب الجاهزة!). وكانت الاعتبارات الماثلة في ذهن الصين الثورية (مع اليسار)أن الأدب أمضى سلاح. في قضية النضال الجماهيري (وفي ساحة الصراع الطبقي، كذلك). وكان اليسار يرفض تيار الواقعية المشتقة من مفاهيم الغرب، على النحو الذي وفدت به إلى الصين عبر جهود التنوير في حركة الرابع من مايو 1919 (وهي أول حركة ثقافية في العصر الحديث). وعندما جرت دعوة الكتاب والمبدعين للانخراط مع جماهير العمال والفلاحين والجنود- في قضية النضال- جنبًا إلى جنب جهود التحديث، فقد كانت دعوة ماو تسي تونغ تتلخص، أساسًا، في اتخاذ أساليب الكتابة الشعبية (الصينية!) التقليدية نموذجًا، مما كان يعني عمليًّا: الدعوة إلى تيار "الرومانسية الصينية التقليدية" منهاجًا مثاليًّا في الإبداع.

لم تكن هناك، إذن، دعوة إلى تبني "الواقعية الاشتراكية" كما قد يقال!
وحتى عندما كان للأدباء المتشبعين بتيار الواقعية رأي مضاد، فقد جرت معالجة بالحلول الوسطى، على الطريقة الصينية، بحيث تم التوصل إلى صيغة فنية تقوم على مبدأ "الدمج بين الواقعية والرومانسية الثورية" [كذا، ولمزيد من التوضيح، تلزم الإحالة إلى حقيقة مهمة، وهي أن قادة الثورة الصينية، من وراء الراية الحمراء ذات الخمس نجوم، بنوا اتجاههم الثوري باستلهام "رومانس الشرق"، حتى في اتخاذ شعارهم الثوري من السيف التقليدي ذي النصل العريض مشرعًا فوق جبل "جينكانغ"؛ بل بذلوا كل ما في وسعهم للمفارقة بينهم وبين الاتجاهات الستالينية، حتى أنهم رفضوا الامتثال لقواعد "الواقعية الاشتراكية" في الأدب والفن من هذه الوجهة، أيضًا].

فاجتماعات مؤتمر يانآن الأدبي كانت تتصور للأدب الجديد اتجاهًا ثوريًا، وكانت تفكر مع الجميع بصوت عال، مدفوعة بوعي حركة تجديد ثقافي أكثر منها بسلطة توجيه سياسي. ثم عندما قررت القيادة الصينية- مع "دنغ شياو بنغ"- إجراء خطة الإصلاحات المؤدية إلى سياسات الانفتاح الصيني، في ثمانينات القرن 20، فقد اتخذت شعارها من مبدأ فكري صاغته الكتلة المثقفة الصينية في مقولة "التحرر والانفتاح الفكري"، التي جرت ترجمتها عمليًا بالابتعاد "المنظم" (!!) عن الواقعية، وإن تمسك البعض بها كمبدأ وواجب اجتماعي، التزامًا بالخط الذي أرساه المثقف التنويري الكبير "ليانغ تشي تشاو"، في أول القرن.

وضروري، من هذه النقطة، أن نستطرد إلى تفاصيل مهمة بشأن الواقعية في الأدب الصيني، حتى نتصور سياق تطورها على نحو مفهوم؛ فهي أكثر النقاط غموضًا في مسيرة الإبداع هناك. وربما كان الوعي بها وسيلة لفهم كثير من

مكامن الظلال وخبايا الغموض في تاريخ تطور الكتابة الروائية، بصفة خاصة.

مُهم جدًّا أن نلحظ مكانة "الواقع" "تْشِن" [*][Zhen] كقيمة مركزية في الإبداع الأدبي والفني الجمالي في الصين. فبطبيعة الحال، وبالنسبة لبيئة ثقافية أعطت اعتبارًا للتقاليد المتوارثة في الكتابة الأدبية، فقد تكونت لديها معايير ثابتة في الإبداع، من منظور يتوافق سرديًّا مع السمات الجمالية والأسلوبية ذات التاريخ العريق في تقاليد الكتابة الصينية. فمنذ عصر "هان" (حوالي القرن الثاني ق.م.)، لاحظ باحثو التاريخ والمثقفون والدارسون أن السرد المتضمن في كتاب "سجلات تاريخية" للمؤرخ القديم "صما تشيان" يقوم، أساسًا، على مبدأ التدوين الواقعي للأحداث "شيلو" [Shi Lu]. وفي زمن المجد القديم، أيام دولة "طانغ" (نحو القرن 7 إلى 10 م)، استقرت نهائيًّا أسس الإبداع الأدبي على مبدأ "كتابة الواقع والتدوين المتضمن عناصر الامتثال لموضوعية الأحداث" "شيلو، شيتشن، كيكوان" [Shi lu, Xie Zhen, Ke Guan]. ومفهومٌ أن يُعتبر مبدعو الواقعية الكلاسيكيون أعلامًا بارزة في ميدانهم، وأن تترسخ بهم ومعهم دروب التعبير الفني، في الشعر خاصّة (فالكتابة القصصية، كما أسلفنا، لم تكن تلقى احترامًا كافيًا في ظل الميراث الكونفوشي). ومن هنا، مثلًا، نفهم اتجاه الشاعر القديم "دوفو" إلى الواقعية؛ بل جاء حينٌ من الدهر دعا فيه زميله الشاعر الكلاسيكي "باي جيوي" إلى الكتابة التسجيلية الحرفية للواقع. ثم لما خرجت الرواية من معطف الطاوية، ولقيت مكانة لائقة، سواء في ظل النصوص الفلسفية أو مع البوذية الواردة إلى الصين من المناطق الغربية في العالم القديم (الهند، خصوصًا)، جاء "أوجينزي"- وهو مؤلف أهم رواية ساخرة في القرن

---

[*] لجأتُ، هنا، إلى تمثيل اللفظة الصيني بكتابة صوتية، بدلًا من رسمه مباشرة بالرموز الصينية، تحسبًا لتعذر إخراج ذلك فنيًا (المترجم).

الثامن عشر الميلادي- ليلتزم خطة إبداعية تقوم على "وِن جيان تْشِن شي" [Wen Jian Zhen Shi] أي: "حقائق الحياة ووقائع الأحداث". وفوق هذا أيضًا، فقد جاء مجايله "تساو شوي تشين"- الذي ألَّف في نفس الفترة الزمنية أشهر رواية في تاريخ الصين كله (رواية "حلم المقصورة الحمراء")- ليدعو جهرة وصراحة، كل كتاب القصة في البر الصيني بالتزام مبدأ "كانيو رو شيمياو شي" [Gan Yu Ru Shi Miao Xie] أي: "الاجتراء على تصوير الواقع دون مواربة". كان ذلك قبل أن تعرف الصين أن هناك عالمًا آخر يتخلق في رحم الغد، ودون أن تعرف أن هناك قواعد أرسطية للفنون تنحو إلى تقدير الواقع، (ولو أن قدرًا هائلًا من جهود الغرب وتوجهاته إلى دراسة الصين، تاريخها وثقافتها وإبداعها، كان يجري التماسًا لأدلة تثبت السبق التاريخي له على الصين؛ وأحيانًا ما كان يلوي عنق الحقيقة ليثبت سوابق فضله على العالم القديم، إلخ. وحتى لو كان بعض ذلك مفهومًا، فقد انتهى إلى مغالطات كثيرة).

نقول إن صين العهود الامبراطورية كانت تخضع لتقاليدها الراسخة، ولا تعرف غيرها؛ وحتى لو كانت قد عرفت لأنكرت؛ فلطالما اعتقدت أن العالم لم يدرك حضارة راقية سواها، ولم يؤلف أدبًا أو أنتج إبداعًا سوى ما خرج من مكنون جوهرها؛ وهي النظرة التي تواضعت كثيرًا بعد أن دكت مدافع الأسطول الانجليزي سواحلها الجنوبية مع "حرب الأفيون"؛ بل حتى عندما كانت شمس الصين تميل إلى الغروب منذ أواخر القرن السابع عشر، وراحت تستقبل الوفود البريطانية القادمة للتفاوض بشأن طرق التجارة ومصالحها فيها (وذلك برئاسة "اللورد ما كارتني" في 1792، وكان وقتها برتبة "إيرل"، فيما أحسب!). فقد ظلت حضارة الشرق البعيد تحتفظ بشيء من شموخ عتيد يتصور أعناقه قد طالت السماء مجدًا وتحضرًا. وأظن أن البعثة البريطانية قد صادفت عقبة كؤودًا عندما

طلب البلاط الامبراطوري إلى اللورد ماكارتني نفسه، وهو المبعوث البريطاني الأفخم، أن يركع عند أقدام جلالته، ويسجد بين يديه ضاربًا الأرض برأسه تسع مرات على التوالي، باعتباره همجيًا لائذًا بحمَى العرش الأمجد. وكل الأجانب في نظر الصينيين، وقتذاك، همج غير متحضرين، ما داموا لا يخضعون لابن السماء، الذي هو الامبراطور شخصيًا. وكان أن صاح ماكارتني محتجًا بمكانته الديبلوماسية الراقية، وكان صياحه في حضرة صاحب الجلالة ذنبًا آخر لا يغتفر. وتمت تسوية الأمر بحل وسط، بحيث يتقدم اللورد فيحني رأسه ويقبل يد جلالته، على الطريقة المعتادة مع أصحاب الجلالة في بلده!

هكذا كانت تفكر الصين. وبشيء من نفس أرومة التشدد الصارم، لكن لدى زمرة النقاد والمنظِّرين الأدبيين هذه المرة، فقد تقرر مبدأ أن يكون تسجيل الواقع الموضوعي هو الطريق المهذب الفاضل إلى إنتاج أدب جميل.. كانت الساحة الأدبية تفرض شروطها الكونفوشية، بطابع امبراطوري تقاليدي [سنلاحظ أنها بذاتها الساحة النقدية التي ستفرض شروطها الصارمة حتى اللحظة؛ وقد ندهش عندما تتكشف حقائق صدامها مع مَن اختار النزال معها، في وقتٍ ما، فقط لكي ينتهي النزاع بهروب المبدع خارج البلاد لائذًا بمظلة الصدام السياسي مع السلطة الحاكمة! مع أن الصدام- في جوهره- لم يتجاوز حدود ساحة النقد الأدبي، التي رفضت تعميده، ولم تعترف بقيمة إبداعه؛ فإذا بالقرار العنيد يتجه إلى هدم المعبد على رأس الجميع، والهرب إلى الغرب طلبًا للحرية.. أو هكذا يبدو لي الأمر، حسب شواهد كثيرة؛ لكن تلك مسألة أخرى ليس هنا مجال الخوض فيها].

وعمومًا، فقد كان "الواقع"- كقيمة مركزية في الإبداع الصيني تقليديًا- يمثل الأساس المعياري لكل كتابة تتوسل بمقومات الأداء الفني الجمالي، في معناه

الصحيح. وكانت تلك أسسًا إبداعية عاشت بقوة القصور الذاتي، وتلاءمت مع مطالب الأدب الجديد في الصين الناهضة من سباتها مع مطلع القرن العشرين. لذلك يرثها مبدعو العصر الحديث، مثل التقدمي "تشن دوشيو" (رائد الماركسية الصينية)، وهو يرفع راية "الأدب الواقعي". وقد ترسخ هذا الاتجاه إبان حركة 4 مايو 1919، عندما انفتحت أبواب الصين- بكل طاقتها- على الثقافة الغربية [لم يكن ذلك أول لقاء مع الغرب]، ومرت بفترة تقلبات هائلة. وقد وفدت إليها تيارات فكرية وإبداعية من كل مكان، فالتقت بتلك التيارات، وكان من بينها الاتجاه الواقعي، وأخذت تيارات الكتابة بهذا المنحى، إما في نسخته الروسية وإما في ثوبه الأوروبي، حتى كان أغلب ما يشد انتباه الكتاب الصينيين، إبان ذلك العهد، الموضوعات الاجتماعية وانعكاساتها على المشاعر العامة. ومن هنا، مثلًا، كتب "لوشون" رائعته "قصة أكيو الحقيقية"، وأبدع "تشيان جونشو" روايته "حصار مدينة"، إلخ.

فالرواية المطرودة من رحمة الكونفوشية وجدت لها ملاذًا في حمى الطاوية، وهي النظام الفكري الأكثر ميلًا إلى تقدير الرؤى الجمالية غير التقليدية، التي شكلت الشخصية الثقافية الصينية (والطاوية دائمًا ذات مكانة أثيرة لدى المثقف والفنان الصيني، باعتبارها أمَسّ رحمًا بالإبداع الأدبي المتمرد، الثائر، المنفلت من قبضة القالب الكونفوشي الصارم، وبالذات في مادته الشعبية الأصيلة وخصائصه التلقائية، بعيدًا عن قالب المؤسسة النقدية، بتراثها المحافظ). المهم أن الطاوية احتضنت الروح الثائرة في الرواية، ومنحتها أعظم هالات المجد، حتى صارت الرواية "التقليدية" تحمل- بشكل أو بآخر- طابعًا ثوريًا أصيلًا (وهو ما ستلتف إليه الثورة الثقافية، في ستينات القرن 20). وهناك مثلا رواية "على حافة البحيرة" التي كتبها "شي نايان" (زهاء القرن 13 م)،

وتحكي وقائع حقيقية لما حدث أثناء الانتفاضة الفلاحية الكبرى، التي قادها "سونجيان"، في زمن أسرة يوان الامبراطورية، يوم أن تدافع الريفيون البسطاء وهم يحملون فؤوسهم وعصيهم بوعي ثوري ضد حكام المقاطعات.

وقد جاء كاتبنا "ليو هونغ" هو الآخر من خلفية ريفية (فهو من مواليد 1933 ببلدة "تشونغ تشينغ"، بإقليم "سيتشوان"، غرب الصين)، وظهر إبداعه في زمن ثورة (بدأ كتابة القصة في 1952، أي قبل تخرجه في قسم اللغة الصينية بجامعة سيتشوان بعدة سنوات). وشهدت سنوات إبداعه الأول انتصار الثورة الاشتراكية بتأسيس الجمهورية، وهو الانتصار الذي شجع على المراجعة النقدية لمنجزات حركة الثقافة الجديدة، وتطرقت المناقشات- في بعض منها- إلى التنديد بمثالب الحركة، ومن بينها: انقطاعها عن الروح "الثورية" الأصيلة في تقاليد الإبداع الصيني. ويبدو أن أسبابًا للفوران احتشدت في تلك الأيام وهيأت الأجواء للثورة الثقافية الكبرى، فانطلقت في 1966، وعاش "ليو هونغ" سنواتها العشر كاملة؛ وتقريبًا، فقد كان شاهد عيان على كثير من التفاصيل التي تراكمت- فيما بعد- لتكون ضمن فصول مجموعته القصصية الساخرة وروايتيه الوحيدتين (اخترت للترجمة خمس قصص من مجموعته، البالغ عددها 13 ما بين القصة والرواية القصيرة). وللأسف، فليست هناك معالجات نقدية وافية لأعماله، رغم فوز روايتيه الوحيدتين بجوائز أدبية راقية (رواية بعنوان: "**شقشقة البلابل**" فازت بجائزة التميز في 1981، وأخرى بعنوان "**ابنة الحجَّار الذي يعاقر الخمر**"، وفازت بجائزة الأدب الصيني في 1988). لكن الواضح أنه تحمس لتيار ما سُمي بـ"أدب الجراح" الذي ازدهر مع نهاية السبعينات، وكان عليه أن يكتب عن حياة جيل الثورة الثقافية، ويقول الكثير مما سكت عنه الصوت الرسمي، الذي اكتفى بإدانة التجاوزات التي حدثت أثناء الثورة

الثقافية، وما أبشعها! ثم كان على "ليو هونغ"- كغيره من الكتاب أيضًا- أن ينكأوا جرحًا بالغ الألم في أعماق الصين الحديثة، بشجاعة ومسئولية، يوم أن كان على الإبداع أن يُخلص الوجدان الجمعي من آثار أيام بغيضة... هنا، كان على الكتابة أن تصير أداة للنسيان.. (وأداة صريحة وواضحة في مواجهة أخطاء تاريخية، فاستحقت أن تمهد لانتقال تاريخي، في الكتابة، بجانب حركة تَدافع كبرى على مستويات مختلفة.. ومن هنا، انطلقت مرحلة جديدة في الإبداع الروائي.. واهتمام عالمي متعاظم بترجمته.. وحصول اثنين من الروائيين على نوبل [كاو شينغ جيان، وموريان])، إلخ.

لكن هنا أيضًا، ومع ليو هونغ في أول الثمانينات، كان للشفاهي أن يلعب دوره بامتياز! لأن "أحاديث العامة" كانت مادة الشفاهي وخزانة الحكي التي لم تفرغ مادتها، على طول الزمان؛ ولأن معايير الكتابة الثورية كانت قد استقرت على استلهام نموذج "رومانس الأدب الشعبي".. حيث "يعتقد معظم الصينيين أن العمل الأدبي قصة رومانسية، ذات تفاصيل واقعية"، على حد قول الروائية "تشانغ آيلين".

وعلى أية حال، فقد بدا أن "ليو هونغ" قد استطاع- في أول الثمانينات- أن يدرك معنى ماحدث أثناء الثورة الثقافية، وأن يعرف ما يتوجب قوله؛ خصوصًا أن حياته الطويلة في الريف، وتأثره برواد القصة الحديثة، وتجربته الطويلة في الكتابة، قد هيأت له القدرة على خلق سرديات وصفية عميقة تستلهم تقنية الرومانس الشعبي ببراعة فائقة استطاعت أن تنقل صورة المأساة. وبطبيعة ميله الشخصي إلى الفكاهة، وبالظروف التي أحاطت، موضوعيًا، بتشكل الرواية الصينية الحديثة في نسختها الساخرة على يد: "لوشون"، "لا وشه"، "تشانغ داي"، "شن تسونغ ون"، إلخ، وبتوجه الساحة الأدبية- في أول الثمانينات- إلى تيار

"أدب الجراح"، فقد كانت الفرصة مهيأة لكي يُخرِج من جعبة الحكايا الكثير. وقد كان... لكن وقفةً أخرى مع تلك العناصر يمكن أن تقرب لنا فهم الأجواء الفكرية التي أحاطت بإنتاج مجموعته القصصية التي نتكلم عنها، بل كتابته الروائية عمومًا.

فلابد أنه- كغيره من مجايليه- قد اطلع على الإنتاج الأدبي لكتاب النصف الأول والثاني من القرن 20، واكتشف أيضًا- مثل كثيرين منهم- أن ثمة أحوالًا مستجدة تشبه كثيرًا ما كان قائمًا أيام حركة الثقافة الجديدة التي انطلقت في 4 مايو 1919، وأن ظروف المجتمع الأدبي الصيني- في أول ثمانينات القرن العشرين، وبعد ثورة ثقافية كبرى- مهيأة نفسيًا لكتابة قصصية ساخرة، وبوعي متجدد بالأزمات الاجتماعية... وعي قادر على استبطان وجدان الشقاء الجمعي!

لكن، ماذا عن الرواية الساخرة في النصف الأول من القرن العشرين، أيام حركة 4 مايو تلك؛ وكيف كان يمكن لها أن تؤثر في إبداع "ليو هونغ" وأبناء جيله، بعد انقضاء سنوات منذ انطلاقها؟

لكي نتفهم السبب الرئيسي في ذلك، فلنراجع معًا ما كتبه أحد أشهر نقاد الحركة الأدبية الجديدة (اسمه "لين يو تانغ") في 1920 إذ يقول: "كنت قد أسستُ منذ عشر سنوات أول مجلة فكاهية في الصين؛ بهدف خلق وعي كبير بين الناس بأهمية ما يمكن أن يقوم به هذا اللون الأدبي من دور في مسيرة الأدب الحديث؛ فإذا بي أواجَه بتعنت وجمود السلطة الحاكمة (يقصد سلطة اليمين الرجعي الحاكم وقتئذٍ)، وكل أولئك الرافضين لنشاط الشباب الماركسي، فلم أملك- وسط إحساس عارم بالإحباط- إلا أن أقول لهم إن الفكاهة أصبحت شيئًا مقبولًا في بلاد العالم من حولنا، بل صارت موضع ترحيب من

الجميع، هكذا بلا مراء!" ولنتساءل، ما الذي جعل السلطة الحاكمة تأخذ هذا الموقف من الأدب الفكاهي؟ وهل كانت مدفوعة في مواقفها بمنطق محافظ له جذوره في الأدب الصيني؟ والإجابة ببساطة... نعم، ولنستطلع المزيد مما كان يكمن وراء هذا الموقف.

فرغم رسوخ قدم الفكاهة في الصين، لم تكن لها مكانة معتبرة في الثقافة التقليدية التي رأت في الكوميديا والسخرية والفكاهة نماذج وضيعة من التعبير الفني (حسب التقدير الكونفوشي، كما يُقال!). وتردد أيضًا أن الكونفوشية هي التي أعاقت تطور الكتابة الفكاهية الخفيفة وتوابعها الساخرة، بعد أن اعتبرت أن القصة والمسرح عبارة عن انشغال ثقافي "حقير". وبالتالي، فقد عجزت الفكاهة عن أن توجد لها مكانة لائقة وتقاليد راسخة، رغم أن مؤرخًا محترمًا في العصر القديم، مثل "صما تشيان" كان هو مَن صك المصطلح القدير للإبداع الفكاهي "هوايجي" بدلًا من التسمية القديمة "بايو"؛ وبهذا، يكون قد منحه محتوى معتبرًا، بحيث صار يطلق على الأدوار الهامشية للمهرجين القدامى وهم يقدمون النصائح العابرة، خلال قفشاتهم المضحكة ونكاتهم اللاذعة، في حضرة الأباطرة (حتى أمكن لأحدهم، ذات مرة، أن ينتقد مسلك صاحب الجلالة.. يوم أن قرر إنفاق مبالغ طائلة لإقامة جنازة رسمية لحصانه الميت! وقت أن صمتت الأفواه عن التنديد بتصرف سفيه!) لكن عددًا من النقاد يرون أن المؤرخ النبيل صما تشيان لم يكن يستطيع أن يصطنع هذا التدقيق الاصطلاحي لولا أن الكونفوشية- تبعًا لتفسيرات مغايرة- اتخذت في الحقيقة موقفًا معتدلًا من الفكاهة، وذلك بعد أن راحت تعيد الاعتبار للأشياء الجديرة بالضحك، من زاوية التفاؤل بالمستقبل.. من زاوية الاستبصار بحس مرهف يمنح الأمل في تجاوز الأزمات، إنعاشًا للنفوس، وابتعاثًا للإرادة الإيجابية تجاه ما

يعترض تدفق الحياة؛ وهو موقف يتساوق مع مبادئ كونفوشية أصيلة.

لكن المؤكد أن الطاوية كانت هي التي منحت الأدب الفكاهي والكتابة الساخرة الأساس الأول والمكانة الرفيعة وضرورات البقاء، حتى ليقال إن أول وثيقة أدبية ساخرة كانت هي المدونة الطاوية "تشوانغ تسي"، وجرى تحريرها منذ نحو 2500 سنة (ولو أن رأيًا آخر يقرر أن أول مدونة ساخرة في تاريخ الصين الأدبي هي المعروفة باسم "شياولين" XiaoLin ، في عصر "مينغ"، أي نحو القرن 14 إلى 17 م)؛ والتقدير الأقرب إلى الصواب، عندي، أن الأدب الساخر قد وُجد طوال الوقت، وعلى مر العصور التاريخية في الصين، وقبل عصر "مينغ" تحديدًا، بطريقة مبعثرة وفي أشكال فنية مختلفة، ومن هذه الأشكال، مثلًا:

- شكل فكاهي قديم جدًا، عرف باسم "باي شو" Pai shuo، وهو عبارة عن مونولوج فكاهي قصير، أصبح نوعًا أدبيًا، وهو الذي كتبت به المجموعة المشار إليها سابقًا باسم "شياولين" Xiaolin [حدائق الفكاهة]، وتم تأليفها زهاء عام 221 ق.م.

- شكل فكاهي بسيط يطلق عليه "أحاديث العامة".

- شكل فكاهي يتخذ من القصص الخرافي "يويان" Yu yan مادة أساسية لمحتواه، وربما كان أقدم الأشكال جميعًا؛ إذ ظهر فيما قبل أسرة "تشين"، أي قبل سنة 221 ق.م.

- المسرحيات الفكاهية "هوا جي شيو" Hua ju xu.

- النكات الشعبية "شياوهوا" Xiao hua .

فتلك إذن أهم الأنماط الفكاهية التي ظهرت في العصر القديم، وإن كان

هناك تصنيف آخر للكتابات الفكاهية والساخرة تبعًا لمغزاها الفني، بحيث تنقسم إلى: فكاهات الهجاء، والسخرية الفاحشة، ونوادر التنوير الذهني، والنكات الساخرة، والفكاهات الظريفة. بل فرّقت الصين القديمة بين الفكاهة (أو التعبيرات الفنية المرحة) الذكورية والأنثوية. ومثلًا، فقد تضمن كتاب "تشوانغ تسي"- وهو كما أسلفت أحد أقدم المدونات الفكاهية في الفلسفة الطاوية- تعريفًا ينص على الفرق بين النوعين، من حيث أن الفكاهة الذكورية بطبيعتها تنقسم إلى: الفاحشة، والعنيفة، والماجنة؛ بينما الأخرى الأنثوية، تتدرج في: الناضجة، والراقية، والشاعرية.

كانت الفكاهة الصينية التقليدية، عبر تاريخ تطورها، تتبلور في قالبين أساسيين:

- الأول، يتمثل في الفكاهة التقليدية الشعبية، مثلما نجدها في الأزجال والأشعار الشعبية، والحكايات والنكات المرحة، وأشكال "البايو" المشار إليها فيما سبق، والمسرح الغنائي الشعبي، والسير التاريخية غير الرسمية.

- الثاني، يتضح في الكتابات الأدبية الحديثة من شعر وقصة تراثية ومسرح.

ولم يكن التطور في كليهما واحدًا؛ فالأول كان أعرق تاريخًا، أما الثاني فأقل انتشارًا، وربما (فقط، ربما) كان أضأل قيمة، لمحدودية تأثيره وتقلص حدود انتشاره.

وبالتأكيد، فلم ينس النقاد أن يضعوا التعريف الواضح والاصطلاح المعبر عن المحتوى الفكاهي في الأنماط سالفة الذكر. ولأن "القصة الصينية الفكاهية أو الساخرة"- سواء تقليديًا أو حداثيًا- هي التي تعنينا هنا في المقام الأول، فمن المهم أن نتتبع تعريفها. والمتاح بين أيدينا- في هذا الصدد- هو ما اتفقت عليه

معظم المصادر من أن القصة بهذا المعنى، هي: "الكتابة ذات المحتوى الفكري النقدي تجاه الواقع، وتتميز بخصائص متفردة." والمصطلح القديم الذي اتخذ إشارةً إلى المحتوى الفكاهي كان يحاول من جانبه أن يزيد الأمر وضوحًا، بتعيين تلك "الخصائص المتفردة"، على النحو الذي يمكن رصده في لفظة "هواجي" Huaji ، بمعنى "الفكاهة" أو "السخرية الناعمة"؛ أو، تحديدًا، "المنزلق الخادع". وقد فطن النقاد القدامى، في فترة مبكرة جدًّا، إلى التباين الدقيق بين "الفكاهة" و"السخرية"؛ من حيث أن الأولى أكثر حكمة ورقيًا من مجرد "الهزل" أو "التبذّل" أو"التعريض" الفاضح؛ ولو أن لفظة "هواجي"- في دلالتها القديمة- كانت أوسع نطاقًا بما اشتملت عليه من الإشارة إلى ظلال متفاوتة، منها: "المرح المثير للضحك"، و"الحديث الساخر"، و"الملَح والنوادر الطريفة". وعلى العموم فقد جاء اصطلاح "هواجي" في مرحلة متطورة عن سابقه "بايشو"، الذي كان يعني "الثرثرة المسلية"، وكان ألصق بما يؤديه المهرجون بين يدي الأباطرة، تفريجًا للكرب الملكي القديم.

[لما جاء القرن العشرون بحركة لتجديد الأدب (كانت- في تقديري الشخصي- جزئيًا، محاولةً للقطيعة مع التراث أكثر منها انفتاحًا على أفق مغاير!) كان من فضائل فريق من المجددين أنهم استطاعوا صك مصطلحات جديدة تتفق مع مضامين مختلفة؛ ومن هنا، فالفضل يرجع إلى الناقد والمثقف الصيني الكبير "لين يو تانغ" في وضع تسمية "يومو" للأدب الساخر، بحيث تنسجم كثيرًا مع محتوى إبداعي متجدد. ولعله استفاد من جيرانه اليابانيين عندما اشتق اللفظ من الكتابة الصوتية لمفردة Humour في الانكليزية].

والقيمة المضافة في التسمية التي جاء بها هذا الـ"لين يو تانغ" هي أنها نقلت معنى الفكاهة من إسار اللفظ القديم "هواجي"- الذي كان يشي بمضمون

أقرب إلى الثرثرة المفتعلة المستجدية للضحك- إلى مغزى جديد، دال على "طُرفة مثيرة للبهجة". لكن من المهم أيضًا القول بأن الساحة النقدية كانت تعرف- قبل التسمية الجديدة المقتبسة صوتيًا من مفردة انجليزية- اصطلاحًا عامًّا في الصينية يشير إلى الكتابة الساخرة، في الأدب الصيني الحديث والقديم، تحت اسم "فنغ تسي" Feng ci، وكان يتلمس الإشارة إلى خصوصية السخرية في الثقافية الصينية، بالرجوع إلى جذورها القديمة في التقاليد التي كانت تهدف إلى تقديم النصح إلى الأباطرة، بطرق غير مباشرة، وعبر ثرثرة مهرجين. ولا شك أن التعريف الصيني- من هذه الوجهة- سيحتفظ لنفسه بخصوصية مفارقة عما يمكن أن نلحظه في تعريفات أكثر شهرة في الساحة النقدية العالمية، خصوصًا تلك التي نجدها عند أعلام النقد الغربي (على يد "روبرت إليوت" Robert Eliot الناقد الأمريكي الأشهر، بتعريفه الواضح للسخرية من أنها "تتخذ وسائل الاستهزاء، والحط من القدر، أو المحاكاة الساخرة، أو التقليد الكاريكاتوري، أو أية طريقة أخرى، لانتقاد أية حماقات أو مآخذ فردية أو إنسانية"). فما يفرق السخرية في التداول الصيني عن سواها هو الغرض الخاص الذي يتوخاه الكتاب الصينيون المحدثون من ورائها، مع الالتفات إلى أن الفكاهة أو السخرية الصينية- ومنذ البداية الأولى- كانت تحاول جاهدة أن تسلك السبل الناقدة الاحتجاجية، في بعض اتجاهاتها؛ فيما حاولت في اتجاهات مغايرة أن تنحو إلى أساليب التقريظ الساخر (بوقار وأدب!). ومن ثم، فهي تختلف كثيرًا عن الفكاهة التي ترمي، في سياقها الغربي، إلى إثارة الضحك، في المقام الأول؛ حتى أن "لين يو تانغ" كان يقول، في تبيان هذا الفارق: "بينما الصينيون يمرحون بجدية تامة، فالغربيون جادون تمامًا في الإقبال على المرح!"

فالأدب الشعبي، أو قُل "الأدب غير الرسمي"، كان الأكثر احتفاءً بالكتابات

الساخرة، بالذات منذ عصر "مينغ"، عندما انكب المبدعون على إنتاج أعمال فذة في هذا الباب، سواء في الرواية، أو أدب الرحلات، أو الدراما الشعبية. وكانت الصين قد تحررت من ربقة الحكم المغولي، وشهدت توسعًا اقتصاديًا وحراكًا اجتماعيًّا، دفعا بالمبدعين إلى مصاف الإنجاز الفني الجمالي؛ برغم بقاء الإبداع الساخر على حاله من الإقصاء خارج دائرة التقدير الرسمي "الكونفوشي" المعتبر، حتى اضطر بعض المؤلفين العظام إلى الكتابة تحت أسماء مستعارة، وبقيت معظم الأعمال الساخرة حرفة في يد البسطاء الذين برعوا في هذا اللون من التأليف؛ فازدهر هذا المنحى على المستوى الشعبي، بعيدًا عن الـ"بيوريتانية" الكونفوشية، وظهرت منه كتابات متنوعة قبل مجيء العصر الحديث بحمولته من النصوص والتعريفات بزمان طويل.

وعلى سبيل المثال، فقد ألف "أو تشنغين"- في القرن السادس عشر الميلادي- رائعته "الرحلة إلى الغرب"، فكانت أهم سيرة شعبية روائية تفضح مثالب عصر "مينغ"، بكل مظاهر الفساد الذي اكتنف تاريخه. ومن مزايا السرد فيها أنه احتفظ بتقليد أرساه مهرجو القصور في السخرية من البلاط الحاكم، رغم ما في هذا من خروج عن التقليد التاريخي في الكتابة الروائية الصينية (ذات الأنماط الثابتة، بأغراضها في استقصاء الجوانب النسبية من الحكي)؛ لكنها استطاعت توظيف الشخصيات لأداء دور ساخر دون خرق للأصول الأخلاقية المقررة. ثم تجلت روعة السرد الساخر في رواية تراثية أخرى بعنوان "مرآة الورد"، حيث رُسمت صورة هزلية لنساء ورجال يتبادلون الأدوار الاجتماعية (في قلب البيئة الكونفوشية، بتشددها الذكوري الصارم!)، فيقوم الرجال بشؤون البيت، ويضعون المساحيق على الوجوه، بينما تعتلي النساء الوظائف الرسمية العليا، ويدخلن في زمرة الجيوش ويصطففن في الجندية... وقد

طالت شواربهن وتشعثت لحاهن، إلخ.

كانت تلك طريقة الفكاهة الشعبية البسيطة في تناول الـ"هواجي"، حيث التصوير الشفاف الصريح لحقائق حياة يومية نسبية. وطبيعي أن يكون المصطلح "هواجي" أقرب تعبيرًا عن خصائص الفكاهة الصينية، بمراعاة طابعها القائم أساسًا على السمات الوعظية التربوية، على الفارق بينها وبين جذور الـ"يومو"، أي الفكاهة بسماتها الغربية، ذات جذورها العميقة في التراث اللاتيني، بدلالته القريبة من مظاهر الاحتفالات الغنائية الصاخبة، وعربدتها الديونيزية الماجنة؛ حيث الكوميديا أكثر ميلًا إلى المرح وخفة الروح والتأمل النافذ إلى طبائع الأشياء واستجلاء كوامن النفس، في شجونها ودوافعها الأصيلة إلى الضحك.

[وهنا، لعلنا نلحظ فروقًا مقررة بين الثقافات المختلفة، مما قد يميز مذاقًا قوميًا ما عن نظائره في ثقافة أخرى بخصائص ناتجة عن طبيعة تفرده وظروف تشكله التاريخي، تتحدد سلفًا كمعطى أو سمة مبدئية وأصيلة، تمنح الشخصية الثقافية طابعها المميز. والتماسًا لبراهين ذات دلالة في الفارق بين مزاج الفكاهة بين الصين والغرب، نحيل إلى دراسة أجريت في 2003 على طلبة الجامعات في هونغ كونغ وتايوان، خرجت بنتائج تشير إلى أن معظم الطلبة الصينيين- في هذه الجامعات- لا يعدون الفكاهة عنصرًا مفيدًا في الإبداع. وفضلًا عن ذلك، فطلبة الجامعات في "سنغافورة" يستخدمون نكاتًا جنسية أقل من نظرائهم الأمريكيين، حيث يفضل الدارسون من أصل صيني - في تايوان، هونغ كونغ، سنغافورة- النكات ذات المحتوى المحافظ، بينما يميل أقرانهم الأمريكيون إلى "القفشات" ذات المضمون الجنسي بعامة. وقد استكملت أبحاث أخرى على الطلبة الصينيين في "منغوليا"، فخرجت بنتائج تكاد تكون متماثلة مع

سابقتها؛ مما يبرز اتجاهًا صينيًا عامًا ذا طابع محافظ تجاه الفكاهة، ولو أنه يقدر لها دورًا إيجابيًا ما، سوى أن الخلاصة انتهت إلى استنتاج يبرز تعاظم الانطباع السلبي عن الموضوعات الفكاهية والساخرة، بوصفها "ذوقًا منحطًا، وسلوكًا لفظيًا مذمومًا، وانحرافًا عن القيم الاجتماعية السليمة، ونكوصًا عن التقديرات الناضجة". فنحن هنا إزاء سمات تنحو، كطابع عام، إلى التزمت الخلقي والانطوائية المرهفة الحكيمة، والتقدير البالغ للشروط الثقافية المحددة للإندراج ضمن البيئة الاجتماعية محل العيش المشترك، بافتراض موضوعية الدراسة وصحة تقديراتها وسلامة نتائجها [*]

ونرجع إلى الكتابات الصينية الساخرة، في صيغتها الشعبية، قبيل العصر الحديث، فنجد منها الشيء الكثير، حيث: الـ "بينهوا" ping hua [الأحاديث العامية] وقد ازدهرت في زمن "سونغ"، أي نحو القرن 13 م؛ وبعدها نعرّج على دراما عصر "يوان" أي القرن 14 م، وصولًا إلى الـ"تشوان تشي" Chuan qi [الخرافيات] إبان عهد "مينغ"، في القرن 14 - 15 م، وأخيرًا إلى الـ "شياوشو" Xiao shuo [القصة] أيام أسرة "تشينغ"، في الفترة من القرن 15 - 19 م.

ومفيد أن نستكمل التعليق على هذه الفترة بالعودة إلى كتابات عميد الأدب الصيني "لوشون"، خاصةً وهو يحلل (باستفاضة لا نملك مبرراتها في هذه المقدمة العاجلة) كتاباتها الشعبية الساخرة، منذ عصر "جين" و"طانغ" (أي منذ بداية الكتابة القصصية الصينية، أصلًا)، وذلك في نحو القرن 10 م، فيلاحظ

---

[*] Rudowicz, Elisabeth & Xiao Dong Yue, Compatibility of Chinese and creative personalities. *Creativity Research Journal* 14. 2003. 387–394.

تطورًا في تقنيات ومضامين القصة الساخرة تصل بها إلى الذروة في عصر "مينغ"، ثم تكتمل لها شروط تطورها على النحو الذي ظهرت به في أهم رواية ساخرة في تاريخ الصين الأدبي كله، وهي رواية "على هامش تاريخ السادة المهذبين" Ru Lin Wai Shi (1750 م)، ثم تليها مباشرةً في الأهمية والقيمة رواية "فضائح حضرات الموظفين" Guan Chang Xian Xing Ji (1905)، إلى جانب رواية "زهرة في نهر الخطيئة" Nie Hai Hua (1905)، ورابعًا نخلص إلى الرواية الساخرة "رحلات 'لاو تسان'" Lao Can you Ji (1907). فتلكم هي الروايات الساخرة الأربع الأكثر شهرة في تاريخ الكتابات الشعبية الصينية. وبعدها، وأقل منها قيمة وتفردًا، جاءت كتابات ما سُمي بـ"قصص الستائر السوداء" Hei Mu Xiao Shuo، وتتجلى سماتها الفنية في كونها الأكثر انتقادًا لمثالب زمانها، لولا أنها افتقدت الخصائص الفنية الجمالية ككتابة روائية ساخرة في المقام الأول... وهو تقدير "لوشون" نفسه. ولنا أن نتحفظ عليه، لأنه كان ينطلق- في أحكامه- من قاعدة تقول بأن الكتابة الساخرة ينبغي لها أن تعمل في خدمة "قضية التقدم الاجتماعي"؛ فلنفطن إلى هذا، ونأخذ أحكامه بحذر!

وأول من أخذ الأحكام بحذر، كان هو الناقد "لين يو تانغ"، عندما اعتبر أن الفكاهة أصلًا تنبع من التجاوز والملاحظة الجانبية للوقائع، حيث يهتم الكاتب بالرؤية النافذة إلى دفائن النفس، استجلاءً لكوامنها، عسى أن يستبصر المرء بما هو ناجع لتجاوز مشاعر الاكتئاب والأسى؛ ذلك أن الفكاهة- في تقدير "لين"- أهم كثيرًا من السخرية، حتى لو استهدفت قضية التحديث المجتمعي.. وقد ثار جدل كبير بين وجهتي النظر، وتطور ليصبح سجالًا بين "مدرستين" في النقد الأدبي الصيني طوال الفترة من 1931 إلى 1941 (لم يكن الوقت الذي تمر به

الصين وقتئذٍ يملك ترف التفكه والضحك- في رأي لو شون- ولم يكن الشعب ينتظر من مبدعيه ومثقفيه أن يغرقوه في النكات الهزلية، كذا قال!). وكان هذا أطول سجال أدبي منذ تأسيس الجمهورية في 1912، ومعظم من شاركوا فيه كانوا من نقاد وكتاب اليسار، وكان معسكرهم يدعو إلى استخدام السخرية سلاحًا إبداعيًا ومناقشة خصائصها في علاقتها بالواقع... وأخيرًا تبلور رأي أدبي عام يرى الالتفات إلى هدف إنقاذ الأمة الصينية، وليكن للسخرية دور مهم في الهجوم على "الجوانب المظلمة" من الأوضاع الاجتماعية المتردية.

عندئذٍ، بدا أن هناك فارقًا بين الاتجاه الحديث في الكتابة الروائية والاتجاه التقليدي في الأدب الشعبي، من حيث التفاعل مع قضية التقدم الاجتماعي. وربما استخلص النقاد والدارسون أن هذا الأخير لم يبد تجاوبًا ضروريًا مع قضايا التحديث [هذا ما خلصت إليه نتائج بحثية على يد صينيين وغربيين، منهم: Perry Link, Rey Chow, Denise Gimpel, Michel Hockx, Nicole Huang, Fan Boqun, Chen Jian Hua. لكن مشكلة مثل هذه الجهود البحثية، ككثير غيرها، تكمن في افتقارها إلى رؤية منهجية كلية، حيث افترضت تصورًا بؤريًا يصلح للتعميم، بينما اقتصرت الدراسة وعيناتها على شرائح ميدانية في "مدينة شنغهاي" وحدها].

ويهمنا، في هذا المجال، الإشارة إلى تعدد ألوان وأساليب السرد الفكاهي والساخر في الفترة من بداية زمن "تشينغ" إلى منتصف القرن 20، فانشغل بعضه بكشف الوقائع الاجتماعية المتردية، فتألق حينًا وتردى حينًا آخر في هوة التراكيب الجامدة، وعجز عن التأثير في أجيال متشوقة إلى التحديث؛ مع العلم أن السمات القومية التقليدية في الكتابة الساخرة كانت تقوم على الاستنكار وليس الغضب الجامح، الاستنفار والسخرية التنديدية القادحة دون

التجريبية الفاضحة، والرمز دون اللمز؛ وفي الفكاهة كانت أقرب إلى استثارة الضحكات العارضة دون الهذر الماجن. لكن أشكال الأدب الرسمي بدت- هي نفسها- موضوعًا للتندر والسخرية والتفكه على ما آلت إليه أحوالها في زمن صار يتطلب التطور مع ظروف مختلفة أطلت على الصين، وصارت تفرض عليها التحديث فرضًا.

فالكتابة الساخرة- التي سعت إليها أجيال زمن التحديث في الصين الجديدة، مطلع القرن العشرين- كانت جزءًا من تصور الخلاص للأمة الصينية؛ وهذا الخلاص هو الهدف الأسمى لمن دافعوا عن ضرورة تطوير الكتابة الأدبية الصينية. وقد اعترض البعض بحجة أن الكتابة الساخرة- باتجاهاتها السلبية- لن تخدم أغراضًا بناءة، لكن شبان ذلك الزمان تصوروا أن بيدهم آلة جبارة قادرة على التغييرالاجتماعي، من خلال الأدب... هنالك، عادت القيمة المركزية لإبداع يتسلح برؤية موضوعية، تضع في اعتبارها "الواقع" الاجتماعي، بهدف تطويره. وهنالك أيضًا تصور اليسار الصيني أن الكتابات الشعبية- برصيدها الثوري- تستطيع أن تجابه الواقع المتردي بسلاحها الساخر، وبرومانس الثورة الكامن في أعماقها، من قديم.

[قد أجازف، هنا، بتأمل شيء من التناظر بين الكتابات الشعبية الصينية الساخرة وأحوال الفكاهة الأدبية في مصر (ولو بأشكال سابقة على تطور جنس الرواية)، وانشغالها المتواتر بالتنديد بالواقع الاجتماعي، وانتقاد مثالبه، بتعرية مكامنه المرذولة، أو بالإشارة المبطنة إلى دفائنه البغيضة المستترة وراء أزماته، بمختلف جوانبها، بدءًا من محاولات "سيبويه المصري" في هجائه السياسي للإخشيد، وفي أشكال الفكاهة الاجتماعية زمن الحكم الفاطمي، أيام أن كثرت المطارحات الفكاهية على يد "الجهجهان" و"ابن مكنسة" و"ابن قادوس الدمياطي"

و"الجليس بن الحبحاب"، ثم في العصر الأيوبي مع "ابن مماتي" وكتابه "الفاشوش في حكم قراقوش". ولا بد أن الكتابة الساخرة بالعامية المصرية كانت تستطيع أن تنجز أروع تجلياتها على يد "السراج الوراق" و"الحمامي" و"ابن الصائغ" و"ابراهيم المعمار" و"ابن نباتة" و"ابن سودون" بديوانه الأشهر "نزهة النفوس ومضحك العبوس" (لعله كان أول شاعر مصري يكتب شعرًا فكاهيًا في الأدب الشعبي!)، وذلك في العصر المملوكي. وإذا كان يوسف الشربيني قد حظي- إبان العثمانيين- بشهرة ذائعة بقصيدته المعروفة بـ "أبي شادوف"، فقد سبقه- في المضمار نفسه، وربما بأبرع منه- "عامر الأنبوطي"؛ لكن العصر العثماني لم يكن ليمنح مبدعًا حقه (هو أصلًا لم يكن زمن تقدير المواهب والمبدعين). وربما كان يعقوب صنوع- في بعض تعليقاته المنشورة في صحيفته- أقرب إلى منطق الفكاهة، **كما أبدعها يوسف الشربيني بتناولاته اللاذعة لأحوال الريف المصري البائس**؛ لكنه كان يوظف ذلك لسخرية سياسية حادة من عهد إسماعيل، عندما انتقلت الكتابة الفكاهية الساخرة انتقالًا حاسمًا إلى العصر الحديث، على يد الشيخ "حسن الآلاتي" بمؤلفه "ترويح النفوس"، أو "المضحكخانة"، دون أن نغفل عبد الله النديم ودوره في "التنكيت والتبكيت"؛ بينما شهدت الفكاهة الزجلية تطورها الفذ مع الشيخ "محمد النجار" وصحيفته "مجلة الأرغول"، ليغلب على فكاهته طابع النقد الخلقي الاجتماعي. ثم يبدأ القرن العشرين بمجلة "حمارة منيتي" التي أخرجها (الضابط، سابقًا) "محمد توفيق". وينشأ التنافس (قل، التدافع) الحاد في إصدار مجلات الفكاهة، مع تطور الأحوال الاجتماعية؛ فيصدر "أحمد حافظ عوض" مجلة "خيال الظل"، ويتلوه "حسين علي" بمجلة "البعكوكة". وتدخل دار الهلال ساحة المنافسة، فتصدر "مجلة الفكاهة" في 1926، التي تتحول إلى "مجلة الاثنين"؛ وينتابها شعور ساحة الأدب الصيني (ربما بالتزامن!) بأن الأحوال العامة، وتطور القضية الوطنية،

يحيلان الفكاهة إلى ترف ثقافي ثقيل الظل، فتجمع في مواد المجلة بين الجاد والفكاهي الساخر، خصوصًا أن رفيقتها في الساحة، مجلة "الكشكول"، كانت تدخل معترك النقد السياسي، وتلاحق الوفديين بالسخرية المريرة. ولم يعُق دخول المطبعة تطور الفكاهة الشعبية بأشكالها الأصيلة، فانتشرت المجالس والمقاهي الفكاهية أوائل القرن 20، وارتادها أساطين السخرية، وقتئذٍ: محمد البابلي، عبد العزيز البشري، حافظ ابراهيم. وشاعت الأزجال على يد: الشيخ النجار، أحمد القوصي، عزت صقر، الشيخ يونس القاضي، حسين الحلبي، حسين مظلوم، محمود رمزي، نظيم وبديع خيري، وبالطبع ومن دون أدنى شك: بيرم التونسي. وبالانتقال إلى أجيال وظروف تطور اجتماعي تشهد تزايدًا في معدل الاطلاع، مع تصاعد حركة التعليم، تبرز الكتابات الصحفية الساخرة، بالخصم من الارتجال الشعبي. ولو أن واحدًا مثل "أحمد رجب"- في الثلث الأخير من القرن 20- حاول، من خلال التعليقات الكاريكاتورية، أن يعيد شيئًا من التوازن والاعتبار إلى الكتابة العامية المصرية، بشفافية وروعة أدائها البسيط، حتى لقد ارتفع بمستوى أداء العبارة الريفية الساخرة إلى مصاف الإنجاز اللغوي العبقري، برشاقة وإيجاز المعنى، كما أوصت به الفصحى في مجاز القول (انظر "نصف كلمة"). لكن يبقى أن الفكاهة الساخرة "الطارئة على الكتابة الأدبية الحديثة" لم تخلق لنفسها، بعد، مصداقية الحس الشعبي التلقائي. والأمر كذلك في ساحة الأدب الصيني، من دون مغالاة].

ويفيد الصين أنها نقلت الأداء اللغوي إلى العامية مباشرةً، وبحسم، منذ 4 مايو 1919. فمنذ ذلك التاريخ، توقف الجميع عن استخدام الفصحى التقليدية، وصارت العامية الدارجة "بوتونهوا" Pu tong hua لغة الخطاب الرسمي والأدبي والثقافي دفعةً واحدة. وكانت صين العشرينات تحول دفة تياراتها

الأدبية من الغرب الأوروبي (عبر الوسيط الياباني) إلى الغرب السلافي.. أي إلى روسيا تحديدًا [الصين الأدبية الآن، ومنذ ثمانينات القرن 20 حتى اللحظة، تنقل وجهة اهتماماتها تارةً أخرى صوب الغرب، دون وسطاء، هذه المرة!]. وفي الثلث الأول من القرن 20، كانت القصة الصينية الساخرة تبدأ مشوارها على طريق الحداثة مع "لوشون". وكان الواقع الاجتماعي ومشكلاته وانعكاسات أزماته على المشاعر العامة يفرض التركيز على التناول الواقعي في القصة الساخرة، فكتب عميد الأدب الصيني الحديث رائعته "مذكرات مجنون"، ثم لم يلبث أن أتبعها بـ"قصة آكيو الحقيقية". كانت ظروف الصين في الـ 30 و 40 القرن العشرين، قد بلغت درجة من الحساسية والدقة لدرجة أن الكاتب الساخر "تشانغ داي" كان يردد مقولة مفادها: "الفكاهة عندنا الآن جادة للغاية!" نعم، كانت الكتابة الساخرة عند لوشون تعني دمج الواقعي بالموضوعي النضالي، فكان الساخر عنده يلتقي بالفكاهي؛ لكن آخرين غيره، وتحت تأثير الأحوال العامة لمجتمع الثلاثينات، أعلوا من شأن الواقعي، مثل "تشانغ داي"، الذي تلقى عن لوشون خصائصه الحداثية؛ ولو أنه تفرد بطريقته من دون كثير ميل إلى التأمل، على نحو ما كان يفعل أستاذه، واستطاع أن يخلق عناصر سخريته من المواقف السياسية والاجتماعية ببراعة.

وبعد كل من لوشون وتشانغ داي، شهدت القصة الساخرة تطورها اللاحق على يد مجموعة متميزة من الروائيين، جميعهم من كتاب اليسار، مثل: "شا دينغ" (1904- 1992) ، "تشو ون"، "جيانغ موليانغ"، "وانغ رنشو"، "شيدو" (1910- 1998)، "شياو هونغ" [كاتبة] (1911 – 1942). وتأثروا كلهم بطريقة لوشون في السخرية الهادئة عبر الحكي المتمهل، بتضميناته المشحونة- رغم هذا- بالعنفوان؛ سوى كل من "شياو هونغ" و"شيدو" وحدهما، اللذين كتبا قصصًا

ساخرة ذات طابع ثوري رومانسي.

ثم جاء "لاو شي" (1899 - 1966) ليمنح القصة الصينية الساخرة، في ثوبها الحديث، طابعها الفريد، الذي فاقت به كل ما كان متخيلًا من إمكانات تطور هائل؛ فقد استطاع أن يرسم لها طريق إبداع متجدد حقًا عبر إنتاجه الغزير والمتميز، في قصصه الكثيرة، مثل: "فلسفة المعلم تشانغ" و"هكذا تكلم السيد تشاو"؛ فكان لنشرهما تأثير هائل وسط القراء والساحة النقدية. وكان هو أول من كتب رواية طويلة ساخرة في العصر الحديث، بأسلوب حظي بترحيب كبير، لما تميز به من بساطة وروعة، خصوصًا على النحو الذي يجده القارئ في رواية "مذكرات مدينة القطط" و"الطلاق" و"الدكتور 'ون'". ولئن كان قد بدأ مشواره باتخاذ أسلوب لوشون نموذجًا، فقد استطاع أن يشتق لنفسه أدوات متطورة، ويمضي في طريق متفرد بذائقة مختلفة (في الفارق بينهما، كان لوشون يهتم بالمحتوى التفصيلي، بينما انصرف لاو شي إلى الإطار والأداء اللغوي البسيط، فاستحق عن جدارة أن يصبح أستاذ فن الرواية الصينية الساخرة). لكن مشكلته أنه تعرض بالنقد الصارخ لبيروقراطية الكوادر الحزبية، عندما كتب مسرحيته "التطلع غربًا صوب 'تشانغ آن'". والعنوان اقتباس جزئي من قصيدة لشاعر قديم اسمه "لي بو"، كان يقول فيها.. "أتطلع غربًا صوب 'تشانغ آن' فلا أرى بيتي ولا أرى أحدًا.." والجناس الصوتي بين لفظة 'منزل' و كلمة "شيء ذو جدوى" مفهوم للدارسين، بحيث يسهل استنتاج المعنى ضمنًا.. "أتطلع غربًا فلا أجد شيئًا ذا قيمة". وكانت "تشانغ آن" المشار إليها هنا هي عاصمة أسرة "طانغ" في العصر القديم، وهي أيضًا الموقع الذي اتخذه الحزب الشيوعي الصيني قاعدةً له أثناء حرب الصمود. والرمز واضح بما يكفي للحط من قدر العاصمة القديمة والمقر الحديث.. و"من فيهما". واستدعت السخرية المريرة بدورها

انتقادات من الحزب..إلخ؛ لكن كان من السهل أن يُزج به ضمن الاتجاهات اليمينية في أول الستينات (وبصراحة، فقد تجنّى على مسيرة نضال شعب ووطن بأفدح مما جنت عليه آراؤه. ولولا أني أريد لنفسي حياد الباحث، لاستطردت طويلًا، باستفاضة)، خصوصًا أن صيحته الشهيرة في مسرحية "المقهى" كانت تقول- من دون مواربة- ما يفيد بأن: "الحاضر ليس أفضل من الماضي في شيء.." وعمومًا، فإبداع "لاو شي" علامة فارقة في تاريخ تطور "الرواية" الساخرة في الأدب الصيني الحديث، تستحق الانتباه والدرس.

وصحيح جدًا القول بأن القصة الساخرة الصينية الحديثة قد بدأت على يد لوشون، وتطورت مع "تشانغ داي"، ثم بلغت تمام النضج وروعة الأداء عند "لاو شي" و"شا دينغ"؛ وصحيح- بنفس القدر- أن يقال بأنها وصلت إلى مصاف التطور عند "تشيان جونشو"[*]، فذاك هو الروائي الذي (ربما) يستحق أن يقال بأنه أعظم من كتب رواية ساخرة في الأدب الصيني، على مدى تاريخه كله، قديمه وحديثه (والتقدير هنا منقول عن آراء نقدية معتبرة، مع تحفظنا على صيغته الذاهبة في المطلق). فقيمة إنتاج هذا الـ"تشيان جونشو" أنه جعل المحددات الأخلاقية والاجتماعية، وتفاعلاتها مع حياة الناس اليومية، خلفية عامة يتكئ عليها ابتداءً، ثم يمضي ليبلورها في قضية عامة ذات طابع إنساني، بحيث تكشف عن مكامن الضعف لدى الإنسان العادي، وتجعل من هذا الكشف جرس إنذار، يتردد مشحونًا بأصداء رمزية، عسى أن تتكشف للناس أسوار عزلتهم.. من هنا، فقد كتب رائعتيه: "حصار مدينة"، و"إنسي، حيواني، وحشي". ويكمن تميزه عن الآخرين جميعًا في أنه يكاد يكون الوحيد من

---

[*] تشيان جونشو (1910 – 1998): أكاديمي، استقال من الجامعة ليتفرغ للإبداع الروائي، كتب رائعته "حصار مدينة" في 1947.

أجيال الكتاب الصينيين الذي أجرى على القصة الساخرة تحولًا حاسمًا من المسار التقليدي إلى الحداثي؛ فقد رفع من وتيرة التحديث عاليًا، وتحول من الإقليمية الضيقة إلى الإنسانية؛ وهو ماعجز عنه مجايلوه، حتى لاو شي، الذي لم يبلغ بواقعيته الجامدة مرتبة تفوقه، ولا استطاع الآخرون- بأغراضهم النقدية الأخلاقية، أو انحيازاتهم الواقعية- أن يتجاوزوا التناول الساخر المقيد بحدود قضاياه المحلية. ولا جدال أن العصر قد خلق للكتابة الساخرة طابعها الواقعي وسماتها المتطورة؛ لكن الخصائص الحداثية الحقة، وأجواءها الفلسفية، لم تتضح بشكل كاف إلا مع "تشيان جونشو".

هؤلاء كانوا أشهر الروائيين الساخرين: لوشون، لاو شي، تشيان جونشو، بي شاوجون، تشانغ داي، شن تسونغ ون، شا دينغ، شيدو، شياو هونغ، إلخ. وكان هناك كتاب آخرون لم يحظوا باهتمام نقدي إلا بالكاد، منهم: "وانغ رنشو" و"بارن" (1901- 1972) و"وانغ لوين" (1901- 1944) و"شيو تشين ون" (1897- 1984) و"جيان شياناي" (1906- 1994) و"شيوجي" (1901- 1993) و"بنغ جيا هوان" (1898- 1933) و"فيمينغ" (1901- 1967) و"جيانغ موليانغ" (1901- 1973) و"وانغ شيان" (1914- 1999) و"لي هانشيو" (1873- 1923) و"شيانغ كاران" (1890- 1957) وآخرون كثيرون.

و.. أيضًا كاتبنا "ليو هونغ" (1933-). وتكمن قيمة هذا الروائي، في تقديري، في أنه أحد أهم مبدعي الكتابة الساخرة في صين النصف الثاني من القرن 20. فمولده شهد تمام النضج للحركة الوطنية، واكتمال عافية النضال الصيني، وانتصاره في حرب المقاومة ضد اليابان، باشتداد عضد اليسار، وتعاظم الدفع باتجاه التحديث، ثم انتصار الثورة الاشتراكية، بتأسيس الصين الشعبية، وتلاحق المد الثوري مع الثورة الثقافية الكبرى التي شهد أحداثها بنفسه. وفي

وعيه تجربة إبداع جيل الحداثيين العظام (المشار إليهم آنفًا)، وبجواره جيل الشباب "وانغ آني" [كاتبة]، و"تي نينغ" [رئيسة اتحاد الكتاب، حتى لحظة كتابة هذه المقدمة]، و"تشن تسون" و"كونغ جيه تشنغ"، وآخرون كثيرون جدًا، وكلهم يتطلع إلى الجيل الأنضج روائيًا، مثل "وانغ منغ" [وزير الثقافة الأسبق]، و"تشانغ شيان ليانغ" و"كاو شياوشنغ" و"لو وِن فو". ولابد أنه تابع كغيره حجم التناقضات بين هؤلاء وبين مراحل تطور الثورة الاشتراكية وجدلهم معها. وباختصار، فقد شهد وعاش ورأى ما يكفي لأن يصنع أسطورة بقاء بعينين مفتوحتين أمام كل الظروف الصعبة. وأظن أنه يستحق أكثر من اهتمام؛ صحيح أنه عاش مع الجيل الصاخب، دون صخب- ولما جاء زمان الجيل اللامع، آثر أن يبقى في الظل- لكنه استطاع بكتابته الساخرة أن يعيد للواقع- الذي ابتذلته القصة الساخرة- مسحة من الرومانسية الصينية الشعبية. وهو ابن إقليم قروي، برصيد من مواريث الحكايا يكفي لخلق أسطورة في الكتابة. ثم إنه انخرط في تجربة واقعية مع "شباب المثقفين"، وعاش معهم قصة نضال واقعية؛ ولابد أنه تلقى معرفةً ما حول الدور النضالي للقصة وفعالية نتائجها الاجتماعية، وتلك نقطة مفصلية أخرى أتاحت له عبورًا آمنًا بين شاطئين: رومانس الأدب الشعبي، وواقعية الكتابة الحديثة (من ثم، ربما نفهم سر إخلاصه لمهنة التدريس في قرية نائية، ودأبه على الكتابة القصصية، كقضية محورية بالنسبة له، حتى عندما أتيح له أن يقترب من النشاط المسرحي!).

بهذا، أكون قد حاولت رصد أهمية ترجمة قصص "ليو هونغ"، من خلال نقطتين، أو وقفتين، أشرت إليهما في أول المقدمة. وعلى أية حال، فقد كنت أنطلق في اختياري لترجمة موضوع الكتابة الساخرة في الصين، عبر إبداع ليو هونغ القصصي، من تقدير يراعي قيمة أدبية وتاريخية لاتجاه استطاع أن يتجاوز

أزمة زمن الحداثة الأول، بما أوصل من جسور بين ميراث الكتابة الساخرة في اتجاه الرومانس الشعبي، وبين تقنيات السرد الواقعي، وببراعة غير متكررة في كثير من كتابات أجيال ناضجة (بعضها حصل على جوائز دولية مرموقة!). هذا هو السبب الأول، كما أراه من منظور باحث عربي مهتم بالثقافة الصينية في إبداعها الأدبي وأحوال تطورها التاريخي؛ وهو منظور مغاير تمامًا لحسابات عصر جديد أطلت عليه الصين مع سياسات الانفتاح، ولابد أن ظروف الإبداع والنقد وما يتصل بها من سياسات نشر وأحوال مجتمع متغير في الداخل الصيني وفي العالم الذي انفتحت عليه البلاد.. لا بد أن كل ذلك وغيره يصب في مصلحة كتابة إبداعية من نوع مختلف. فالآن، وفي فترة الربع الأول من القرن 21 ، تشهد الساحة الأدبية جيلًا آخر ولد في ستينات القرن، وبدأ إنتاجه مع التسعينات، وربما كان يعيش في أسوار عزلة عن تاريخه القريب غير مكترث حتى بما يدور حوله من تيارات فكرية (لو كانت هناك تيارات من هذا النوع!)، مع درايته التامة بأحوال الأدب الغربي، وانشغاله الدائم بالعيش داخل دائرة وجوده الذاتي (الأناني؟)، مع إنكار تام للدور الاجتماعي للأدب، حيث الكتابة- بالنسبة له- مجرد أدوات تقنية جمالية لإنتاج سرد للتسلي، ليس أكثر! جيل ينتج نصوصًا قريبة مما برع فيه الغرب أيام القرن 19؛ وفوق ذلك، فهو هارب دومًا من رومانس التقاليد الأدبية إلى رومانسية الذات الفردانية، على ما يبدو في نصوصه الروائية المونولوغية.. ومن ثم، تتجلى أهمية كتابة "ليو هونغ"، بموقعها المفصلي بين تيارات أدبية كبرى متباينة في خصائصها، وأحيانًا متناقضة في توجهاتها.

في هذا السياق، نطالع كتابة "ليو هونغ" كمدخل لفهم جانب من أحوال تطور الكتابة الساخرة في صين الستينات. وتتجلى أهمية المادة التي بين أيدينا

أكثر عندما ندرك ندرة الدراسات المتعلقة بهذا المضمار، سواء في دوائر البحث الأكاديمي الصيني أو العالمي. لماذا؟ لأن الباحثين الصينيين، عندما تناولوا الرواية الساخرة في الأدب الحديث، صبوا جل اهتمامهم على النشاط الإبداعي الفردي، فانقطعوا عن الاهتمام بمتابعة تطور أحوالها في سياق تاريخي، لفترات أو لمناطق محددة، هذا من ناحية..

ثم إن بعضًا من الدراسات الغربية (أقول "بعضًا" احترامًا لأصول الاحتراز العلمي.. لكن الواقع أبشع كثيرًا) يقدم رؤى غير ناضجة، واستنتاجات متعجلة، فيما يتعلق بأحوال الأدب الصيني الحديث والمعاصر؛ ربما لأن المداخل المنهجية- التجزيئية بطبيعتها- تحتوي خللًا بنيويًّا يستتبع التضليل. فأنت تقرأ مثلًا دراسة أو بحثًا عن الواقعية في الرواية الصينية الحديثة، في مصدر معتبر[*]، فتجد استخلاصًا مثل هذا، في بدء الفقرة.. "إن الواقعية تم تقديمها إلى الصين في نهاية عصر 'تشينغ'، لأن المثقفين الصينيين افترضوا أن الواقعية يمكن أن تشجع القراء على الانخراط الإيجابي في القضايا السياسية والاجتماعية.. لكن سرعان ما فقد المثقفون حماستهم لها وطالبوا بـ... إلخ." ولا يمكنك إلا أن تغض الطرف، لأن الفقرة- من أولها- تنطلق من حُكم اعتباطي؛ لذلك انتهت إلى نتيجة خيالية.

فالحقيقة الناطقة بألف لسان تشهد بأن الواقعية لها القدم الراسخة في عصور الأدب المتلاحقة [واقعية المواريث الأدبية الصينية، بجذرها القديم عند "صما تشيان"، لا واقعية المحاكاة الأرسطية في كلاسيكيات قواعد الفن الأوروبي]؛ وذلك، منذ أن دوَّن الصينيون تاريخًا لبلدهم! لكنها مناهج البحث

---

[*] Marston Anderson. *The Limits of Realism: Chinese Fiction in the Revolutionary Period*. University of California Press, 1990.

التي تعجز (حتمًا) عن رؤية الواقع الموضوعي في ترابطاته الكلية وتطوره التاريخي.. تعجز، حتمًا، لأنها- أي الدراسات الأكاديمية الغربية- حديثة عهد في استقصاء موضوعات الأدب الصيني الحديث، ولم تكن لها غالبًا صلة طبيعية بما يجري، منذ خمسينات القرن 20 ولنحو أربعين عامًا بعدها، ولذلك، فهي إما تكون قد تأثرت بمصادر تمت صياغتها وفق خلفية مؤدلجة، وإما أن تكون قد انطلقت من فرضياتها الجاهزة سلفًا، بما تقرر ضمن أحكام قيمة لا تبحث عن حقائق، بقدر انشغالها بخلق صور فكرية تتكيف مع مظهر للحقيقة.

أيضًا، وفي سياق تبيان أهمية ترجمة أعمال "ليو هونغ".. فهي شهادة كاتب وأجيال "شباب المثقفين" ممن عاصروا وشاركوا في تجربة "الثورة الثقافية الكبرى"؛ وبالتالي فهي مصدر خصب للاقتراب من فهم "الحالة الاجتماعية" الصينية إبان ذلك الوقت. وهذا قصارى ما يمكن تتبعه، ما دامت الحقائق الدامغة ستغيب طويلًا بالصمت الرسمي. وبالطبع، فكتاباته لن تجيب عن الأسئلة الحائرة: هل الثورة الثقافية الصينية قامت بسبب تعنت الثقافة التقليدية، أم بسبب تفتت تلك الثقافة وتخريبها؟ هل نجحت في أن تشد تطلعات الصين إلى الأمام، متجاوزةً الوراء الرجعي المتخلف، الذي أثقل خطوها عن المضي قدمًا؟ إلخ. لكن، وعلى أية حال، فإطلالة "ليو هونغ" الساخرة أتاحت مدخلًا إنسانيًا لفهم الأجواء النفسية للثورة الثقافية. وتبقى لكتابته قيمة الشاهد الحي على أحداث يطالها الصمت الرهيب.. [الصمت الذي حاول "ليو هونغ"- خلال سرده القصصي- أن يميط عنه اللثام، في رمزية الرجل الذي أصابه العجز عن الكلام، فاستبد به السعال، وراح يتلمس كل الوسائل الممكنة لاستعادة الصوت الحبيس في أعماقه، متوسلًا في ذلك بأحدوثة شعبية تمنحه

الأمل في صوت يخرج من أعماقه، يزيح عنه الشقاء. فحتى الدواب المجهدة تنوء بعب الصمت، وتلتمس في أطراف الغابات "نتاجًا مكتمل العافية".. ثم لما جاء الصوت مدويًا، كان بدوره بدايةً لشقاء جديد يجلب على الشاب الريفي الساذج كل ألوان المحن.. ومن زاوية أخرى، يجيء الصمت برفقة الانزواء. فالانكماش فضيلة مثلى للمدرس ضعيف البصر، الذي يجد نفسه مطالبًا حتى بألا يحاول مجرد التطلع إلى الشُّرفات البعيدة المليئة بأصص الورود.. وحتى عندما يعرف الريفي ثقيل اللسان مزايا السكوت عن كل الخبايا، ويرضى لنفسه النصيب الأحط قدرًا، ويشتري عنزة عجفاء، إذا بامرأته تجلب على البيت المتاعب، بثرثرتها "وصوتها" المتمرد، فقط لتكتشف أن "الصوت الرسمي" أعلى وأقوى مما يظن أي أحد.. هي جدلية الصوت والصمت، الرسمي والشعبي، تتقاطع مع ثنائية السرد الشفاهي الساخر مقابل المتن الحكائي الرسمي الغائب وراء ستائر أسدلها السكوت فوق الحكايا، إلا من كلمات بقيت على هامش السير، تتشبث بميراث الحكي الفكاهي المتداول، كثرثرة جالبة للضحك، كمهرج يرتدي أسمالًا على عتبات قصر ملكي، يقول كل ما في جعبته، هازلًا، ماجنًا، وقلبه يقطر أسى دفينًا].

واليوم، إذ أقدم إلى القارئ "مختارات قصصية للكاتب الصين الساخر 'ليو هونغ'"، وهي أول ترجمة له على الإطلاق، مما يتيح للقارئ العربي مطالعة مادة لم تنشر للقارئ العالمي في أية لغة أخرى؛ فالباعث على تقدير أهميتها وجدارتها للترجمة، يتلخص في أنها:

- استوعبت مراحل تطور الكتابة الساخرة عند أجيال التحديث، واستفادت منها.

- أدركت ضرورة التواصل مع طابع الرومانس الشعبي الأصيل في مواريث

الرواية الصينية.

ـ تفاعلت، ميدانيًّا، مع تجارب (أو بالأحرى، تجربة..) التلاحم الثوري وسط البيئة الثقافية المحلية، مما أتاح لها فرصة رؤية واقعها الاجتماعي، والجدل معه، إبان فترة مهمة من تطور الصين.

ـ أتاحت مادة قصصية معبرة عن جوانب متخيلة مما ترسب في الوجدان، فرديًّا أو جماعيًّا، عبر كتابة إبداعية حاضرة في مشهد الثورة الثقافية الصينية.

ـ برغم ضآلة كتابات "ليو هونغ" الإبداعي، كميًّا، فقد لخصت سمات الكتابة القصصية الساخرة نوعيًّا؛ مما كان يستوجب قراءة نقدية واعية في خصائص السرد عنده، بالذات، وقد جاءت كتابته في نقطة مفصلية من تاريخ الإبداع (بين جيل الكتابة الملتحمة بالشأن الاجتماعي، وجيل الإبداع المنغمس في دائرة وجوده الفردي).

بهذا التقدير، قمت بترجمة كاتب صيني ساخر، وأنا أضع موضوع الكتابة قبل المبدع، ربما لأني كنت أتصور أن التعريف بأحوال الأدب الصيني وتقديمه إلى المكتبة العربية، يحتاج إلى تأصيل رؤية أو خطة أو منهج محدد، يحد من غلواء الانتقاء الفردي؛ وأن تناول المنتج الأدبي- وفق تصنيف بالموضوعات أو أنساق موضوعية في الكتابة- يمكن أن يقود إلى إنجاز بالتراكم، ومن ثم يرسخ مسارات منهجية تقود إلى وعي بأصالة منجز ترجمي، خصوصًا أن مدرسة عربيةً في الترجمة عن الصينية لن تكون قد امتازت بالشيء الكثير إذا ما اقتصرت على أفضلية النقل المباشر عن لغة الأصل وثقافته؛ مادامت لم تؤسس أنساقًا أو رؤى أو أطرًا موضوعية لجهودها. من هنا، أبادر بهذه الترجمة؛ وعمليًّا، إلى رؤية فردية تعوض عن غياب الخطة المؤسسية في الترجمة، بتقديم الأعمال

الأدبية الصينية الحديثة والمعاصرة، وفق تصنيف بموضوعات الكتابة، أو أنساق الموضوعات الإبداعية في الرواية. ولئن كنت قد بدأت بأعمال "ليو هونغ"، للأسباب المذكورة آنفًا، فالمفروض أن أتقدم بعده خطوة أخرى- وفقًا لسياق تاريخي- فأترجم من الرواية الكلاسيكية رائدة الكتابة الساخرة فيها، "على هامش حكاية السادة المهذبين"، ومن الأدب الحديث أقدم ترجمات لـ لاو شي، وتشيان جونشو، و تشانغ داي، على الترتيب؛ أو أن يقوم غيري من المترجمين بهذا الجهد. فالمهم أن تكون ثمة خطة واضحة، تعطي اعتبارًا لإنجاز ترجمة الأنساق الكلية لموضوعات الكتابة في سياقها التاريخي، وذلك بالتمايز عن منحى آخر معاصر، يركز على تفوق الخصائص الفردية عند آحاد الكتاب.

يبقى أن أشكر كل من أسهموا بجهد في إخراج هذه الترجمة؛ فبفضلهم أمكن لهذا التقدير الفردي في اختيار مادة الترجمة أن يحظى بتشجيع مؤسسي، بل بأعظم دعم معنوي كان يجب أن أذكر فضله، ابتداءً، بموقفه ودوره ليس فقط المشجع، بل الواعز إلى مقاربة مغايرة في تقديم الآداب العالمية والتعريف بها؛ خصوصًا تلك التي تخص مناطق ثقافية مختلفة عما ألفناه طوال عهود، بحيث تحقق للتناول الترجمي، في مصر، تمايزًا إيجابيًا عن المطروح للقارئ عبر اختيارات تمت صياغتها بعيدًا عن المنظور الغربي، فكان موقفها مؤسسًا لهذا النتاج الذي بين يدي القارئ، بإلحاحها على تقديم مادة مترجمة تحظى بحضور فكري مستقل، ومداخل عرض غير مسبوقة، إلى جانب الجديد الذي تتفرد به ساحة النشر العربية، دون غيرها. فها هي مجموعة قصصية نهديها إلى القارئ في العربية، نرجو أن تكون لها فعلًا ميزة السبق، على أكثر من مستوى.

محسن فرجاني

انطباعات شخصية عن "ليو هونغ"

للشاعر الصيني: سون جينشوان

صحيح أنني شاعر، لكني لا أطالع الشعر بقدر ما أقرأ الرواية. قد تدهش لهذا، وتضرب كفًا بكف من العجب. ومع ذلك، فلي- فيما أختار من الروايات- مزاج غير عادي؛ ولي أيضًا هوى خاص وتدقيق وتمحيص فيما أنتقي للاطلاع. ولا يستلفت نظري- في معظم المطروح من الروايات والأعمال القصصية، مما تلقي به المطابع في أسواق البيع- إلا ما يكتبه "ليو هونغ" من أعمال قصصية؛ فهو أكثر ما يأخذ بمجامع قلبي، وأشد ما يغريني بالقراءة، ويظل محتفظًا بطزاجته لفترة طويلة. وربما هرعت إلى شراء ما صدر له في سوق النشر، فور علمي بأن ثمة عملًا جديدًا قد وجد طريقه إلى النور، ثم أجدني قد انكببت على قراءته حتى انتهي منه في طرفة عين!

اسم "ليو هونغ" غير مطروق بين عامة القراء؛ فقليلون جدًا من يعرفونه روائيًا وكاتبًا، في أنحاء البلاد؛ فلم يكن يومًا من "الكتاب المتميزين". ومع ذلك،

فلا تستهويني إلا كتاباته، لا لأنه صديقي، أبدًا. بل وإذا عرَّجنا على باب الصداقة، فلم يكن الرجل أقرب لي من آخرين، ولم يكن من بين مَن تربطني بهم علاقة حميمة؛ وقد أؤكد بأن لقاءً واحدًا لم يضمنا معًا على مائدة طعام، مثلًا؛ بيد أن تقديري وإعجابي به وبذكائه وفكاهته وروح المرح لديه، يصدر عن أعماق مشبعة بروح الود تجاهه. هذا، وقد سعد أصدقاؤه به أيما سعادة، فلم يحضر أحد مجلسه إلا وطاف به طائف المرح وخفة الروح والدعابة.

لا أدعي أنني أعرف عنه الشيء الكثير، وهناك جوانب شتى من تجربة حياته، الشخصية والإبداعية، لا سبيل إلى سبر أغوارها. وربما حكيت شيئًا مما عاصرته معه...

كان ذلك أيام الثورة الثقافية الكبرى [كانت تلك، بالمناسبة، ثورة اليسار المتطرف، وكان الناس يكتبون آراءهم على صحف الحائط في الشوارع والميادين، انتقادًا لكل مَواطن الخطأ في الحياة والعمل والسلوك، إلخ]. وجاء أحدهم وكتب على إحدى الصحف المعلقة على الحائط هجومًا قاسيًا على صديقنا "ليو هونغ"، متهمًا إياه بأنه سليل عائلة غنية ذات جذور عريقة في الاستغلال، بمنطقة "بي" بمقاطعة "سيتشوان". ومن شواهد هذا الاستغلال أن عائلته احتكرت زراعة فول الصويا. ثم تكشفت الحقائق- فيما بعد- لتُظهر مقدار الكذب وافتراء تلك المزاعم الباطلة. وكنت- منذ فترة قريبة- قد طالعت مقالًا للكاتب "ليو شاهي"- في مجلة "الأدباء الشبان"، بعنوان 'خواطر فكاهية بجوار نافذة...'- يتطرق في ثناياه إلى شهادات حية عن سيرة حياة "ليو هونغ"، فيقول مثلًا إنه بدأ مشواره الإبداعي أثناء سنوات دراسته الجامعية، حيث كتب عددًا غير قليل من القصص، تأثر فيها كثيرًا بأسلوب الروائي

الصيني الكبير "شيسيو".

وقد تعرفت إلى "ليو هونغ" في 1956، وكان قد تخرج توًّا في جامعة "سيشوان"، واستلم عمله محررًا في جريدة "الأدب والفن". وبعد فترة من الوقت، أحسست أن عمله بالصحافة يظلم موهبته القصصية، ويكبله بضغوط التخصص الوظيفي. ولما كنت وقتئذٍ في طور النرجسية الشبابية، المفتونة بنفسها وبقدراتها الأسطورية على مغالبة تيار الحياة، فلم أكن مهتمًا بتوطيد العلاقة الشخصية مع زملائي؛ ومن ثم، فعندما قيل لي إن روائيًّا شابًا حديث التخرج قد التحق معنا محررًا بالصحيفة... ويُدعى 'ليو هونغ' لم أكترث للأمر، إلى أن جاء خريف العام 1958، وتم تصنيفي ضمن "الخط اليميني" [الرجعي!]. ساعتئذٍ، عرفت أننا سنصبح أصدقاء، وأني سأحتفظ له بالمودة والتقدير إلى أيام طويلة قادمة.

أذكر أنني- يوم اتهامي بالميول اليمينية في اجتماع عاصف- كنت خارجًا من القاعة التي احتشدت فيها الجموع الساخطة تكاد تفتك بي، وهي تكيل لي النقد والاتهامات- كنت خارجًا برأس منكسة ونفس مكتئبة، وإذا بي وجهًا لوجه أمام 'ليو هونغ'، فتسمَّر مكانه صامتًا وهو ينظر في وجهي؛ لم يقل كلمة واحدة، ولو أني لاحظت إيماءة يسيرة جدًّا برأسه، والتمعت في عينيه نظرة غريبة لثوانٍ؛ وتحيرتُ في مغزى هذه الإيماءة والنظرة، ثم سرعان ما أدركت ما وراءهما من تعاطف ومؤازرة وتشجيع في ساعة المحنة. تُرى، ما الذي كان يريد قوله وقتها؟ لا يهم، فقد كانت تلك ساعة تسمح للمشاعر أن تتواصل من دون كلمات تقال. فإن سألتني، متى عرفت "ليو هونغ" بالضبط؟ لأجبتك بأني عرفته في تلك الساعة! عرفت فيه القلب النقي والإخلاص العريق في طبعه. استدرت

في طريقي، وأنا ماشٍ وملء وجهي دموع.

لقائي الثاني به كان بعد مرور أربع سنوات، منذ ذلك الحين، وبدا لي- حين التقيته- كأنه قد هَرِم فجأة، مع أنه لم يكن تجاوز الثلاثين، سوى أن جبهته كانت قد تغضنت، وذبلت صحته كثيرًا، وربما كانت أيامه تمضي في ذلك الوقت بمشقة وعسر، رغم أن ملامحه بدت كالعهد بها، وضاءة مشرقة تتدفق بالبِشر والسرور، وظلت روحه مفعمة بالفكاهة والمرح، فلم تفتر الابتسامة على وجهه، ولا انقطع عن القفشات الظريفة والملح والنكات وخفة الروح؛ ذلك طبعًا مع اختلاف يسير عما ألفته منه في سنوات سابقة. وكان في تلك الفترة قد نشر عددًا من قصصه، وراجت جدًّا، وذاع صيته بين جمهور القراء كروائي له قلمه وأسلوبه المميز. وبالرغم من هذا، فلم يحاول وقتئذٍ أن يتفرغ للإبداع، واستمر يعمل محررًا في المجلة الأدبية.

كنت قد أنهيت فترة "التأهيل للعمل الزراعي"، وخرجت من "المزرعة الإصلاحية" في سنة 1962، عائدًا إلى عملي في اتحاد الكتاب والفنانين بمقاطعة سيتشوان. وطبعًا، فلم يكن يتسنى لي العودة إلى العمل إلا بعد "خلع القبعة اليمينية"، أي تصحيح مواقفي الفكرية، وتعديل وجهات نظري بشكل مغاير. وبالطبع، فلم يكن لي أن أعود إلى الإبداع مرةً أخرى. وبناءً على ذلك، فقد أُسندت إليَّ مهمة جديدة ألعب فيها دور الوساطة بين المبدعين والقيادات المحلية، بحيث أنقل آراء ووجهات نظر وأفكار هؤلاء إلى المسئولين، بالإضافة إلى مطالعة إنتاجهم الإبداعي، وتقديم عروض موجزة عنها؛ وهو ما استدعى قراءة ومتابعة متصلة لكل ما يصدر عن دور النشر. وكان 'ليو هونغ' أحد المبدعين الذين قمت بدراسة حالتهم. وكان أول ما قرأته من أعماله قصة قصيرة بعنوان

"قصف الرعد"؛ فما كدت أنتهي منها حتى كانت قد استلبت كياني كله، وطغت على كل مكامن الحس في وجودي. ولا أظنني أتذكر شيئًا منها الآن، خاصةً بعد مرور أكثر من عشرين سنة على صدورها، سوى أسلوبها الساخر، وطابعها الفريد في توظيف الكوميديا السوداء لطرح مضمونها الروائي، حتى أنني لم أتمالك نفسي من الضحك أثناء مطالعتها. ومنذ ذلك الوقت، وأنا أعرف للكاتب قدره وموهبته المتميزة.

إن شخصية أي إنسان تتضمن قدرًا هائلًا من التعقيد، وتنوعًا كبيرًا في نقاط ومراكز الثقل والقوة فيها. ومثلًا، فبقدر ما يتسم كاتبنا "ليو هونغ" بالمرح والفكاهة، والتفتح الذهني، والطابع الانبساطي العام في شخصيته، فهو يتميز كذلك بالحذر، والتقوقع، وشيء من الانعزال، مع شعور بالحرج المفرط في علاقاته مع الناس، بالدرجة التي تعكس إلى الناس انطباعًا بأنه أسير عزلة ذاتية يرتاح إليها، ويسعى إلى الكمون وراء جدرانها، التماسًا للعيش وحده في عالمه الروحي الفريد. ولفترةٍ ما، كنا نقيم معًا في مسكن واحد، لا يفصل بيننا سوى عشرة أمتار فقط. ومع ذلك، فلم أكن أدري من أمر حياته شيئًا! لم أدرِ إن كان فرحًا أو محزونًا، إلى أن فوجئت ذات يوم بخبر زواجه. ثم لم تمض فترة حتى عرفت بنبأ انفصاله عن امرأته التي لم أرها. فكيف تم زواجه، وكيف طلق امرأته، وما الذي حدث بالضبط؟ كل ذلك وتفاصيله لا علم لي به؛ ربما كان الآخرون يدركون من أمره ما لم أدركه في حينه، لكنهم بالتأكيد قليلون جدًا، أقل مما يتوقع أحد! وعن نفسي، فقد كنت أتابع أحواله من بعيد، وأتسقط أخباره من أصدقاء يعرفونه جيدًا، وكنت أراه يجلس إلى جمع منهم، يتكلم ويقص الحكايا ويضحك، وأحيانًا أخرى أراه صامتًا متجهمًا، دون أن أنفذ إلى معرفة

السبب وراء ضحكه أو اكتئابه.

مُهم جدًا ما سأقوله هنا، وهي أن صلتي "غير العميقة" بـ"ليو هونغ" قد تأكدت بعد انتهاء "الثورة الثقافية" [أي بدءًا من العام 1977]، حيث كنا نعمل في معهد إعداد الكوادر الحزبية، على الحدود بين مقاطعتي "سيتشوان" و"يونّنان". وقتئذٍ، كنت هدفًا للطغيان السياسي القائم، باعتباري من "حفنة اليمينيين الأشرار". وعلى ذلك، فقد استُلبت حريتي الشخصية، وعشت أيامًا صعبة بحق. أما بالنسبة لـ"ليون هونغ"، فكانت أحواله أفضل مني "إلى حدٍّ ما". صحيحٌ أنه كان عضوًا حزبيًّا، لكن الوشايات والتشنيعات لم تدعه في حاله، وكان أن أودت به أيضًا في وقت من الأوقات، وألقت به معنا في المحنة؛ والمثل السائر يقول... "المنكوبون تجمعهم أواصر المحنة! والنكبة العاتية تجعل الأشقياء أشقاء!" نعم، فقد وحدت المحنة بين مشاعرنا، وخلقت نوعًا من التآخي بيننا، ولو أن العيون المترصِّدة كانت تحوم حولنا في كل مكان، تحاول أن تستطلع الخفايا، وتنفذ إلى مكنون الصدور؛ فاكتفينا من مشاعر التآخي بمجرد تبادل النظرات في كثير من الأحيان، إحالةً إلى اجتهاد السرائر، وقدرة كل واحد منا على اكتناه الخواطر. ثم جاء حينٌ من الدهر على السياسات الرسمية شهدت فيه شيئًا من "الانفراجة" والتوسعة علينا، بعض الشيء، وعاد البعض إلى وظائفهم، وجرى إلحاق البعض الآخر بوظائف حكومية، وفاز بالإقامة في المدينة والعمل بها أولئك الذين نالوا حظوة عند القيادات العليا. أما الذين بقوا محل شك كبير، فيما يتعلق بتوجهاتهم السياسية، فلم يكن أمامهم إلا استلام أعمال متواضعة في المناطق النائية. ومن هذا الصنف الأخير كان "ليو هونغ"؛ فقد تم توزيعه للعمل بالتدريس في مدرسة ابتدائية بمنطقة جبلية نائية. وأستطيع القول الآن

إنه كان أكثر الجميع حظًّا، خصوصًا بالمقارنة بنا، نحن "الأفراد محل المتابعة المشددة"؛ ذلك أنه قد تقرر تجميع كل مَن هم على شاكلتنا للانخراط في نظام "الأعمال الشاقة الإصلاحية"، في أقصى المناطق الجبلية وعورة.

أذكر تمامًا يوم أن أنهى "ليو هونغ" مدته المقررة في التدريس بمعهد إعداد الكوادر الحزبية، وحمل أمتعته واستعد للسفر.. كنت معه وقتها، وحملت حقائبه على عربة يد، وأوصلته إلى محطة القطار التي كانت تبعد عن موقع العمل بنحو عشرة كيلومترات. على الطريق، بكيت تأثرًا بكل ما احتشد ساعتئذٍ في روحي من ألم.. المذلة والمهانة والعذاب النفسي والبدني. وكنت قد صارحته بما عزمت عليه من الانتحار، فضغط على يدي بكل قوته صارخًا في: "حذارِ أن تفعل، بل يجب أن تعيش، مهما كانت الأحوال. ثم إن الانتحار مجرد تصرف غبي وجبان، يجب أن تتذكر دائمًا أن هناك مَن ينتظر موتك على أحرّ من الجمر.. هناك مَن يتطلعون إلى ذلك طوال الوقت، فلا تحقق لهم بغيتهم، بيدك أنت!" ساعة أن تحرك القطار، دفع بيده من النافذة تجاهي، ملوحًا بقبضة يده؛ وفهمت الإشارة.. فهمت معنى أن يستجمع المرء شجاعته، ويتحدى بإرادة.

بعد سنوات، كنت أعيش حياة هانئة، لكنه هو الذي قاسى شدائد مهولة، لا سيما وقد انتقل إلى العمل بالتدريس في منطقة جبلية وعرة، تعرض فيها لكل أنواع المهانة التي يمكن أن تخطر على البال، فضلًا عن إصابته بمرض عضال. ولما التقيته ذات مرة في تلك الأيام، كانت ضحكاته وقفشاته تسبقه، كأنه لم يجرب مشقةً، أو يكابد معاناة في حياته، صافحته وكان يضحك.. بمرارة!

وفهمت.

إهداء إلى 'ليو هونغ'

من الشاعر "كو يينغ"

سنواتٌ مرَّت علَيك،
وَأنتَ تقُصُّ الحكايَات،
تُلقِي النّكات اللّاذِعَة،
فَتشيع أجواءٌ مِن مَرَح،
تَطفُر مِن عَينَيكَ دُمُوع، بينَما..
يَستَلقي السَّامرون على أقفيتهم
في نوباتٍ من ضحكات.
تتأمل جوهر الأشياء،
تعتصر كيانك، حصادًا للمواسم؛
فتشيخ سريعًا،
وتنبت في تجاعيدك أشواكٌ،
تمتد غصون السنط والصبّار

حتى تُجزَ قمم الكذب والترَّهات،
تتبدد كل المزاعم الملفَّقة.

... ...

كل الحقائق ظلال
وراء الأستار،
وراء الأقنعة وجوهٌ وأصباغ،
مهرجون، جبناء، طيبون، أشرار؛
الكل يغني فوق مسرح،
الكل يلهث طلبًا لتصفيق وهتافات.
ينفض السامر.. ولا يبقى
سوى ضحكات هازئة،
وزفرات مليئة بالأسى.

... ...

في نهاية المشهد،
تدلف إلى حجرة فقيرة،
وترشف أقداح المساء.



غلاف المجموعة القصصية في طبعتها الصينية

الشُّمُـوع

(الحادثة التي جرت بسبب كلمة)

صحيح أن "جونكان" كان قد بلغ الآن الأربعين دون أن يتزوج، لكنه لم يحاول أبدًا طوال عمره أن يكون موضع انتباه، أو أن يلفت النظر إليه بأية وسيلة.

يبدو كأنه أحد تلك "الكراكيب" المبعثرة في الزوايا المنسية... شخصية "مهلهلة" في كل شيء: الوجه والملبس والأيام والعمر، من أوله إلى آخره، أشبه ما يكون بكتلة مشعثة من الفوضى واللخبطة. ومع ذلك، فلم يكن يبخل على نفسه بالطعام الجيد، ولم يحدث، مرةً، أن أهمل في عمله؛ بل- على العكس- فقد ظل يؤدي دوره في الوحدة الإنتاجية، مشهودًا له بالكفاءة، والدأب والجلَد على القيام بأشق الأعمال.

وذات صباح، خرج أحد محاسبي الوحدة الإنتاجية- ممن حصَّلوا قدرًا من المعرفة- على زملائه بنظرية جديدة في الوجود الإنساني، زعم فيها أن

غرائز الطبيعة تدفع المرء إلى أن يملأ سجل إنجازاته بأشياء باهرة، يفخر بتوريثها لأحفاده؛ وهو ما يفعله بالضبط أي واحد يؤلف كتابًا أو يبتكر نظريات مثله. وأبسط من هذا كله- والأرجح بالتأكيد- إنجاب أولاد يحملون اسمه وسيرته في الأيام؛ وإلا ضاع ذكر المرء وانقطعت سيرته، كأنه لم يوجد في الحياة أصلًا. وطبقًا لهذه النظرية، فلم تكن لحياة "جونكان" أية فائدة تُرجى، برغم دأبه وإخلاصه في عمله، فضلًا عن أنه لم يكن- من البداية- صاحب أقوال مأثورة أو كتابات لامعة أو مؤلفات مرموقة تحفظ له في سجل الزمان ذكرًا باقيًا، باستثناء شواهد عابرة كانت تتردد على لسانه، خصوصًا في أوقات الشدة، عندما كان يتوجب عليه البيات في موقع العمل أيامًا متوالية، ضمن مشروع "العامل التقدمي"؛ واعتاد أثناءها ارتداء بنطلون أزرق مكتوب عليه اسم المشروع بكلمات بيضاء اللون، مطبوعة في الخلف، وفوق المؤخرة تمامًا؛ فكان يرتديه، ويمشي مزهوًا بوجه رائق لم تنعقد عليه التكشيرة، التي صارت تغمره مؤخرًا. ولما تشاجر- ذات مرة- مع أحد زملائه، استدار فجأة فوضع كفيه المقلوبتين على الكلمات المطبوعة، وصاح باعتزاز:

"تطلَّع هنا جيدًا يا بني... وانظر المكتوب عندك، ولا تنس أن تقرأ الكلمات الصغيرة الموجودة تحت الاسم الكبير: 'الدرجة العمالية الممتازة'!"

ولم تكن الكلمات الثلاث تشير إلى أي شيء له علاقة بما قاله، وإنما كانت تُقرأ هكذا: 'خاص لاستخدام العمال'. لكنهم- في ذلك الزمان- كانوا يحبون المباهاة بعبارة "الدرجة العمالية الممتازة"، ويقولونها وهم يضغطون على

حروفها، لاستدعاء شعور بالتقدير والإعجاب في نفوس الناس مَن حولهم. ثم إنه لما قالها انبرى له من بين زملائه واحدٌ اسمه "ياور سان"، وربت فوق مؤخرته، وقال له ساخرًا: "فأنت إذن الأخ 'جونكان'، صاحب الدرجة العمالية الممتازة".

والنظرة المتفحصة في ملابس العمل الرسمية كانت ستكشف- في تلك اللحظة- عن بنطلون تهرَّأ في مواضع كثيرة، ولم يبق فيه سوى بضعة خيوط واهية متشابكة في نسيج شبه متماسك.

أما من ناحية الحالة الاجتماعية لـ جونكان، فلابد من توضيح نقطة في غاية الأهمية، وهي أن الارتباط بامرأة وإنجاب أطفال والتمتع بذرية، كل ذلك كان من المسائل التي "لم تسخن لها عينه!"؛ أي من الأشياء التي لم يكن يفكر أو يهتم بها، ولا بأي شيء ذي صلة بالعلاقة أصلًا بين الجنسين. ولو أن الأمر لم يكن يخلو من استثناءات عابرة، منها مثلًا ما تردد عن وجود علاقة مريبة بينه وبين جارته الأرملة، التي مات عنها زوجها الثري... الرجل الذي مات في ظروف عصيبة، وترك وراءه امرأة شابة مليحة، لم يتجاوز عمرها الخامسة والعشرين، وتُدعى "كوارسو"؛ وهي في الأصل ابنة أسرة فقيرة، بل مدقعة الفقر، اعتاد الناس رؤيتها بعد وفاة الزوج، وهي تمسك بيدِ طفلتين دامعتين يحوم الذباب على وجهيهما (ماتت إحداهما فيما بعد). وكثيرًا ما كان هذا الـ جونكان يخف لمساعدة الأرملة وطفلتيها، بدافع الشفقة لا أكثر؛ فيحمل لهن الماء في القِرَب، أو يحمل لهن أجولة الذرة إلى ماكينة الطحين، وربما شمَّر عن ساعديه ليرمم لهن جدارًا

مائلًا؛ ومن وقتٍ لآخر، يجلس ويمد يده في القدر، ويأكل معهن لقمة بسيطة وهانئة؛ فمن ثم، ترددت الهمسات، وطالت التلميحات سمعة المرأة، رغم أن أحدًا لم يملك دليلًا على صحة ما تناقلته الأفواه؛ سوى ما قيل من أن جونكان قد صرَّح جهارًا، وعلى مسمع من كثيرين، بعزمه على أن ينقل متاعه ليقيم في غرفة متصلة بمنزل الأرملة وابنتيها. ولم يسكت أخوه الأكبر على هذا الكلام، وراح إليه وهدده، وقال له في وجهه: "إياك أن يكون ما سمعته صحيحًا، وحذارِ أن أسمع بأنك أنفذت ما في رأسك، وذهبت إلى هناك، وإلا قطعتُ لك رجليك!" فلما وصل الأمر إلى درجة قطع الأرجل، لم يعد أمام المزارع المسكين جان جونكان إلا أن يصرف النظر عما عقد عليه العزم بينه وبين نفسه، وخاصةً أن كلام أخيه كان واضحًا، بدون لبس... "أنت حُر في نفسك، ما دُمت تعيش في حالك، لكن هذا الكلام الشائع على لسان الناس لن يدع المرأة في حالها، وربما تأثر مستقبل بناتها بكل هذا اللغط الذي لا فائدة منه. وقد عشنا في هذا المكان، أبًا عن جد، وليس بيننا وبين أصحاب الأرض هنا إلا كل خير... فليكن هذا في علمك!" فلو قيل إن براعم الحب كانت قد بدأت تبزغ في قلب جونكان، فلابد من التأكيد بأنها سرعان ما ذبلت، أو انقصفت في تلك الساعة.

من يومها، مضت أيامه الرثة المبعثرة من غير أن يُسمع له حِس، والصوت الوحيد الذي كان يصدر عنه هو صوته عندما يشرب حساء "الباغو"، ثم يتجشأ مريئًا؛ أما فيما عدا ذلك، فلم يكن أحد يشعر بوجوده أصلًا. ولولا الشغل اليومي في مزرعة الإنتاج الجماعية، التي هي الكومونة الشعبية،

وشُغلها الذي يتطلب جهدًا عضليًا شاقا، مثل تبديل أحجار الطواحين، أو جَر جذوع الأشجار والفحت والردم، وما إلى ذلك... لولا هذا كله، ما كان لأحد أن يشعر به. إلى أن جاء اليوم الذي تبدد فيه الصمت، بكلمة واحدة. كلمة قالها فكان لها وقع الزلازل لما ترددت في الأنحاء، وارتجت من وقعها الأركان؛ كلمةٌ لا تدانيها كل الكلمات على مدى السنوات التي عاشها. ولا تدانيها حتى كلمة "الطبقة العاملة" التي كان لها دوي هائل إبان تلك الأيام... كلمة جلجلت ولمعت وشاعت، فانتبهت لها الآذان والأفئدة، ساعة أن نطق بها، فخرج من إسار الصمت الطويل، إلى الدنيا الواسعة المنصتة بكل حواسها، الملتقطة حتى الهمس الخفيض على أطراف اللسان.

كلمة عفوية بسيطة للغاية، قيلت في مناسبة عادية، لا تختلف عما هو سائد في معظم الأوقات.

وفي معظم الأوقات العادية، كان أفراد فرق الإنتاج يشبهون أسراب الطيور المحتشدة فوق الغصون؛ لكثرة ما يصدر عنهم من جلبة وثرثرة يملأون بها الأجواء، وهم يعملون في الغيطان دون اكتراث لما تبثه الإذاعة المحلية عبر ميكروفونها المثبت عند حافة التل، وذلك لانشغالهم الدائم بالعمل، بالإضافة إلى أن "ماكينة الصوت" (الميكروفون) لم تكن تفعل شيئًا، فيما يتصورون، سوى أن تطن وتبث الضجيج طوال الوقت، عبر أغنيات وأحاديث مبهمة غير مستساغة للسامعين. وعند بدء البث الإذاعي، يطل جانكون على المشهد، بعد أن يكون الآخرون قد سبقوه إلى مواقع العمل. وبالطبع، فقد كانت ظروفه تبرر تأخيره باعتباره شابًا أعزب؛

يطبخ ويغسل ويتحمل أعباء حياته المنزلية وحده، فيروح عليه الوقت وهو مشغول بتفاصيل حاجاته اليومية. وهذا الانشغال الدائم هو الذي صبّ في عروقه احتمال المشاق، فكان خروجه من باب بيته معناه الدخول في معترك يوم حافل دون كلل، سواء خرج في البكور أو الضحى؛ يمشي وقد تدلّى من فمه غليونه المصنوع من البامبو، ينفث دخانه ويمرق بين أشجار الغابة قاصدًا حقل البطاطا. يباعد ما بين ساقيه، ودخان الغليون يملأ الأجواء من حوله، والناس يرونه ماشيًا هكذا، فيقولون: لقد جاء جانكون وهو "يشق سحابات الدخان" ملء الأجواء!

ينزل أرض البطاطا، فيتناول فأسه ويشرع في الشغل. ومن بعيد، يتهادى إلى سمعه صوت الإذاعة المحلية، وهي تذيع فقراتها عبر مكبر الصوت؛ فينصت قليلًا، ثم ينصرف إلى ما في يده من عمل. لكنه- هذه المرة- أنصت فلم يفهم كلمةً مما يُقال. والمشكلة لم تكن فقط في غموض العبارات المتراصة التي ينطق بها المتحدث، وإنما في أسلوب كلامه، وهو يمطّ صوته بطريقة غريبة. ويبدو أن جانكون استاء من المتكلم وطريقته، فعلّق على ذلك تعليقًا عفويًا، ابن لحظته، من دون قصد محدد أو غرض في نفسه، أو أي شيء من هذا القبيل، إذ وجد نفسه يقول تلقائيًا:

"مَن، يا تُرى هذا الحمار الذي يتكلم بلسان ثقيل هكذا، وصوته متراخٍ وكسول، كأنه شارب قطعة أفيون في أول الصبح!"

والناس من حوله لم ينتبهوا إلى تعليقه، ولا أعاروه أدنى اهتمام؛ بل هو نفسه لم يعتبر أنه قال شيئًا جديرًا بالاهتمام؛ وبالتالي، فسرعان ما تبددت

العبارة في الهواء. ورفع الشاب فأسه مرةً ثانية. ولأنه كان يستجمع قوته للشغل، فقد بدا وجهه متقبّضًا. وفي هذه اللحظة بعينها، باغته "ياورسان" بالسؤال:

"أنت، ماذا قلت بالضبط منذ لحظة؟"

لما أدرك جونكان أنه قال شيئًا ملفتًا للانتباه، اهتم للأمر وأعاد عبارته:

"قلت: يا تُرى مَن هذا الحمار الذي يمط صوته الكسلان، كأنه بلع قطعة أفيون في ساعة النهار".

وقتئذٍ، اخترقت العبارة أسماع الحاضرن جميعًا، وسمعوها بوضوح. وهذه- بحد ذاتها- نقطة بالغة الأهمية، من حيث إنها تفسر لنا امتلاء محضر إثبات الواقعة بعدد وافر من البصمات والأختام، حتى كادت صفحاته تتفتت وتصبح مثل كومة كرز انهرست تحت أقدام العابرين.

"هذا هو الكلام!" قال له ياورسان، وأضاف بثقة، "المهم الآن هو أن تظل تتذكر قولك هذا من غير زيادة أو نقصان!" وكان أن وضع الفأس على كتفه، ومضى.

كان جونكان آخر واحد في الدنيا يمكن أن يهتم بالسياسة وشئونها؛ فالشيء الوحيد الذي يشغله دائمًا هو أن يجد طعامًا يسد جوعه، أما غير ذلك من الأشياء، صغُرت أو كبرت، فلا تستحوذ على انتباهه إلا عرضًا؛ ولذلك، فلم يكن له أن يعرف مثلًا أن الأخ "ياورسان" هذا قد مضى عليه زمن وهو يعمل ضمن فريق "تصفية الإقطاع"، وأنه صار- منذ أن انضم إلى

ذلك الفريق- وهو يقضي يومه، من شروق الصبح حتى المغرب، وهو مشحون بالوساوس، وقلبه واجس بالظنون، محمومًا كأن بطنه معمَّرة بالبارود، والبلد- في ذاك الوقت- كانت مشغولة، ليلها ونهارها، بـ"تصفية الإقطاع" بعزم نافذ وإرادة متقدة، كأن بطنها هي الأخرى مشحونة عن آخرها بالبارود، والجميع قد حمل المشاعل ومشى في الدروب بحثًا عن "المناهضين للثورة" وأشباههم. وكان قد سمع- بالصدفة البحتة، ذات مرة- أن الفريق "التصفوي" هذا اعتقل بعض الأشخاص، وراح يوسعهم ضربًا في كل يوم، بغير هوادة. وقال لنفسه- لما سمع هذا الكلام- إن هؤلاء المقبوض عليهم ربما كانوا قلة من أغنياء الريف أصحاب الأطيان؛ وقال أيضًا، بضمير مشبع بالسذاجة، إنه ليس له شأن بهذه الأشياء، ولتحترق الدنيا بمن فيها، ما دامت المرأة المسكينة "كوارسو" بمأمن من هذه المشاكل.

وهو لم يدر إلا وقد جاء إلى الغيط اثنان من أفراد "الحرس الشعبي"، ونادوه ليذهب معهم في أمر عاجل ومهم. وبصحبتهم، مشى حتى بلغ مكتب الفرق الثورية، وهناك وجد نفسه وجهًا لوجه مع عدد من رؤساء تلك التشكيلات التنظيمية، وسألوه:

"ماذا قلت الساعة في غيط البطاطا، وأنت تعمل هناك؟"

والمسألة- بالنسبة له- كانت تبدو عادية، واعتبر أن ما قاله شيء عادي يُقال يوميًا في ظروف كثيرة. ولذلك، فسرعان ما أعاد على مسامعهم عبارته، سوى أنه أجرى عليها بعض التعديلات الطفيفة التي تسوغ قبولها لديهم؛ هكذا:

"أنا قلت: يا تُرى، مَن هذا الرفيق، الذي يسحب صوته هكذا، مثل شارب الأفيون في الزمن البعيد؟"

"لا، لا... أبدًا!" زعق فيه "ياورسان"، وهو يقول: "أنت قلت 'من هذا الحمار؟'... ثم إنك قلت بعدها...'ذلك الذي صوته متراخ وكسلان'. أما الكلمتان الأخيرتان 'ما قبل الثورة'، فلم تقلهما أبدًا، وأتحداك أمام الجميع!"

لم يعرف تحديدًا مَن الذي ركله في مؤخرته بكل هذا العنف. ضربة موجعة تلقاها، فصرخ وقبض بكفه على إحدى إليتيه، وقدَّر أن الضربة جاءته من جهة المكتب الكائن خلفه، وكان قد قرأ اللافتة المعلقة فوقه بحروف بارزة: "مكتب تأمينات العمال".

"يا بني، لازم أن تذكر لنا هنا ما قلته بالضبط، فاهم؟ اذكر كل كلمة قلتها بالضبط، مثلما قلتها تمامًا!" هكذا كلمه رئيس المجموعة القيادية للفريق الثوري.

"هو ذكر لكم كلامي الذي قلته فعلًا، بكل الصدق". أقر جونكان- الذي لم يُعهد فيه الكذب- أمامهم بالحق، ولو أنه كان مرتبكًا بعض الشيء.

"لا، أعد ما قتله أمامنا مرةً ثانية!" جاءه الأمر من رئيس المجموعة.

لم يجد مفرًّا هذه المرة من الصراحة:

"قلت... يا تُرى، مَن هذا الحمار الذي يمط صوته الكسلان، كأنه بالع قطعة أفيون في أول الصباح؟"

"عظيم جدًا!" وكان رئيس المجموعة قد أنصت إليه جيدًا وهو يقر بالحقيقة، ثم التفت بوجهه متسائلًا: "هل سجَّلت عندك هذا الإقرار؟"

هنالك، أدرك جونكان أن أحدهم كان يجلس إلى المكتب وراءه، ويدون كلامه، بدليل أن الرجل عندما فرغ من ذلك، قال: "أنا سجلت المحضر كلمةً بكلمة". وشعر لأول مرة أن الموضوع على درجة من الخطورة.

"طيب... خُذ بصماته على المحضر!" قال الرئيس، ففتح الكاتب علبة الأختام، وأشار له على موضع محدد في الورقة.

تردد قليلًا، فجاءته ضربة أشد على الإلية الأخرى، فمد يده التي دبت فيها الرعشة وبصم. وبقي يحاول مسح المادة الدهنية الحمراء العالقة بإبهامه دون جدوى، فقال في نفسه إنه الآن أشبه بالقط الذي علقت بمخلبه عجينة الأرز، فلا هو طَعِم شيئًا ولا تحررت يده من الغراء اللعين!

مساء اليوم نفسه، أخذوه إلى الكومونة الشعبية... التي هي المزرعة الجماعية، ووضعوه في غرفة خالية. وجاء رئيس اللجنة الثورية بالكومونة مع عدد من الأشخاص، ووقف على الباب وسأله: "أنت، كيف قلت العبارة بالضبط؟ نريدك أن تكررها الآن مرةً ثانية!"

كان اعتقاده يصور له أن الناس تصدق مَن يتكلم بالصدق دون لف أو دوران. وعلى هذا الأساس، كرر على مسامعهم عبارته، كما قالها أول مرة، من غير تبديل أو تحوير؛ وطبعًا، قالها بصوت خفيض، وبشيء من الخزي أيضًا.

"عظيم جدًّا!" قالها رئيس اللجنة الثورية بطريقة ونغمة مميزة من نفس طراز الـ"عظيم جدًّا" السابقة، كأنها مصبوبة في قالب جاهز للتعليق على كل مرة يعترف لهم فيها. وجاءت التعليمات: "أولًا، يتم حجزه هنا، ولا يسمح له بالخروج مهما كانت الأسباب، منعًا لهروبه؛ ثانيًا، يجري استدعاء باحث ميداني لجمع وترتيب المعلومات عنه؛ وفي نفس الوقت تبلَّغ الواقعة إلى مكتب التحقيقات بالمحافظة؛ ثالثًا، يُبلَّغ أهله وأقاربه لكي يبعثوا له بالطعام". انتهى رئيس اللجنة الثورية بالكومونة من كلامه المقتضب، الملخَّص، المحدد، المختصر بعنجهية الإيجاز السلطوي. وانصفق الباب منغلقًا، فبقي وحده في خلاء الغرفة الفارغة. هنالك، تسربت إلى أنفه رائحة بول وصنان، فتطلع ولمح كتلة حشائش ذابلة مطروحة في الركن القريب.

مشوش الذهن، حائرًا، أخذ يكلم نفسه: وأنا ما الذي قلته؟ ما الذي قلته كي أستحق كل هذا، ما الذي قلته حتى يجيئني اثنان من كبار الناس في الفرق الثورية للكومونة، اثنان من كبار الرؤساء يجيئان ويسألانني بنفسيهما، وعندما أرد يعلقان كلاهما بتلك الـ"عظيم جدًّا". ثم بعد أخذ ورَد، يرميان بي في هذه الغرفة، ويغلقان عليَّ الباب ويمضيان، ويقولان إنهما لن يدعاني أهرب. وسط هذه الألغاز تشتت خاطره.

نزلت العتمة شيئًا فشيئًا. ولم يكن بالغرفة مصباح، لكن أسرابًا متوحشة من الناموس لم تدعه في حاله. وكان يقال إن الناموس- في فترات الانتقال الخريفي- يبدل خراطيمه "المستهلكة" بأخرى معدَّلة تناسب الأجواء المتغيرة، فيصير لقرصته ألم مبرح. ولأن الغرفة كانت مهجورة لفترة،

فلم يألف فيها الناموس مقيمًا إلا تلك الساعة، فهاجت عليه الأسراب التي لم تنهش مخلوقًا منذ زمان؛ فبقيت تشفي منه غليلها، وهو يهشها فلا ترعوي. ومع ذلك، فقد كان باستطاعته احتمال أية آلام، إلا ما حل به من الجوع، خصوصًا إنه لم يكن قد أكل شيئًا منذ الصباح، حتى قرقرت بطنه من الخواء، وأصبح الجوع يفتك به بأفظع من إيغال إبر الناموس في دمه. وتجاوزت مكابدته هذا الألم بكثير محنة التحقيق على يد لجنة الكومونة، بما في ذلك توصياتها الخطيرة التي أنهت بها تقريرها المرفوع إلى لجنة المحافظة، الذي حمل بنودًا تستدعي القلق، إلا بندًا واحدًا أخذ يفكر فيه، ويعتبره مفتاح الرجاء؛ وهو المشار إليه نصًا بـ"التنبيه على أهله بضرورة إرسال الطعام إليه". ولم يكن لديه أهل سوى أخويه. وعلى هذا، فقد توقع أن يتم الاتصال بهما، فيرسلا إليه بأي قدر من الطعام. وأيًا ما كانت نوعية الطعام المرسل، أو كميته، فسوف ينقضّ عليها ولا يدع منها أثرًا. وقد أنساه تفكيره المنحصر في الأزمة- من هذا الجانب- أصل الكارثة التي ألمّت به تمامًا، ومسح من ذهنه تلك العبارة التي تسببت في كل هذا الويل.. فلم يعد يفكر إلا في شيء واحد فقط... الطعام. حتى كانت أية خطوات أقدام تتناهى إلى سمعه تُصور له إنها خطوات أخيه الأكبر أو الأصغر، أو أحد أبنائهما يحمل إليه سلة طعام. وملكت عليه رغبته الطاغية في الأكل إحساسه، وتطورت من مجرد شعور باطني بالتقلص من أثر الجوع إلى حالة جسمانية وذهنية من القلق المحموم. ثم إن الخطوات عبرت من وراء الجدار، ولم تتوقف. وبدلًا من أن تأتي عند الباب، إذا بها تبتعد وتبتعد، وتذوي في المدى حتى تتلاشى، والجوع حارق؛ والجوع يؤجج سعار القلق؛ يدور به في

الأركان بحثًا عن شق خفي في الحيطان يتلمس منه انفراجًا من كرب عاتٍ. وليس ثمة صدع في الجدار المصمت. حتى مكان النافذة سُد بالطوب والملاط؛ فلما تأمل ذلك، وتأكد أن موضع الشباك مسدود على هذا النحو، تملكه العجب وتساءل: تُرى من أية داهية دخلت أسراب الناموس، إذن؟ أسراب تملأ بطنها فتحلق عائدة من حيث جاءت، وأخرى تنتظر دورها وتستعد للانقضاض، بينما المانح الكريم من دمه ولحمه يتضور جوعًا. ومن شدة جزعه، ألقى بنفسه على كومة الحشائش المنتنة، واضطجع فوقها بغير حراك. وساعتها، لم يكن يملك أي حراك، بعد أن انهدت قواه. ترك البعوض يمرح ويعب من دمه كيفما شاء، من فرط إعيائه.

للحظات، أخذ يسترجع ما مر به، منذ أن كان في غيط البطاطا، وكان كل هذا بسبب تلك الكلمة اللعينة التي صدرت عنه وهو في الحقل؛ ملعون مكبر الصوت، وما جاء منه في ذاك النهار الأغبر. فلولا ذلك الصوت الممطوط المتكاسل، الذي يشبه كثيرًا صوت متعاطي الأفيون، لما طلعت من فمه تلك العبارة، ولا جيء به إلى هنا. أحس أنه سيرتاح لو أطلق ما احتشد في فمه من أحقر الشتائم، فرفع صوته بالسباب:

"أير الكلب يفعل بك، يا شارب الأفيون! جلبت على رأسي المشاكل!" كان صوته يلعلع في الليل والخلاء، حتى أنه أطبق فمه سريعًا، وقد ساوره الظن خشية رد الفعل من المجهول؛ لولا أن المجهول ابتدره في الحال، من وراء الباب، إذ سمع دقة عنيفة تبعها صوت أعنف منها يصرخ فيه:

"بل سيفعل بك أنت، يا جونكان! لأنك ما تزال تبث سمومك بلسانك

الرديء!"

ركبه الخوف، فكتم أنفاسه، ولم ينطق بشيء بعدها، وكذلك انكتم الصوت الآخر.

لم يدر كم من الوقت مرّ عليه وهو مضطجعٌ مكانه. ثم تهادى إلى سمعه شبه خطوات تقترب، خطوات لعدة أشخاص لا لشخص واحد، فتكوّم على نفسه، وفي ظنه أنهم سيقتحمون عليه المكان. لكن الخطوات توقفت لدى الباب، وبعدها كان صوت قفل يُعالَج بيد خشنة ليفتح ويُوارب الباب. واكتشف أنه يولي ظهره ناحية القادمين من الخارج، ولمح على الجدار قبالته ظلالًا تتمايل مع حركة السِّراج، الذي هو عبارة عن مصباح كيروسين قديم، وإذا بصوت جهوري يقول له:

"قُم، يا جونكان، فامرأتك جاءتك بالطعام".

استغرب جدًّا، وتساند ليعتدل جالسًا، وتطلع فرآها واقفة هناك... المرأة المسكينة "كوارسو"، وبيدها سلة كبيرة. تقدمت نحوه بصحبة أحد شبان الحرس الشعبي، فلما التقاها وجهًا لوجه خفضت عينيها، لشعورها بالحرج من الصفة التي أسماها بها الحارس منذ لحظة. ثم راح كلاهما يخفّض عينيه بالتبادل. وإذ لم تكن ثمة منضدة أو أي شيء على هذه الشاكلة، فقد أقعت "كوارسو" على الأرض، وأخرجت من السلة كمية من البطاطا المجففة، وطبقًا مليئًا بالخضار. واقترب الحارس، فوضع المصباح الزيتي بجوار الطبق، فاتضح مرأى الأشياء تحت وهج الضوء. فكان ينظر إليها وبقلبه شعور بالأسى، ثم

ابتدرها قائلًا:

"الموضوع لم يكن يحتاج لكل هذه البهدلة، أنا لم أقل سوى كلمة عادية".

"كلمة عادية؟... غير معقول أن تكون تلك كلمة عادية!" غلبتها الدموع، وغُص حلقها وهي تكمل قائلة: "كلهم الآن يقولون إنهم ضبطوك متلبسًا بالتهمة، وإنك أصبحت عدو الثورة".

"كذابون... كلهم كذابون؛ فأنا عمري ما كنت عدوًّا للثورة، وكل الناس يعرفون ذلك". كان يرد عليها وفمه مليء بالطعام، لأنه لم يعد يقوى على مغالبة الجوع أكثر من هذا.

كان الحارس الذي فتح الباب يتمشى بالخارج، وهو يردد صفيرًا بصوت مسموع. وبالتالي، فقد جرى الحديث بينهما طوال الوقت مصحوبًا بخلفية لحنية على أنغام هذا الصفير الخشن.

"هل ضربوك؟" سألته بلهفة، وهي تتطلع إلى فمه المحشو بالأكل.

"أبدًا، على ماذا يضربونني؟" رد عليها، وهو يلتقط بيضة مسلوقة كانت منزوية في جانب الطبق. وكانت الأرملة المسكينة قد تعمدت أن تضع البيض في أخفى جزء من الأواني، لظنها بأنهم قد يحجزون الأكل ويصادرونه إذا وجدوه وافر الكمية. وشعر جونكان أنه قد وضعها في أشد المواقف حرجًا، فتأثر لذلك. وزاد تأثره لما عرف أنها جاءت إليه بكل البيض الموجود ببيتها، بدلًا من أن تختزنه لوقت الحاجة في مقايضة الملح والزيت. وكان طبيعيًا أن تتحرك مشاعره لأجلها، رغم أنه- هو نفسه- لم يعش في كنف

أسرة تمنحه العطف أو الدفء، سواء وهو صغير في حداثة السن، أو وهو كبير؛ بل وهو تحت هذا الظرف العصيب؛ حيث لم يسأل عنه أخواه. وعمومًا، فقد أحسن صنعًا عندما أكد لها أنهم لم يمسوه بأذى، عسى أن يطمئن قلبها عليه.. ثم إنه، وبصراحة، لم يكذب عليها في هذه النقطة؛ لأن ما تعرض له لم يزد عن بضع ركلات لا تذكر. وأخذ الكلام بينهما مجراه، وتشعب في موضوعات كثيرة، علمًا بأنها هي التي أمسكت بدفة الحديث وتكلمت أكثر منه.. تكلمت ونظراتها مفعمة بالأسى لأجله.. تنظر إليه، وتكاد مشاعرها تغلبها فتفيض مآقيها، وهو يأكل طعامه بنهم شديد. ثم بدا أنه تذكر شيئًا فجأةً، فقال:

"كنت أرجو منكِ، لو سمحتِ يعني، أن تذهبي إلى البيت عندي وتطعمي الخنازير".

"أية خنازير؟" سألته باستنكار، "أخوك الكبير سحب عددًا منها، وأخوك الثاني أخذ الباقين، وأنا سمعتهم بنفسي وهم يقولون إن غيبتك ربما تطول.. ثماني أو عشر سنوات، لذلك أخذوا الخنازير كلها".

"معقول؟...أمعقول أن يقولوا هذا الكلام؟" ردد مرتبكًا ومحبطًا.

"الخنازير أمرها هيّن، لكن أهم شيء هو الإنسان نفسه"؛ قالت له كوارسو وفي صوتها شجن. ثم كلمته، وهي تحول دفة الحديث وجهة أخرى: "انسَ هذا الموضوع، وقل لي... ما هي العبارة التي أغضبتهم منك؟ فالناس لم تعد لهم حكاية إلا هذه العبارة، وقالوا كلامًا كثيرًا من كل لون. فماذا قلت

بالضبط؟"

"أبدًا، هي كلمة لا تستحق كل هذه الضجة". وبينما كان يفكر في أن يعيد على مسامعها عبارته التي سببت له المشاكل، إذا بالحارس يدخل عليهما فجأةً، ويقول: "خلاص، اجمعوا الأطباق والحاجات، الوقت انتهى، وكل واحد يجب أن يذهب إلى حال سبيله، فأنتما تعرفان جيدًا أن الكلام يتبعثر هنا وهناك؛ وربما رآكما أي عابر سبيل، وادعى أنه شهدكما وأنتما تتآمران وتدبران الخطط والدسائس". ثم حمل مصباح الغاز، ومشى.

عادت الحجرة إلى السكون المطبق، وهو وحده بداخلها، وقد خيّم الظلام عليه، ولم تعد ثمة ثغرة ينفذ منها الضوء الشحيح. لكن الجميل في الأمر أن البطن امتلأت وشبعت، ويستطيع المرء الآن أن يستند إلى الحائط ويفكر على مهل... على أكثر من مهل، يتأمل الأحوال كلها؛ فيما جرى وكان، بكل هدوء ومن غير إزعاج. حتى الناموس شبع وارتاح على ما يبدو، ولم يعد يطنّ حواليه ويضايقه.

عرَّجت به أفكاره وطوَّفت، ثم توقفت طويلًا عند منظر فتاته الطيبة. بقلب مليء بكل مشاعر الحب تذكرها، واسترجع صورتها في ذهنه. صحيحٌ أنها كانت تميل إلى البدانة التي منحتها قدرًا من العافية على حساب قدر من الملاحة- ولولا ذلك لكان له معها شأن آخر- بيد أنها كانت نشيطة وماهرة وطيبة القلب جدًّا جدًّا. وفي صميم أعماقه، كان يعتبرها أعظم فتاة في الدنيا بأسرها. لذلك، توقف عندها في تفكيره، ثم انتقل بعد حين ليتأمل حال أخويه معه، أخيه الأكبر بصلفه وفظاظته والآخر بقسوة قلبه؛ كلاهما الآن

أصبح رب أسرة، وله بيت وأولاد؛ لكنهما حتى قبل أن يكون لهما بيوت مستقلة، فقد ألقوا به في معترك الحياة وحده، لم يقفا معه ولم يأوياه تحت جناحهما؛ بحجة أنه يأكل كثيرًا ولا يشبع، فيحملهما ما لا يطيقان. أطلقا له الحبل على الغارب، وتركاه يحمل أثقال حياته أو ينوء بها، هو وشأنه؛ فالمهم أن يبقى بعيدًا بخيره وشره. وهو قد بقي بعيدًا بخيره وشره. وعندما فكر في هذا الموضوع، وفي كل ما لاقاه من جفاء على أيديهما، هاجت كوامن قلبه وتقلبت أشجانه.

وصل به التفكير إلى ما حدث في غيط البطاطا، وكَلِمَته تلك التي أقامت الدنيا ولم تقعدها. ولما فكر جيدًا فيما حصل، وجد أن المسألة لم تكن تستحق كل هذا الاهتمام؛ فهي كلمة لا راحت ولا جاءت، لم تنتهك قانونًا ولا عُرفًا ولا أصولًا مقررة، حتى يبعدوه عن بيته طيلة ثماني أو تسع سنوات؛ ما لم يكن صاحب الصوت البطيء- المذاع عبر المكبِّر- هو أحد كبار مسئولي المحافظة! وحتى لو كان، فأنا لم أقل إلا أنه يشبه صوت آكل الأفيون، من غير المتعاطين طبعًا؛ فقد قلت إنه "يشبه" صوت الآكل، دون التأكيد بأنه مدمن ضليع... حاذق وابن مزاج؛ وفوق كل هذا، فأين هو هذا الأفيون الذي تكلمت عنه؟ هل يستطيع أحد أن يدلني عليه الآن؟ لم يعد يباع ولا الناس تشتريه، وحتى لو وجده الناس لما عرفوا أنه أفيون. على هذا النحو، أخذ يتنقل بين الأفكار، فركبته الحيرة، ولم يجد مخرجًا من تساؤلاته. ومن دون أن يشعر، غافله النوم وسحبه إلى قاع الأحلام. ولم يعرف رأسه من رجليه إلا بعد ظهيرة اليوم التالي.

أخذوه إلى غرفة مكتب ذات منضدة يجلس وراءها عدة أشخاص، شكلهم يوحي بأنهم محققون تم استدعاؤهم للتحقيق مع مجرم عتيد. على الباب، احتشد عدد من الحراس الشعبيين الذين تناولوه بأيديهم وهو داخل، فأوسعوه ضربًا حتى وقع بينهم؛ فلما نهض واقفًا وتقدم إلى الداخل، وجد قبالته رجلًا بدا أنه فوق الأربعين من عمره، شعره أسود مرجَّل، وبشرته صافية البياض. فهذا إذن هو الـ"شيوتساي" [الأفندي المتعلم] سكرتير الكومونة؛ والكل هنا يعرفه، وهو نفسه يعرفه تمام المعرفة. ومن خلال كلام الناس عنه، فقد اشتهر بأنه أنشط سكرتير في المحافظة كلها، وقد أضيفت إلى مسئولياته عضوية اللجنة الثورية التابعة للكومونة، إلى جانب مهام عمله كنائب للمدير العام للمزارع الجماعية. وجميعهم يشعرون بشيء من الألفة تجاهه. ولما التقى جونكان وجهًا لوجه، ابتدره صائحًا، "ياه... أهو أنت؟"، قال له:

"أهو أنت يا رجل؟ ما الذي رمى بك في المشكلة؟ على كل حال، فلا تتضايق؛ سيمر كل شيء بهدوء، ما دمت ستتعاون معنا. ستمضي الأمور بسلاسة، صدقني، لكن الشرط واضح، لا بد من الصراحة".

جلس الرجل بهدوء ووقار على المقعد الكائن وراء المنضدة، وفتح ملف أوراق أمامه، ثم أشعل سيجارة، وقال له بصوت جاد تمامًا: "افتح أذنيك الآن جيدًا، اسمعني وتأكد من أن المعلومات صحيحة". كانت نبرات صوته واضحة في شيء من الترفع، وراح يقرأ عليه:

"الاسم: 'جونكان كان'؛ الجنس: ذكر؛ السن: ثلاثة وأربعون عامًا؛ مولود

لأسرة ريفية فقيرة، تم تسريحه من التجنيد باعتباره من 'حثالة المجندين'، ثم جيء به للعمل في الكومونة..."

"لم أكن من حثالة المجندين، بل فلاحًا من أسرة ريفية فقيرة. هذا ما في الأمر". تصحيحه للبيانات أعطاه أملًا في الدفاع عن نفسه.

"البيانات هذه ليست من عندي، بل جاءتنا من إدارة الضمان الاجتماعي". هز رأسه صاحب الوجه ناصع البياض، وسأله: "ألم تدخل الخدمة في جيش "القوات الوطنية"، قل بصراحة، مع أنه الجيش غير الوطني بالمرة!"

"الحكاية أنهم كانوا قد أخذوا الأخ الأكبر في التجنيد القسري، وكان من الممكن وقتها التبديل بين الإخوة، فطلب مني أخي أن أذهب أنا للتجنيد بدلًا منه، وقد كان". وواصل مدافعًا عن نفسه: "وبعد شهر واحد فقط لا غير، هربت من الخدمة؛ فلم أكن أجد طعامًا آكله".

"يبدو أنك مهما قلت، فلن تستطيع أن تنفي مسألة تجنيدك". قال له السكرتير المتعلم، "فلنكتبها هكذا من دون لف أو دوران".

سكت، ولم يدر كيف يجيبه... لا بأس، مجند برتبة نفر، وعسى أن تأتي العواقب بخير!

قرأ عليه... "والمتهم اقترف سلوكًا رجعيًا يؤاخذ عليه"، إلى آخر كل تلك الصياغات القانونية الرتيبة التي تنتهي دائمًا بتوجيه التهمة... والتهمة كانت على النحو التالي:

"أنه في الثالث عشر من الشهر الجاري، وبينما كان المذكور يعمل في حقل البطاطا، أعلن على مسمع ومرأى من الناس، في موقع العمل العام، ما نصه: 'ومن يكون [سيادة القائد] "لين بياو" هذا؟ إنه مجرد حمار، آكل الأفيون هذا'".

لم ينتظر حتى يكمل الرجل ذو البشرة البيضاء قراءته، فصرخ في وجهه:

"أنا لم أقل مثل هذا الكلام، بل هو الكذب والافتراء بعينه!"

سأله السكرتير: "ألم تقل - يا بني - كلمة 'آكل الأفيون'؟"

أجابه جونكان قائلًا: "قلتها، لكن لم يجئ اسم "لين بياو" على لساني".

"لا يصح أن تنطق باسم "لين بياو" مجردًا هكذا، قل سيادة نائب القائد العام لين بياو!"

من الخلف، جاءته صيحة هائلة، تبعتها ركلة زلزلت عظامه.

منكسرًا قال: "نائب أو غير نائب، أنا لم أفتح فمي بشيء مثل هذا. فكل كلامي كان مقصودًا به المتحدث في مكبر الصوت".

لاحقه السكرتير على الفور: "وهذا المتحدث في المكبر هو سيادة النائب لين بياو!" كان ينظر إليه بملامح جادة تمامًا، وهو يقول له: "أظن أنك فهمت الآن!"

"فهمت". أجابه، وقد أفقده الخوف توازنه، وقلب كيانه. فصحيح أنه

بعيد تمامًا عن المسائل السياسية، لكنه يعرف جيدًا مصير من تقع عليه تهمة ذات صلة بـ لين بياو. وقيل إن أحدهم قد أعدم رميًا بالرصاص في مركز المحافظة، لأنه علق لافتة على أول الحارة المقيم بها، وقد كتب عليها "يسقط لين بياو!"

انتابته رعدة، وهو يستمع إلى السكرتير مواصلًا قراءة الأوراق.

"... وكان المتهم وهو في طريقه إلى التحقيق يدأب على التلفظ بالسب والشتم، قائلًا: 'لين بياو يا ابن ** يا متعاطي الأفيون يا ** لقد خربت بيتي، وضيعت حياتي!"

"يا للسماء! أنا لم أقل هذا الكلام!" احتج بكل ما في طاقته.

جاءه الرد من ورائه بلكمة وركلتين متتابعتين، مع صوت زاعق بشدة: "أنا سمعتك بأذني هاتين، يا للتبجح!"

"أنا لم أقصد لين بياو". واصل احتجاجه مدافعًا عن نفسه.

جاءته لكمة أخرى، وضربتان قويتان في مؤخرته.

"خلاص، قل لنا إذن، كنت تقصد مَن؟" سؤال ردده عدة أشخاص.

"كنت أقصد صوت المتكلم في مكبر الصوت".

"قلنا لك إنه صوت سيادة النائب لين بياو!" جاءه الزئير الصارخ من عدة أصوات.

"وأنا لم أكن أعرف أنه صوت الرجل!" مستعطفًا أجابهم، "سيادته الآن

هو الحاكم الكبير، الملك صاحب الحكم النافذ، يقول فلان يموت في الحال، فيموت فلان في الحال، فكيف لي أن أغلط بحقه؟"

ظن أن ألفاظًا مثل "الحاكم الكبير"، أو التسميات الفخمة من قبيل "الملك صاحب الحكم"، تحمل ما فيه الكفاية للتعبير عن خضوعه بالاحترام والتبجيل؛ لكنه فوجئ بسيل متلاحق من الشتائم، بعد أن تلفظ بتلك الألقاب... "ما يزال لسانك يقطر سمًّا!"، "أنت تُصرّ أيضًا على وصف القادة الثوريين بصفات ملوك وأباطرة الإقطاع والاستبداد!"، "يا للجرأة والوقاحة!"، "فلنفتح ملف تحقيق آخر في هذه الواقعة!"

أخذ السكرتير ذو البشرة البيضاء نفسًا عميقًا من الدخان، ثم دار بعينه مفكرًا، وهو يربت على جبينه بأطراف أصابعه؛ ومد يده بالقلم، وراح يدور به فوق الأسطر دون أن يلامس الورقة، فلما اتضحت له العبارة راح يدون تعديلًا في بعض الكلمات، وتهيأ للقراءة بعد التعديل:

"بل إن المتهم- وأثناء التحقيق معه- استمر في بث سمومه وبذاءاته، مرددًا أمام الحاضرين قوله: 'لين بياو حاكم إقطاعي، لا يتورع عن قتل مَن يتعرضون له بالقول والتجريح'".

"أنا لم أقل هذا الكلام!" هبَّ سريعًا مدافعًا عن نفسه.

"يا لكذبك يا ولد. فالكلام الذي قلته بلسانك منذ قليل تسرع الآن وتنكره!" قال له الرجل الجالس بجوار السكرتير.

"مادام يكذب فهو يستحق التأديب!" زأر اثنان واقفان وراءه، وانهالا

عليه ضربًا في الحال.

صرخ من الألم، ثم أقعى وهو يتأوه ويبكي. وتناوله أحدهم من ياقته فجمعها حتى اعتُصرت رقبته، وجذبه فأوقفه بالرغم منه.

تدخل السكرتير ليفض الأيدي الممسكة به، وأخذ يواصل القراءة.

هنالك صمت جونكان تمامًا، ولم يعد يُسمع له حس، خصوصًا وقد بدا له أن الصمت هو عين العقل؛ فلا بُد أن يسكت، حتى لو قالوا إنه قتل وحرق وهدم مخازن الحبوب في طول البلاد وعرضها؛ فليس له أن يدافع أو ينطق بكلمة مدافعًا بها عن نفسه. فالخرس- في مثل هذه الظروف- هو الحل الأمثل. لكنه ما كاد يسمع العبارة التالية، حتى شعر كأن إبرة طويلة مسمَّمة انغرست في مسام روحه؛ فرفع رأسه على الفور وقد اربدَّ وجهه، وتسمَّرت كل شعرة في جسمه.

"وقد دأب المذكور على السلوك الأخلاقي المنحط، إذ اختلط لفترة طويلة مع إحدى كريمات الأسر الريفية الغنية، وتدعى 'كوارسو'، وأقام معها علاقة مشينة، مما استفز مشاعر الأهالي".

فلم يصبر جونكان حتى جثا على ركبتيه أمام المحقق، رافعًا يديه قائلًا له في ضراعة:

"قولوا عني ماشئتم، اتهموني بكل التهم، لا بأس! لكن لا تظلموا المرأة معي، لا تورطوها بغير ذنب، أتوسل إليكم!"

قال له السكرتير المتعلم ذو البشرة البيضاء: "طيب، إذا استثنينا هذه النقطة، فهل تُقر بباقي الاعترافات؟"

ازدادت ملامح جونكان المتكدّرة ووجهه المتجهم بطبيعته تجهمًا تحت الظرف العصيب الذي يمر به. وهنا، غرق في الصمت برهة، وتنهد بمرارة قائلًا: "اشطب الكلام الأخير، وأنا موافق على الباقي".

"تمام"، أجاب السكرتير، "هذا هو الكلام، أنت الآن تتعاون معنا بجد".

أمَرَه أن يقترب من المنضدة، وأن يمسك القلم، ويشطب بنفسه على السطرين الأخيرين، تحت ملاحظته، بحيث يمحو أي أثر باق يمكن أن يُستدل منه على الكلمات. وبعدها، رفع رأسه قائلًا: "هات يدك، وابصم هنا... هنا بالضبط".

بيد مرتعشة، بصم على الأوراق. شعر كأنه يضع بصمته على وثيقة استعباده في سوق نخاسة. لكن المرء بكلمته، ومن ألزم نفسه بكلمة فقد وجب عليه الوفاء، مهما كلفه الأمر؛ فهكذا جرت الأصول.

في اليوم التالي، عقدت المزراع الجماعية بالمنطقة اجتماعًا أسمته بـ"المؤتمر النضالي الكبير". وجيء به مقيد اليدين إلى منصة أمام حشد من الجمهور. ومنذ تلك اللحظة، أصاب شهرة ذائعة على أوسع مستوى يخطر على البال. بيد أن المحتشدين راحوا يلوحون تجاهه بقبضات أيديهم، علامة التنديد والاستنكار، وقد بلغ بهم الغضب حدًّا لا تؤمن عواقبه؛ فلولا وجود أفراد الحرس الشعبي حوله لاقتنصوه بأيديهم، وقطعوا لحمه شرائح بحد

السواطير. تولى السكرتير العام للكومونة، المتعلم [ابن الناس] ذو البشرة البيضاء قراءة عريضة الاتهامات العديدة الموجهة إليه. وصعد إلى المنصة ممثلو الفرق الإنتاجية المختلفة، بالتتابع، كلٌّ حسب دوره ليلقي كل واحد منهم كلمة تنديد وانتقاد علني؛ وإن اتفقوا جميعًا في المحتوى العام لكلماتهم. أما الاختلافات، فكانت في طريقة العرض. فقد جاءت مثلما تجيء العروض المسرحية الإبداعية؛ حيث لكلٍّ أداء رونقه وتنويعه على الخط العام للحدث. والأداء المبدع يتطلب أحيانًا التعديل، فمن ثم جرت تعديلات شنيعة على تفاصيل الواقعة... وأطلق كل واحد لخياله طاقات جبارة، مُدخلًا في نسيج الوقائع لونا إبداعيًا متميزًا. فمن كثرة الألوان، تولَّد قوامٌ حكائي مختلف. وبالتكرار، ثبتت المزاعم؛ فطلع مَن قال مثلًا بأن جونكان ادَّعى على "لين بياو" بأنه مدمن أفيون قديم، وجاء مَن أكد على أن جونكان وصف "لين بياو" بأنه "أفيونجي" مطبوع على "الكيف" من يومه، وأنه أساسًا "طالع من أنبوب أفيون"[*]، وتطوع آخرون- من تلقاء أنفسهم- وأشاعوا عنه قوله إن "لين بياو" صاحب علاقات مشبوهة ونزوات مخزية (وبالطبع، فإن أحدًا لم يصرح باسم "لين بياو" هكذا بكل وضوح، وإنما أشاروا إليه بلفظ "فلان"، فيفهم السامع على الفور!). ولو أن كل تلك الأقاويل والتشنيعات و"الاختراعات"- التي قيلت يومها- قد تم تسجيلها على إنها إسقاط حقيقي لما يعتمل في نفوسهم، ويزيحونه على الآخرين؛ لو أن تلك الإبداعات الكاذبة

---

[*] تنويع على مقولة مشهورة لـ"ماو تسي تونغ"، مفادها: "السلطة تطلع من ماسورة البندقية!" (المترجم)

قد سُجلت باسم أصحابها، وعلى عهدتهم باعتبارهم مؤلفيها الحقيقيين، إذن لدخلوا السجن جميعًا، بمَن فيهم منظمو المؤتمر؛ لولا أن "الشرف" كله كان من نصيب جونكان، الذي بقي يستمع- طيلة ثلاث ساعات- لكل ما يمكن أن يقدح في تاريخ حياته، منذ يوم مولده. وطالت الساعات، وتشعبت الخطب، لدرجة أن كثيرًا من الحضور صاروا يغالبون النعاس؛ بل إن جونكان نفسه كان على وشك الانهيار، بعد أن تبددت طاقته- لفترة طويلة- وهو يستمع وينصت ويتابع ويتابع، حتى أوشك على أن يفقد الصلة بكل ما يدور حوله، خصوصًا وقد بدأ يشك أصلًا أن ثمة جونكان آخر غيره، هو الذي صدرت عنه كل تلك الأفاعيل السوداء؛ بل إنه عندما كان يستمع إلى المخازي التي اقترفها المدعو جونكان، كان يتعجب ويقول لنفسه إن المشار إليه بلغت به الجرأة حد الوقاحة، فعلًا ومن غير مبالغة! ولم يُفق من خداع حواسه إلا عندما سمع أحدهم يهتف بصوت عال: "فليسقط جونكان، عدو الثورة! ليس للخائن إلا الاستسلام أو الموت!" هنالك قام واقفًا، وكان قد استسلم منذ وقت طويل مضى، لأنه بالطبع لم يكن يريد الموت.

عزاؤه الوحيد كان أنهم لم يتطرقوا إلى سيرة "كوآرسو"، مما يعني أن السيد المحترم ذا البشرة البيضاء رجل ملتزم بكلمته ووعده. ولا بد لـ جونكان أن يذكر له موقفه هذا بكل العرفان. تمامًا، مثلما سيبقى مدينًا للسيدة كوآرسو التي راحت ترسل له الطعام، منذ عودته بعد انتهاء الاجتماع التنديدي، وكذلك في صباح اليوم التالي؛ وهو ما أدخل على قلبه فرحًا لا

يوصف. ومع أنهم لم يخبروه بمصدر الطعام، لكنه أدرك أنها هي التي أرسلته، بالنظر طبعًا إلى الكمية الوافرة والمذاق والرائحة الزكية. فما كاد يحل المساء حتى أرسلت له دجاجة مشوية، وقد حوطتها بالأرز والسمن؛ وسبب كرمها البالغ في هذا العشاء بالذات كان يرجع إلى ما قيل لها من أنهم قد ينقلونه صباح اليوم التالي إلى "غرفة حجز" المحافظة. وبعد الانتهاء من وجبة العشاء هذه، انتحى جانبًا فأخفى وجهه بيديه، وأجهش طويلًا بالبكاء.

بعد انتقاله إلى مركز المحافظة، تم احتجازه إلى حين محاكمته. وكانت شهرته قد سبقته إلى كل مكان يحل به، وصار معروفًا بين الجميع، أكثر حتى من نجوم المجتمع الأوسع شهرة بين الناس؛ فهذا هو "جونكان" الذي وصف السيد "لين بياو" نائب رئيس الجمهورية بأنه متعاطٍ قديم للأفيون، بالإضافة إلى كونه "رأس حُكم امبراطوري". وبناءً على ذلك، فقد تعاظمت إدانته، وباتت تتضخم في كل حين مثل كرة ثلج متدحرجة في سفح جليدي... كرة تقلَّبت وتضخمت بازدياد الجريان، حتى أصبحت في حجم جمهور يبلغ تعداده عشرة آلاف نسمة، جاءوا من كل حدب وصوب ليشهدوا وقائع المحاكمة العلنية، التي أصدرت عليه حكمًا بالسجن مدة عشر سنوات مع الأشغال الشاقة. وهو ما استوجب نقله إلى مناطق الغابات النائية لتنفيذ الحكم الصادر ضده.

ظل الناس يتناقلون سيرته لفترة من الوقت. لكن، مع جريان الأيام والسنين الطوال، خمل ذكره وانطوت حكايته، وتراكم عليها غبار النسيان.

في مزرعة السجن، ظل جونكان يقوم بنفس العمل الشاق الذي كان

يؤديه من قبل في الوحدة الإنتاجية؛ ولدأبه وتفانيه، فقد استطاع أن يكسب ود المشرفين، الذين كانوا في أعماقهم يتعاطفون مع محنته؛ وبالتالي، فقد مرت سنوات تنفيذ العقوبة في المزرعة على نحو هادئ. ثم إنه كان يستطيع هنا أن يجد ما يأكل فيشبع، بعكس الفترة التي احتجزوه فيها، حيث لم يكن يتناول في اليوم كله إلا النزر القليل من الطعام. ولو أن الفلاحين في تلك الأيام كانوا- في التمسك بأسباب الحياة- أشبه شيء بمن يقبض بيديه على عصفور ضئيل، إن بالغ في الضغط عليه- من باب الحرص- فربما قتله، وإن حرر قبضته عنه أطاره. وعلى هذا، فقد كان مطلوبًا أن تمسك بما في يديك بحيث لا تموت ولا تحيا طليقًا. والحاصل أنهم كانوا يعطونك نصف وجبة طعام، ويكملون الباقي بالحساء، كمية كبيرة من الحساء، بحيث يمتلئ البطن عن آخره، فيشعر الآكل شعورًا وهميًا بالشبع. وحتى بالنسبة لواحد مثل جونكان، منهوم بالطعام، فقد كانت بطنه تتكور من كثرة الحساء، فيشبع- للغرابة، يشبع- شبعًا حقيقيًّا، لا مراء فيه.

طبعًا، أتعس شيء في مثل هذه الظروف هو فقدان الحرية. لكن دوران الزمن يخلق الاعتياد. وقد طال به الزمن حتى اعتاد أشياء كثيرة، سوى شيء واحد، بقيت مرارته تتجدد كلما طالت به الأيام، وهو الاشتياق الجارف إلى كوآرسو. كان الحنين إليها يتفاقم مع الزمن، حتى كان يراها كثيرًا في المنام، رآها ورأى نفسه في الحلم يجلب لها الماء، ويأخذ الغلال إلى ماكينة الطحين؛ بل كثيرًا ما كان يحلم بأشياء لم تكن تطوف بخياله العابث، حتى وهو يقظان. وكان يجلس ويستعيد تفاصيل الحلم طويلًا، إذا ما استيقظ منتبهًا في

إفاقة.

لم يُطق صبرًا، فدعا مَن كتب له خطابًا من كلمتين اثنتين، لا أكثر؛ كتب لها يخبرها بمكانه الموجود به فيه الآن، وقال لها إن الأحوال بخير. وسرعان ما جاءه منها الرد. قالت له في خطابها إن ولدها الوحيد فارقها، ولم تذكر له السبب، مكتفية بالكلام عن شعورها بالتعاسة بغير حدود. وأكدت له أنها ستعيش على الأمل والانتظار مهما طالت الأيام. ولم تحدد- في هذه العبارة الأخيرة- لمن هذا الانتظار الموعود: له أم لولدها؟ فلما عرف ما في الخطاب من أوله إلى آخره، طواه ووضعه في الجيب الداخلي. وكلما اختلى بنفسه، أخرجه لينظر في الأسطر والكلمات. ولكثرة ما فتحه وطبّقه، فقد تكرمش الورق، وبهت المداد.

ذات يوم، أذيع على جميعهم بيان من الرئاسة يقول إن "لين بياو" مجرم، خائن، وأنهم عثروا عليه مقتولًا، وهو يحاول الهرب عند الحدود في منطقة اسمها فيما يقال: "أون بوتوهان"[*]. وما أن أذيع الخبر، حتى ثارت الأقاويل والمناقشات. ووسط الجلبة المحتدمة بين الجميع، مال على أذنه أحد أعز أصدقائه من المساجين، وهمس قائلًا له إنه الآن... الآن فقط، ربما يكون من حظه أن يحصل على الإفراج الفوري. وكان هذا أكثر ما يتمناه في تلك السنوات... وطالت به السنوات كثيرًا، دون أي حس أو خبر بخصوص الإفراج الذي تمناه، إلى أن سقطت "الطغمة الرباعية الحاكمة"، وجاءه خبر

---

[*] يقصد منطقة "أولان باتور"، وتقع عند الحدود الصينية الروسية. وبالطبع، فهو- في المتن- يحاكي طريقة النطق بلهجة فلاح بسيط؛ (المترجم).

مؤكد بأنهم سيفرجون عنه قريبًا جدًا. فلما جاءه الخبر، غلبه التأثر، وأخرج الرسالة التي تهرأت لكثرة ما طالعها، وامتلأت صفحة وجهه بالدموع.

"أمنية عمري أن أراها بعينيَّ هاتين!" قال في نفسه، وقد أصبح على ثقة من أنه- هذه المرة- لن يعبأ بمَن يوافق أو يعترض على علاقته بها. وقال لنفسه أيضا إنهم لو اعترضوا من جهة أنها أرملة رجل ثري، واعتادت الحياة في مستوى معين يعجز هو عن أن يجاريها فيه، بحالته الفقيرة هذه، فسيرد عليهم بأنه الآن من المفرج عنهم من إصلاحية تعاونية؛ والإصلاحية التعاونية ليست بالشيء الهين. وبالتالي، فهو أيضًا له "مؤهلاته الطيبة". وليس هناك أحدٌ أفضل من الآخر. وإن كان بيتها له أبواب، فبيتنا هو الآخر له أعتاب! ومن هنا، فقد قرر أن يذهب إليها فور عودته إلى الوحدة الإنتاجية بالقرية، فإن وافقت على بقائه معها بشكل دائم، فسيبقى وليكن ما يكون بعد ذلك. وطبعًا، فسيفكر في طريقة مناسبة لكي يعيد ولدها إليها بأي شكل، فقلب الأم لا يحتمل مثل هذا الفراق.

ومن ناحيتها، أرسلت الكومونة الشعبية أحد مسؤوليها للمساعدة في عمل اللازم من إجراءات الإفراج؛ وإذا بهذا المسئول هو السكرتير إياه ذو البشرة البيضاء، الذي ما إن التقاه حتى شدَّ على يديه بحرارة بالغة، واعتذر إليه قائلًا: "كنا نحن السبب في هذه المحنة التي وقعت على رأسك، ولو أن 'المسئولين الكبار'[*] هم الذين كانوا وراء كل تلك المصائب". وبالنسبة لـ

---

[*] الإشارة الواردة في النص، حرفيًا، هي "عصابة الأربعة"، لكني فضلت المكافئ العملي، خدمةً للسياق؛ (المترجم).

جونكان، فقد كان يجد نفسه أحيانًا مدفوعًا بمشاعر ودية تجاه هذا الرجل بالذات؛ فلما سمعه ساعتها يقول له هذا الكلام تأثر حقًّا، وشعر أن صدره لا ينطوي على أية ضغائن تجاهه. وقام الرجل وأنهى إجراءات الإفراج كلها، فاشترى له تذكرة سفر وبذلة جديدة من قماش "البوليستر". وعندما ارتداها وشاهد نفسه في المرآة، أُعجب بمنظره أيما إعجاب. وباختصار، فقد عمل له السكرتير كل التسهيلات المطلوبة لخروجه وعودته إلى البلد. فلما عاد ونزل بصحبته في المحطة، اصحطبه سيادته إلى مطعم كبير، ودعاه إلى وجبة فاخرة. وصب له كأسًا من أجود أنواع الخمر؛ ولو أنه عبَّ من الكأس بأكثر مما شرب جونكان نفسه، وهو الضيف المسكين على الوليمة الكبرى! أضف إلى ذلك كونه الذواقة والمتلذذ الأكبر بالطعام والموائد. ومع ذلك، فلم يكد يتناول شيئًا يسيرًا من الأطباق حتى أمسك عن الاستمرار، واكتفى بالمقدار الضئيل، فيما لاحظ ذلك مضيفه، وظل يذكره- بين الفينة والأخرى- أن هذه الوجبة مدفوعة الأجر... على نفقة الحكومة! وله أن يأكل ويملأ بطنه عن آخرها ويستزيد لو أراد. لكنه ظل يشعر بالحرج، ويترقب الانتهاء من الوجبة كي يعود إلى بيته. لكن الانتهاء من الوجبة كان معناه أن سيادة السكرتير العام سوف يصطحبه إلى دار الضيافة بالوحدة المحلية، ويحجز له غرفة فاخرة بسريرين بمفارش مطرزة وملاءات وأغطية حريرية مقصَّبة. فلما دخلا الغرفة، أسرع فأحضر له منشفة وجه، وطرحها على كتفه قائلًا له: "انظر؛ نحن اليوم سنستريح هنا، ونؤجل الكلام إلى ما بعد".

"لا، أنا أريد أن أرجع"، قال له جونكان وهما عند الباب، وقد استدار

بجسمه مستعدًا للخروج.

"ترجع؟ ترجع إلى أين؟"

"إلى الوحدة الانتاجية".

ضحك السكرتير، وتقدم ناحيته وجذبه برفق قائلًا له: "خلاص يا ابني، أنت منذ اليوم لن يكون لك علاقة بالوحدة الإنتاجية. يبدو أنك لم تعرف أن قرارًا صدر بشأنك فعلًا من لجنة الحزب، والقرار يقول بأنك ستتسلم عملًا مناسبًا في إحدى المؤسسات الكبرى؛ ويقول أيضا إنه لا بد من توفير كل احتياجاتك الضرورية، وحل مشاكلك الشخصية. وأهم شيء الآن هو أننا... أنا وأنت يعني، لابد أن نرتب معًا الأوراق المطلوبة، ومن باكر سترسل إلينا المزارع الجماعية عددًا من المساعدين لكي يتقابلوا معك ويكلموك".

لما سمع كلمة "الأوراق المطلوبة"، اصفرَّ لونه وانكمش على نفسه مثل قشرة برتقال جافة ومكرمشة. وبقلب واجف ولسان متلعثم، تساءل: "أوراق؟ وما الداعي للأوراق الآن؟"

أجلسه سيادة السكرتير، بكل هدوء، على السرير بجواره، وقال له:

"أنت الآن شخصٌ مهم جدًّا! هل تفهم معنى أن يكون المرء شخصية مهمة؟ شخصية غير عادية يعني... فأنت أول من شتم "لين بياو" صراحة، وهو في عزّ سطوته، واستطعت أن تتحدى جبروت 'القيادات الكبرى" [عصابة الأربعة!]، وأن "تلاعبهم" و"تعزف لهم تقاسيم من نفس النغم" [كذا]. ومع أنني قرأت أشياء كثيرة منشورة في الجرائد والتقارير، لكن ليس فيها ما

يكافئ "وخزة إبرتك". فلذلك، قررت الوحدة المحلية أن أتعاون معك في جمع هذه الأوراق كلها، لكي نذهب وننشرها في إحدى الجرائد الكبرى، هذا هو الموضوع!"

سمعه جونكان، ودارت الدنيا به من التشوش والارتباك، وقال له:

"لكن ما لي أنا وكل هذا؟ أنا لم أقل سوى كلمة واحدة".

"آه، صحيح، هي كلمة واحدة، لكنها اليوم تساوي ذهبًا، يا بني!" قال له بمنتهى الاعتداد، "أنا معك إنها كلمة، لا راحت ولا جاءت، وربما يستطيع أي صبي صغير اليوم أن يقولها على ملأ، دون أن يخشى شيئًا. لكنك أنت الذي قلتها أولًا، وقلتها في وقتها! فاهم؟ يعني هي كلمة تساوي الذبح في زمانها! هل تفهم؟ ومن هنا، فنحن نريد لهذه الكلمة أن تلمع وتتلألأ وتكبر وتتضخم، ويسمعها كل الناس في المحافظة، وكل النواحي البعيدة والقريبة".

"لكني لم أكن أقصد "لين بياو" بهذه الكلمة، بأمانة، فأنا لم أكن أعرف أنه المتكلم في مكبر الصوت". راح جونكان يكرر نفس التبرير القديم للعبارة إياها.

"حذارِ من أن تقول هذا الكلام الآن. ولعلمك، فحتى لو قلته، فلن يصدقك أحد. فهل تظن أن الناس سيصدقون قول واحد يزعم أنه لا يعرف صوت "لين بياو"؟ هل هذا معقول؟" واصل السكرتير نصيحته له، "ثم إن بعضًا من الناس الآن يحاولون اختلاق مواقف شجاعة واعتراضات قديمة، زاعمين إنهم قالوا واحتجوا، إلخ، بينما أنت قلت بالفعل، من غير تصنّع، فلمَ

كلّ هذا التواضع؟ هه؟"

"يا للسماء! لماذا لا يفهمني أحد؟" كان جونكان في قلب دوامة من الحيرة.

"اسمع، لا تشغل بالك بموضوع الأوراق، فأنا عندي نسخة منها، سأسهر عليها ليلة كاملة، وأجهز الملف المطلوب بنفسي"؛ قال له السكرتير في ودٍ وثقة.

"طيب، أستأذن سيادتك الآن، فأنا أريد أن أرجع إلى البيت على أن أجيء إليك فيما بعد". بطريقة مهذبة، حاول جانكون الاستئذان في الانصراف، وهدفه الإفلات بأية طريقة من هذا الموقف الخانق.

"مستحيل، هذا لا يمكن أبدًا!" كان رفضه قاطعًا، "لأنك المفروض أن تكون معنا غدًا بعد الظهر، لكي تلقي تقريرًا على الجمهور؛ والموعد مقرر ولا مجال لتغييره".

ازداد جانكون فزعًا من مسألة "التقرير" هذه، وأجابه:

"كيف أعمل تقريرًا يعني؟ أنا فلاح، أعمل في الطين والزرع، ولا أفهم تلك الأشياء".

"لا تشغل نفسك بذلك. استرح أنت تمامًا من هذا الموضوع، وكل المطلوب منك أن تأتي معي، وتجلس إلى المنضدة أمام الناس، فقط لا أكثر من هذا، وسأقوم أنا بإلقاء التقرير بدلًا منك. وطبعًا، فاللجنة الحزبية

بالكومونة سبق أن فكرت في هذه النقطة، وعملنا حساب كل شيء، لأنهم يعرفون أن مستواك في القراءة والكتابة محدود".

"ومتى بالضبط نستطيع أن ننتهي من هذه المهمة ونرجع؟" سأله في قلق.

"إذا تعاونت معي بشكل جيد، فسننتهي في أسرع وقت. لكن إذا لم نتفق معًا، فمن الصعب أن أتصور من الآن أي شيء".

انحصرت كل آمال جونكان في هذا "التعاون الجيد". ولم تكن هذه هي المرة الأولى في تجربة التعاون المشترك، بل كانت الثانية على الترتيب.

مساء اليوم نفسه، نزل القرية عدد من كبار الزوار القادمين من المحافظة، وأوحى منظرهم بأنهم من القيادات الكبرى على مستوى الأقاليم، وليس المحافظة فقط؛ جاءوا ومعهم هدايا وكميات هائلة من السكر والكعك والتفاح، وتسلمها منهم سيادة السكرتير العام، نيابة عن المكتب المحلي. وبجانب ذلك، فقد تولى بنفسه الرد على أسئلة الضيوف. فلما انتهت الزيارة، قام وتناول تفاحة كبيرة وقضم منها قطعة، ثم تهيأ لإعداد الملف. ومن داخل حقيبة جلدية، سحب رزمة أوراق تحمل- في بعض منها- بصمة جونكان. وفكر- أول الأمر- في أن يراجعها معه، باعتباره صاحب القضية الأصلي، والتفاصيل كلها تخصه بكل عبارة وحرف وكلمة؛ لكنه تراجع عن الفكرة، لأن جونكان ما يزال يُصر على موقفه الأول في التحقيقات، غير عازم على تغيير حرف مما قال، متشبثًا بموقفه من أنه لم يشتم "لين بياو". وعلى هذا، فلم تكن ثمة جدوى من مراجعة الملف معه. وبالطبع، فقد كان

عليه هو أن يجد حلًا؛ فانكب على الأوراق يتأملها وهو يغمغم ويفكر بصوت نصف مسموع، ويقلب عينيه في الأركان، ويمسح على رأسه، ثم يسحب نفسًا عميقا من الدخان وذهنه مشغول بالتفكير. وبعد حين، أخرج القلم من جيبه، وراح يشطب شيئًا هنا ويضيف عبارة هناك، حتى بدا أنه أنجز ما كان يتصوره على النحو التام. وجونكان جالس في ناحية قريبًا منه، يدخن سيجارته هو الآخر، معقود الجبين مهموم النفس، منشغلًا قلبه بالمرأة كوارسو.

صباح اليوم التالي مباشرة، توافد الزوار أفرادًا وجماعات، وانتشر الخبر في البلد بأزقتها وشوارعها وكل ركن فيها: تم إطلاق سراح البطل، الذي وقف في وجه النائب السابق لرئيس الجمهورية "لين بياو"، وقد نزل الآن ضيفًا على المقر الرسمي للمجلس المحلي. وفي الحال، توافد على المكان عددٌ كبير من المعجبين بالشاب وموقفه، ومندوبي الندوات العامة ومنسقي اللقاءات الجماهيرية. وبلغ من كثرة المترددين أن موظفي دار الضيافة المحلية اضطروا إلى إغلاق البوابة الرئيسية، بعد أن اشترطوا للدخول إبراز بطاقات الدعوة؛ فما كان من الشبان الذين لم يسمح لهم بالدخول إلا أن احتشدوا قبالة البوابة، ورفعوا أصواتهم في هتاف إيقاعي متكرر، يطالبون فيه بمقابلة جونكان من دون حواجز أو قيود.

من الخارج، وصل السكرتير ذو البشرة البيضاء وهو يكاد يطير فرحًا. قال: "الدنيا انقلبت رأسًا على عقب في المحافظة، وقد وصلت من هناك توًا، ولك أن تتخيل- ياصديقي العزيز- مدى الضجة الهائلة التي انتشرت في كل

مكان. أنت فعلًا بطل غير عادي!"

ظهيرة اليوم ذاته، جاء عدد من كبار قيادات المزارع الجماعية لمقابلته، وفوجئ أن من بينهم سيادة رئيس اللجنة الشورية، ذلك الذي كان يباهي بمقدرته الفذة على الإيجاز واختصار الكلام إلى حده الأدنى، من دون ثرثرة فارغة. ورغم ذلك، فيبدو أن ترتيبه في الترقي تراجع كثيرًا؛ لأنه لم يظهر في أول الصفوف التي جاءت لمصافحة جونكان، مع ملاحظة أن مسيرة تطور المجتمع البشري منذ عصوره السحيقة حتى اللحظة الراهنة لم تختلف حول ما يمكن أن تظهره مجاملة المصافحة باليد من خفايا، وما يمكن أن تفسره من ألغاز. ومرةً أخرى، ألح جونكان في طلب العودة إلى بيته، فقيل له: "دع عنك التفكير في هذا الموضوع الآن؛ فالعودة إلى بيتك مستحيلة مؤقتًا، ثم إن البت في هذه النقطة أصبح في يد مسئولي المحافظة".

مِن هذه الساعة، بدأ جونكان ينخرط جديًا في التعاون مع السكرتير في تجهيز الملف. وكانت الأجواء الاحتفالية تعمر بكل أسباب البهجة والبشر؛ فأينما وليت وجهك رأيت ملامح مشرقة وورودًا معطرة. وبالنسبة للتقرير، فقد تولى السكرتير قراءته مثلما سبق له أن قرأ- في ظرف سابق- عريضة الاتهام، في مؤتمر نضالي للتنديد بإجرام نفس الشخص الجالس إلى جواره اليوم. نفس الشخص الجالس إلى جواره مقطّب الجبين، مُنصتًا بكل اهتمام نفس الإنصات الذي بذله من قبل. ومن شدة الإنصات، أصابه ما يشبه التشتت الذهني، فظن أن الناس تتكلم عن "جونكان" آخر غيره، وخاصةً وهم يقصون مآثر بطولية لا علاقة له بها؛ بل إنه من بلاغة ما روي

على أسماعه من بطولات ومواقف نضالية فذة، أعجب بذلك الـ جونكان، وتأثر كثيرًا بسيرته المجيدة، وقال في نفسه: هذا بحق رجل جدير بالإجلال! وبعد برهة صار الناس يهتفون: "المجد للرفيق جونكان!"، "يعيش المناضل المثالي!" لكن الأمر تداخل عليه لما سمع الهتاف العالي، والتبست عليه صورة الموقف، وتسرب إلى وعيه إحساس بأن الجماهير المحتشدة تقول: "الخزي والعار للخائن جونكان!"، "ليسقط عدو الثورة!" فتفصَّد جبينه بالعرق، وأخذته رعدة هائلة.

وسط أجواء عامرة بالفرح، مشرقة بالألوان، كان يرتجف فزعًا، وتمتلئ نفسه بكل الهواجس المرعبة. وبقي على هذه الحال مدة أسبوع، حتى كاد أن يموت من القلق؛ فلعن نفسه ولعن الساعة التي قيلت فيها هذه الكلمة على لسانه، وتساءل، ما الذي دعاه إلى أن يقولها ويوقع بنفسه في ورطة ممسكة بخناقه حتى هذه اللحظة؟

جاءه أخواه لزيارته ذات ظهيرة، فقص على أخيه الأكبر ما وقع له، وصارحه بما ينتابه من القلق، فرد عليه بقوله: "أنت شخصٌ غريب فعلًا! أما تعرف أني تمنيت في أعماقي لو كنت أنا نفسي قائل تلك الجملة التي تشتكي بسببها، وتقول إنها سببت لك المتاعب؛ يا أخي، ليتني كنت قائلها، حتى لو سُجنت أطول من سجنك. ولو كنت مكانك، لأضفت إلى تلك العبارة بعض المقبِّلات، لأنك كلما أضفت إلى بضاعتك مزيدًا من الملح والمشهيات صارت النكهة أطيب مذاقًا. أما مسألة التدقيق فيما قيل بالضبط- من ناحية الصدق والكذب- فهذه لن يكترث لها أحد.. صدقني".

وهذا الرد من أخيه الأكبر لم يفرّج عنه الكرب، ففكر في أن يستقصي منه أحوال "كوارسو"، لكنه تردد قليلًا، ثم قرر ألا يفاتحه بأي كلام عنها. وكان أن باغته أخوه الأصغر بسؤاله:

"تُرى، أما تزال بحاجة إلى تلك الغرفة؟"

بدا له أن الأخ الأصغر قد اطّلع من طرف خفي على خباياه، فرد عليه بما يشبه الاستنكار:

"ولم لا أحتاجها؟"

قال له: "سمعت أن الكومونة سوف تنقلك إلى وظيفة جديدة، ومسكن آخر، بل سيجيئون لك بزوجة، وتستقر في بيت جديد".

"من قال هذا؟" سأله مأخوذًا.

"الكومونة كلها تردد هذا الكلام. اسأل أي واحد من الناس، وسيؤكد لك قولي".

أخيرًا، لم يتمالك إلا أن يسأله، كاشفًا عن طواياه: "هل رأيتم 'كوارسو'؟"

قال أخوه الأكبر: "آه، تلك المرأة، دعك منها، فكل منكما له طريقه. ثم إنها الآن تجني ما زرعت يداها".

في تلك اللحظة بالضبط، دخل السكرتير، فأقبل عليه يستعجله: "تعال، قُم معي بسرعة! تعال لنركب سيارة القسم التجاري بالكومونة، فكل شيء جاهز للتحرك الآن".

عصفت به الأفكار، وانقلب كيانه لما سمع أخاه يقول إنها ..."تجني ما زرعت يداها"؛ وتساءل في نفسه، تُرى ما قصده من هذه الكلمة؟ ركب السيارة، وأسرع يسأل السكرتير: "متى ننتهي من هذا المشوار بالضبط؟"

أخذ الرجل يقلب أوراق المفكرة في يده، وهو يرد عليه بقوله: "في لمح البصر. فقد أبلغت الوحدة المحلية التي سنزورها الآن بأن يعملوا حساب كل شيء، وأن يسجلوا لنا كل ما سنقوله، كلمة بكلمة، وهذا ما سنفعله في أية زيارة بعد ذلك".

لعن نفسه، وقال لو أن لسانه كان قد خَرِس في تلك الساعة، لاستراح من كل هذه الأشياء.

مضت عليه عدة أيام وهو على هذا الحال من التبرم، ضاقت نفسه بالدنيا وما فيها، ولم يعد يقبل على الطعام بشهية مفتوحة، فهزل جسمه حتى قال له السكرتير: "لا، عليك أن تلتفت إلى صحتك، اعمل حسابك أنك غير مسموح لك بأن تمرض طويلًا، بالذات بعد أن وصلنا إلى وقت الجد. وقد سمعت أنهم سيقيمون عددًا من الاجتماعات في الإدارة المحلية طوال الأيام القادمة، وطبعًا فلابد أن تتوقع مجيء عدد من الزوار للقائك. ولست متأكدًا إن كانوا سيطلبون تجهيز عشاء للضيوف من عدمه!" قال له هذا بينما كان في قرارة نفسه راضيًا عن هذه المشاغل التي صعدت بنجمه في السماء، وجعلته معروفًا بين المسئولين، لأنه كان يمسك بدفة الحديث في اللقاءات الرسمية، ويرد على التساؤلات، ويدير الحوار بين الجميع تقريبًا؛ مستفيدًا من موقعه هذا في تحقيق مكاسب هائلة. بل إنه- هو نفسه-

اعترف بذلك صراحة ذات مرة لـ جونكان، إذ قال له: "أنا الآن مستضيء بلمعان نجمك، ماشٍ وراء كعبك، أقول لك بصراحة". بيد أن جونكان أجابه على الفور، بلهجة مشحونة بالغضب: "وأنا أيضًا، يا سيدي، ماشٍ في أنوارك". على الفور، التقط الرجل العبارة الأخيرة، وأجابه بقوله: "هذا كلام جميل، والحق أننا كلانا نستضيء بأنوارنا، ويستفيد كلٌّ من زميله؛ فأنا أستفيد من موقفك لأنك قائل العبارة إياها، وأنت تستفيد مني لأني أتولى عنك إعداد الملفات والأوراق والتقارير. يعني، بالتشبيه البليغ، أستطيع أن أقول لك إن الأمر بيننا مثل الزيت والشمعة، بمعنى أنك مثل فتيل الشمعة، وأنا مثل الشحم الذي يبلل الفتيل ويجعله قابلًا للاشتعال. وأحيانا ما تتلون الشمعة بلون الزيت المستخدم للاشتعال؛ فإن كان لونه أبيض صارت الشمعة ضاربة إلى البياض، وإن كان أحمر رأيت الشمعة قد مالت إلى الاحمرار. فأنا بغير فتيلة شمعتك لا أساوي شيئًا، وأنت بغير زيتي لا قيمة لك. فالمسألة كلها على هذا النحو، ومع كل الناس، وفي كل المستويات، وكل المواقف".

أفاض في شرح نظريته المبتكرة، واعتدل في جلسته بكل ثقة، وقد أُشرِب وجهه الأبيض بحمرة طافحة كأنه منقوع في زيت شموع من الأحمر القاني؛ بينما كان جانكون يغالب شعورًا جارفًا بالبكاء، وفكر بينه وبين نفسه قائلًا: بسبب زيتكم المرير هذا، اضطُررت لأن أعمل بالأشغال الشاقة طيلة سنوات من العمر! وبالطبع، فقد استطاع أن يتجاوز لحظة الضعف، لكن يده المرفوعة بمبسم السيجارة انتابتها رعشة خفيفة خفيفة، بدرجة يكاد لا يلحظها أحد.

فاض به الكيل، وقرر أن يتقدم بشكوى ضد السكرتير، كي يتخلص من حصاره؛ لكنه لم يكن يعرف إلى مَن وأين وكيف يتقدم بهذه الشكوى! فهو لا يعرف أحدًا في هذه المدينة الواسعة، بل لا يعرف كيف يمشي فيها، وإلى أي طريق يتجه، ومن أية ناحية يعود. ثم إن الرجل المشكو في حقه لا يفارقه لحظة، فهو حاضر إلى يمينه أو شماله أينما حلّ؛ حتى الضيوف... كل الضيوف يبدو أنهم من معارفه. فمع مَن يتكلم؟ وإلى مَن يلجأ؟ وكيف يتصرف، وهو لا يعرف أحدًا هنا؟

سمع، ذات يوم، أن أحد نزلاء دار الضيافة له باع في التنجيم وقراءة الطالع، فذهب إليه وكلمه؛ لكن الرجل كان من النوع الذي يقول كلامًا نصف مفهوم، فكان أن قال له: "مشكلتك لن تُحل إلا عندما تتفاقم إلى أقصى درجة، وربما تجد الحل بعد تسعة وأربعين يوما". ولما سأله عن حظه في الزواج، ابتسم وتأمله برهة، ثم أجابه: "انظر، مسألة الزواج هذه... بالنسبة لك، فيها النحس والخطر معًا، لكن لو كان أغلبها نحسًا، فالمخاطر بعيدة، والعكس صحيح! وعمومًا، فمن الأفضل أن تعمل كل ما في طاقتك للحفاظ على زواجك من التقلبات الخطيرة". حاول أن يفهم كلام العراف، فاكتشف أنه إزاء طلاسم غامضة، تحتاج بدورها إلى مزيد من التوضيح. واقتنع بأنه لو كان قد تجاهل موضوع الطالع من الأول، لكان أجدى له من الوقت الذي ضاع سُدًى.

لما استعاد كلام العراف، اكتشف أنه أيضًا قال له، وسط الألغاز الكثيرة، بعض أشياء مفهومة، أضاءت له بريقًا من الأمل. وساعة أن دخل إلى غرفته،

ووجد السكرتير منهمكًا في كتابة مقال لإحدى الصحف، تقدم منه مترددًا وطلب منه نقودًا ليشترى علبة دخان من الدكان القريب؛ فأعطاه ثلاثة يوانات، وحذره من التلكؤ بالخارج. فخرج من عنده، بعد أن سحب نخلاته البيضاء الصغيرة، بمنتهى الخفة؛ وسار حتى وجد نفسه عند البوابة، ولمح العراف الطيب، فرافقه وسط الزقاق الصغير المتفرع من الشارع متجهًا إلى أقصى الطرف الجنوبي من دار الضيافة، حيث لمح محطة الأتوبيس.

مثل مجرم هارب، تسلل داخل الأتوبيس بنظرات زائغة، وقلبه ينتفض خشية أن يتم القبض عليه، ويُسلّم إلى العدالة كي تأخذ مجراها. جلس على أحد المقاعد مرتبكًا، وهو يخفض رأسه لئلا يرى الناس وجهه المتغضن. لما تحرك الأتوبيس، هدأ وتنفس الصعداء، بمشاعر المنعتق من مصيدة مفزعة. وكلما أوغل الأتوبيس على الطريق مبتعدًا، ازداد طمأنينة وثقة في أن يتطلع بحرية إلى وجوه الركاب الذين لم يكن بينه وبينهم أدنى معرفة. ولحظة أن أدرك سيادة السكرتير أن فتيلة الشمعة قد انسلت هاربة من بين يديه، كان هو على مسافة تبعد عشرات الكيلومترات عن مركز المحافظة، وقد تخلص من زيت شموع التصق به لصق غراء. هنالك تراقص القلب طربًا ومسرّة.

لم يكن يعرف أن ثمة أتوبيس يصل مباشرةً إلى الكومونة، هذه الأيام، من غير داعٍ إلى المشي عدة ساعات حتى يصل إلى غرفته. لكنه الآن- وعلى مقعده في الأتوبيس المسافر- راح يتطلع إلى المناظر على الجانبين، مناظر الغابات والجبال والقمم العالية وأسطح البيوت والمزارع، وهي تتلاحق في إثر بعضها بعضًا، وبقلبه ما لا يوصف من السعادة، والوجه العبوس تهللت

أساريرة.

والأتوبيس في الأرياف يعتبر منتدًى لتبادل الأخبار والتعرف على الأحوال، فكل الحوادث والغرائب والنوادر التي تحدث في أركان العالم الأربعة واتجاهاته الثمانية تجد لها سوقًا رائجة في أتوبيس ريفي. ولأن الفلاحين مولعون بالقيل والقال، وزبائنهم في هذا النشاط بغير حصر، فالأخبار المذاعة بينهم تؤتي أثرها، وتجد مرتعًا وافر الخصب. وكانت تلك الساعة في الأتوبيس هي ساعة بث الأخبار، ومتابعة الأحداث، واصطياد الأنباء من مختلف المصادر. وكان جمع من الركاب ينصت مليًّا إلى وكيل مبيعات في إحدى المؤسسات التابعة للكومونة، وهو يقص عليهم وقائع ما حدث منذ وقت قريب جدًّا. وكان الأتوبيس يصعد مرتفعًا جبليًّا في تلك اللحظة، ويصدر عن محركه دَوي صاخب، اضطر الركاب من شدته إلى أن يميلوا بآذانهم، ويقتربوا من محدثهم؛ في حين صاح بعض الكهول، ممن ثقلت أسماعهم، يسألون سيادة الوكيل أن يعيد كلامه بصوتٍ عالٍ. ولم يكن جانكون يكترث بما يقال، أول الأمر، خاصةً وقد شرد ذهنه بعيدًا بعيدًا، في إثر خياله المنشغل بلحظة لقائه مع كوارسو، وكلامه الذي سيقوله لها ساعتئذٍ. ثم إذا هو ينتبه إلى قول أحد الركاب:

"يعني، هل تقصد بكلامك هذا، سيرة الأرملة؟"

"نعم، أقول لك، فأنا أتكلم عنها تحديدًا" أجاب الوكيل مؤكدًا قوله، "لقد ترملت وهي شابة صغيرة، وبقيت دون زواج، حتى بعد أن بلغت الأربعين. وظلت ترفض كل من تقدموا لها... لأنها كانت تحب شابًا أعزب".

أفاق منتبهًا انتباهة من اندقت رأسه بمثقب وهو غافل. فأرهف السمع.

"أعرفه... هو ذاك الذي اسمه 'جونكان'" أجابه أحد الفلاحين.

"بالضبط، هو ذاك الرجل بعينه"، رد عليه الوكيل، "ذلك الذي حكموا عليه بالأشغال الشاقة لما شتم 'لين بياو'، وقال عليه إنه متعاط للأفيون".

"آه...عرفته"، صاح راكب آخر.

سمعهم، وأسرع يخفّض رأسه متواريًا عن الأنظار.

"لكنهم أفرجوا عنه"، واصل الوكيل كلامه، "وهو الآن في مقر المحافظة يستعد لعمل تقرير جماهيري كبير. وسمعتهم يقولون إنهم يدعونه كل يوم ليلقي الخطب وسط الناس".

"يعني هو مفرج عنه الآن إذن!" قالت إحدى الراكبات، "طيب، ما داموا قد أفرجوا عنه، فما الداعي لأن تحاول المرأة الانتحار وتشرب السم؟"

رفع رأسه منتبهًا وقد بهت لونه، حتى لفت إليه انتباه الراكب إلى جواره، وبدا له مثل معتوه.

"أقول لكم لماذا شربت السم، يا حضرات،" أجابهم الوكيل متعمدًا أن يقف في منتصف الكلام وقفة تشويق حكائية، ثم واصل موضحًا، "هي حاولت تنتحر لأنه تم الإفراج عنه، وهذا هو الغريب في الأمر".

أحس كأن قَدومًا انهال بضربة مُصمِية على رأسه.

"كيف يعني تنتحر بسبب الإفراج عنه؟ ما الحكاية بالضبط؟" تساءل

أحد الركاب على المقعد المجاور.

"هي أصلًا كانت تنتظره بفارغ الصبر، وكانت مخلصة له في غيابه. ولعلمكم، فهذه مسألة ليس فيها أدنى شك من أية جهة." قال لهم الوكيل مفسرًا ألغازه، "لكن، فكروا بعقولكم، فالشاب مسجون، وعليه حكم أشغال شاقة، والمرأة الوفية وحدها تواجه القيل والقال، والناس أشاعوا أنها كانت على علاقة معه؛ لدرجة أن ولدها تأثر بهذا الكلام فحزن جدًا، وتركها ليعيش مع خاله. وبالتأكيد، فقد اعتصرتها الحسرة على ما حدث. وإذا سألني أحدكم لماذا تنتحر؟ فالسبب لا لأن جونكان قد خرج من السجن، ليس هكذا بالضبط! وإنما لأنه بعد خروجه أصبح شخصًا غير عادي، والناس تتحدث عنه هنا وهناك، والكومونة التي يعمل بها قررت أن تعينه في وظيفة جيدة. ليس هذا فقط، بل قرروا أن يزوجوه امرأة فاضلة، جميلة وبيضاء. وطبعًا، فالرجل قرر أن ينسى الماضي، ويمزق الأوراق التي تعهد فيها على الزواج من الأرملة. فما بالك عندما يصلها هذا الخبر، كيف تتصور رد فعلها إزاء هذا!"

"رجال... معدومو الحس والضمير!" صاحت المرأة بانفعال. وككل النساء في حساسيتهن إزاء هذه المواقف، فقد صبت جام غضبها على الذكور، وراحت تنعتهم بأرذل الصفات.

واصل الوكيل كلامه: "ولحسن الحظ أنهم اكتشفوا ما حدث قبل فوات الأوان. وربما لو تأخروا دقيقة واحدة لانقطع جذرها [لفقدت عمرها]!"

سمع بالكاد هذه العبارة الأخيرة الواعدة بالنجاة، بيد أن العرق سال من جبهته، وتفصد حبات احتشدت في ثنايا تغضنات جبهته.

"تُرى، هل يستطيعون إنقاذها في مستشفى الكومونة؟" سأله أحدهم.

"مستشفيات الكومونة ليست مجهزة بإمكانيات كبيرة، لذلك نقلوها إلى المركز الطبي الكبير".

عندئذٍ، تأكد الراكب الجالس إلى جواره أنه معتوه، بكل تأكيد. وإذ همَّ بسؤاله عما يضايقه، فوجئ به ينتفض واقفًا، ويصيح بأعلى صوته مناديًا السائق:

"أوقف السيارة هنا، يا أسطى! توقف عندك!"

هذا النداء الأخير، القصير، الحاسم، لم يكن ليعطي فرصة للأخذ والرد من جانب السائق.

والأسطى السائق أوقف السيارة في الحال، بينما الركاب يتطلعون بعيون جاحظة تجاه الراكب الغريب الذي أراد النزول في مكان لا توجد به محطة للأتوبيسات؛ بل ليس به أساسًا أية محلات أو مكاتب أو بيوت مأهولة بالناس.

انفتح باب الأتوبيس، فنزل ممسكًا بمخلاته البيضاء، ثم استدار جاريًا عكس اتجاه الطريق، وهو يلعن قدره، والتقارير، والخطب، واللقاءات، والسكرتير وشموعه.

"مَن هذا الأهوج، العابث!" صاح الركاب في استنكار.

جاء صوت أحد الراكبين في الخلف يقول للجميع: "أنتم لم تنتبهوا جيدًا، فذلك هو جونكان نفسه، جلس وسطكم دون أن تتعرفوا عليه. وبالتأكيد، فهو ذاهب إلى المستشفى لزيارة امرأته".

همهم الجميع، والدهشة تملأ عيونهم. الدهشة التي تزيلها مباشرة لحظة إدراك مرمى الأشياء.

واصل الأتوبيس مشواره على الطريق. ومن النوافذ على الجانبين، برزت رؤوس الركاب الذين أخذهم الفضول، فراحوا يتطلعون إلى الخلف، وقد نسوا تمامًا أن هناك لافتة تحذيرية مكتوبة بكلمات واضحة تحت عنوان "تنبيه على الركاب" تضمنت بندًا مفاده: "ممنوع إبراز الرأس أو الذراعين من النافذة المفتوحة أثناء سير الأتوبيس". لكن الرؤوس لم تأبه بالمحظور، وظلت بارزة ومتراصة خارج النوافذ، حتى كاد المتطلع إلى السيارة- من بعيد- يظن أنها محتشدة، عن آخرها، برؤوس كثيرة تزاحمت فطلعت من الشبابيك.

[تمت في أغسطس 1980 (المؤلف)]

الشيخ والوقـــائع الفاضحة

إذا كان الناس قد اعتادوا تسمية العم "جاو لاو" بـ"الشيخ" أو "المعلم الفاضل"، فلأن ملامحه وأخلاقه ومظهره العام كان يحمل ما يستأهل هذه التسمية، وليس أي شيء آخر. فهو لم يكن كبير السن إلى هذه الدرجة (لم يتجاوز الخمسين بعد)، لكن شكله كان أقرب إلى سمت الشيوخ: ظهر محدودب، وجسد يميل إلى النحافة، وعينان ضيقتان تطلان من وراء نظارة سميكة، وملامح متجهمة مصبوبة في قالب من الجد الصارم. وساعد على هذا الانطباع تخصصه في تدريس اللغة ونحوها وآدابها في المرحلة الثانوية، وطريقته الغريبة وهو يقرأ النصوص القديمة (بشغفٍ غير عادي)، فيما رأسه تتطوح على وقع العبارات؛ حتى بلغ من شدة تعلقه بالقدماء ونصوصهم أنه بدا أمام الناس كأنه آتٍ من عصر قديم؛ يفهم عباراته وأحواله بأكثر مما يفهم أجواء وقته الذي يعيش فيه. فهو مثلًا لم يكن يعرف بالضبط السعر الذي تُباع به اللحوم هذه الأيام، بينما كان باستطاعته أن يسرد أسعار المشتروات كافة إبان عصر أسرة هان، الذي انقضى منذ نحو ألفي عام! وفوق

هذا، فقد كان باستطاعته حساب الزمن بواسطة الساعة الرملية العتيقة، ويعتبرها أكثر دقة ومنطقية- في تتبع الأوقات- بدرجاتها المختلفة؛ يحسبها بمهارة، كأنه يتابعها أمام عينيه... وعلى مكتبه؛ في حين أنه كان يرتبك في قراءة الوقت بساعة اليد العادية. ويوم أن أهدته امرأته، بمناسبة عيد ميلاده، ساعة أنيقة ذات مؤشرات مذهبة- بدل العلامات الرقمية- كان ينظر في مينائها، ويرى العقربين باتجاه الخطوط على استدارتها، ويحاول العد فيخطئ، فيمد ساعده إلى الناس ليطالعوا له الوقت. وبعد أن وقعت له الحادثتان اللتان نالتا من سمعته، وذاعتا بين الناس، وصارتا حديث القيل والقال، أخذ الجميع يقصون الأحداث تحت مسمّى "حكاية النساء اللاتي أوقعن بالمعلم"! والمذهل في التسمية أنها تربط بين الرجل وبين ما لم يكن يخطر على بال أحد من الناس، باعتبار أنه معروفٌ بين الجميع بالإخلاص التام لامرأته (ولو أن ظروف إقامة اضطرارية باعدت بينهما في المسكن)، فالزوجة- التي اختارت البقاء في المنطقة النائية للعمل بالمدرسة الابتدائية، بدلًا من الانتقال إلى المدينة، (فضلًا عن أنها لم تكن تملك الحصول على الموافقة للنقل، أساسًا)- كانت لديها أسباب قوية لكراهية المدن وزحامها وضجيجها إلخ. ومن ناحية ثانية، فقد كانت تثق في زوجها تمامًا، وتعرف أنه لا بأس من سكناه بمفرده. لكن رجلها- الذي مرت عليه أيام طويلة دون غبار على أخلاقه وإخلاصه- جاءه اليوم الذي صارت أحواله فيه مغبرة، بل موحولة ومنغرسة في قاع الدنايا. فكان كمن انقلبت أحواله من الهدوء الساكن المطمئن إلى الاضطراب والفوران المفاجئ. كان- في حال السكون- يمضي في هدوء؛ فلما خرج عن وقاره، مزق الأستار دفعةً واحدة، بل دفعتين،

بحادثتين، كلتاهما أدهى من الأخرى؛ أولاهما، ارتكبها بإرادته وجلبها على نفسه بيده؛ ولو أنه ظل بعدها يحاول التبرير والدفاع والتملص من جريرتها. لكن تطور الحوادث جعل من الصعب عليه أن يفض يده منها بسهولة؛ وثانيتهما ظهرت بعد أن تقدمت إحدى النساء إلى الجهات الرسمية بشكوى ضده، وقد كتبتها بطريقة متقنة تجعله موضع اتهام صريح؛ حتى أنه لما حاول أن يدفع عن نفسه التهمة ازداد تورطًا، كمن راح يعبث بكتلة خيط متشابكة أملًا في فض عقدتها، فإذا به يزيدها تعقدًا، وكلما خلُصت محاولاته بطرف خيط اشتبكت باقي الخيوط. والآن، سأسرد الوقائع حسب ترتيبها الزمني، وللقارئ الحكم على الأحداث بطبيعة الحال، ولنبدأ أولًا بـ...

الواقعــة الأولى

وهو ما وقع بعد انتقال المعلم "جاو" إلى مسكنه الجديد بفترة قصيرة، حيث قصد إلى عمله في الصباح. وقبل بدء التدريس بدقائق، دخل إلى مكتب المدرسين بوجه تتزاحم فيه ملامح الغضب والسخط والاشمئزاز، ومن وراء نظارته بدت عيناه المستديرتان- من خلال العدسات السميكة- أكثر جحوظًا واستدارة. وبصوت عالٍ، تكلم وهو ممسك بورقة مفرودة، قائلًا: "شيء غريب...غريب جدًا، هل هذا معقول يا ناس؟"

تناول الورقة من يده وطالعها مدرس مادة التاريخ، ذو القامة الطويلة،

الذي كان واقفًا بالقرب منه وهو داخل، ثم قال: "الكلام مكتوب بلغة أجنبية، وأنا عمري ما درست لغات أجنبية". وبدوره، أسلم الورقة إلى الأستاذة "لي هويليان" مدرسة اللغة الانجليزية، فتناولتها الأستاذة الشابة المليحة من يده، وزمت شفتيها وهي تطالعها، ثم انفجرت ضاحكة، وقالت للرجل وهي تحدق في وجهه:

"افرح، يا أستاذ جاو، يا بختك! أنت حظك من السماء، يا عم؟"

بوجه عابس سألها: "ملعون الحظ وأصحابه! أنا أريد أن أفهم ما المكتوب هنا، بالضبط؟"

كان المكتب بكل مَن فيه يتطلع إلى المدرِّسة الشابة، بانتظار ردها.

وقد قرأت الورقة بالإنجليزية أولًا، ثم قالت له: "انظر، يا سيدي هذا الكلام هنا معناه: كم أشتاق إلى قبلة حلوة من فمك!"

جلجلت الضحكات في جنبات المكتب.

هنالك، دق جرس الحصة الأولى!

ارتبك المعلم جاو، قال متلعثمًا: "هل وصلت الأمور إلى حد التقبيل- وفي الفم أيضًا! واضح أن المسألة تحتاج إلى شرح كثير!"

وهز الأركان دوي آخر من الضحكات. ولم يكن باستطاعة المدرسين أن يطلبوا منه التوضيح؛ لضيق الوقت. أخذ كل منهم كراسة تحضيره، وعددًا من أصابع الطباشير، وقد انطوت صدورهم على سؤال مهم جدًا: تُرى مَن هي

صاحبة هذه الرسالة؟... مَن صاحبة هذه القبلة الموعودة على فم المعلم جاو!

لم ينتظر أحد من المعلم جاو أن يقدم بنفسه التفسير المناسب لهذا اللغز، لأن التفسير الحيوي أخذ مجراه بين المدرسين، صال وجال في كل ركن، واتسع نطاق انتشاره، وأعطاه كل واحد رؤية وزاوية، وملامح وروحًا مختلفة، حتى أن البنت صاحبة الخطاب (التي لم يرها أحد أصلًا) أصبح لها شكل و"قوام" وعمر وصفات شكلية محددة، لدرجة أنه- لما جاء الوقت المناسب للمعلم لكي يقص الحكاية من أولها- كان أول تعليق سمعه ممن حوله، وببساطة شديدة، يقول له إن كلامه هذا ..."مجرد وجهة نظر...لا أكثر!"

وفيما يلي كلام المعلم، أو- كما أشيع فيما بعد- "وجهة نظره":

من شدة الحرارة، كاد الجو يغلي، ظهر ذاك اليوم. تناول المعلم غداءه في مطعم المدرسين، وعاد إلى مسكنه الجديد (في الطابق الرابع). أشعل سيجارة، وجذب منها أنفاسًا قليلة (هو لا يدخن السجائر الملفوفة بالورق المصنوع آليًا، بل ورق الدخان الطبيعي، تقليدًا للقدماء الذين لم يكونوا- في الزمن القديم- يستخدمون سجائر "الماكينة" هذه!)، ثم راح يسعل بشدة ليطرد البلغم. وقام وخلع القميص والبنطلون، واستلقى على السرير تمهيدًا لإغفاءة قصيرة، مدة خمس أو عشر دقائق، حتى يستعيد طاقته ويواصل حصة الفترة المسائية. وفي الحال، سمع طرقًا خفيفًا على الباب... طرقات مهذبة تتوالى بعد سكنات قليلة. فلما انقضت ثلاث منها توقفت تمامًا، ربما انتظارًا للباب كي يُفتح. وتساءل في نفسه، قال، تُرى مَن الطارق؟ فليس هناك مَن يعرف بانتقاله إلى مسكنه هذا إلا زملاؤه المدرسون. وهؤلاء لا يتوقع أبدًا أن يأتيه

أحدهم في هذه الساعة، مهما كان الأمر، باستثناء الظروف الطارئة طبعًا. اعتدل من رقدته، ومد يده إلى النظارة المطروحة فوق الوسادة. وقبل أن يلمسها، عادت الطرقات من جديد على الباب، بقوة هذه المرة، كأنه طارق آخر غير الأول؛ فداخله القلق من أن يكون ثمة أمر استدعى كل هذه الجلبة؛ فقام يسعى بعينين غائمتين، وقد ارتدى قميصا فضفاضًا وسروالًا واسعًا وقصد إلى الباب، مستعدًّا أن يواربه قليلًا ليرى مَن هناك؛ فإذا تأكد من أنه أحد المدرسين فتح له فورًا. وإذ جذب "سقاطة" المزلاج قليلًا، سمع صوت فتاة تسأل برقة:

"هل هذه شقة الأستاذ جاو؟"

في اللحظة عينها، انبعثت من خلال الباب رائحة عطر نفاذة، اندفقت في فتحتي أنفه.

هجست به الظنون وارتبك للغاية، لكنه غالب توتره. وما إن فتح الباب قليلًا، حتى احتشدت في حلقه صرخة مكتومة. لكنه لم يكن أول من جاهر بها، بل كانت هي التي أطلقت صرختها الأنثوية الخفيضة... صرخة بدت منفلتة، بيد أنها استطاعت أن تكبحها في اللحظة الأخيرة.

"هاه!..."

كأن كلاهما وجد نفسه قبالة كائن مثير للفزع والقشعريرة.

وجد المعلم جاو نفسه، دون أن يشعر وبرد فعل تلقائي، يدفع الباب بسرعة، ويغلقه في وجه الصوت الهادئ اللطيف. ثم اكتشف أن صاحبة

الصوت الهادئ اللطيف، بلحمها وشحمها، قد أصبحت داخل الشقة. واكتشف أيضًا أنه لم يكن يلبس النظارة وقتئذٍ، وبالتالي فلم يستطع تحديد ملامح الضيفة بوضوح. وكل ما استطاع أن يلمحه منها هو عبارة عن كتلة كبيرة من اللون الوردي تحتوي على مساحة بيضاء في المنتصف (حزّر أنها قد تكون شنطة يد حريمي). وفي الحال، عبق جو الشقة برائحة عطر فوّاح.

ارتبكت أحواله وأصابه شيء من الدوار. تبعثرت قدرته على التركيز حتى شعر كأن رأسه في ناحية وأطرافه في ناحية أخرى، وأن موصّلات الأوامر الذهنية في رأسه لا تحمل إشاراتها الصحيحة إلى أطراف الحركة المنوط بها التصرف. لكنه سمع الصوت الهادئ اللطيف مصحوبًا بطيف ابتسامة خفيفة يقول له في ودٍ بالغ:

"معقول؟ لم أكن أتصور أن المعلم جاو... بجلالة قدره، رجل بسيط إلى هذا الحد. فأنا بعد أن قرأت رسالتك عرفت أنك رجل ناضج، كبير في السن، وقلت إنك ربما تكون في سن واحد مثل "وانشين كانغ".

وجد المعلم نفسه كالتائه في جبل الضباب... تساءل: ما علاقته بـ وانشين كانغ هذا؟ وأية رسالة؟ وبخصوص ماذا؟ وأي "قدر جليل" هذا الذي بلغه دون أن يدري؟ زادت حيرته أضعافًا، ولم يدر كيف يرد عليها. ثم سمعها تواصل كلامها، وكأنها تلتمس لنفسها عذرًا ما، قائلة: "عمومًا، لا بأس، فالواحد منا لا يستطيع أن يحكم على أي إنسان بمجرد النظر في ملامح وجهه. ويجب أن أقول لك إن مقالاتك فعلًا جديرة بأن تكون مقالات

عبقرية، لا تقل قيمة وإبداعًا عن مقالات 'وانشين كانغ'".

كل ما سبق له نشره من مقالات- في المطبوعات والدوريات التربوية- كان يقتصر على "طرق تدريس الأدب القديم ومناهجه"؛ فأية علاقة بالضبط بين هذا النوع من المقالات وبين المدعو "وانشين كانغ"؟ وسط هذه الحيرة التي سيطرت على تفكيره بدا له أن الكتلة الوردية اللون صارت تتحرك داخل الغرفة جيئةً وذهابًا، ثم اقتربت من المقعد الملاصق لحافة السرير، فجلست عليه. يا لَلسماء! لقد جلست فوق البنطلون الملقى هناك بلا مبالاة. وكان في نيته أن يأخذه وينتحي جانبًا ليرتديه، لكن تطورات الأحداث توالت بسرعة على هذا النحو، ولم تعطه فرصة لكي يهيء نفسه لأية احتمالات.

"أستاذ جاو... تفضل اجلس، لماذا تقف هناك متصلبًا هكذا؟" كلّمه الصوت الهادئ اللطيف.

أيكون هذا كابوسًا ثقيلًا، ثقيلًا لدرجة أنه يراه بعين مفتوحة، ولا يفيق منه؟ لكنه- وبشكل آلي- جلس وهو يضم ساقيه، ويمد يده النحيلة ليداري بها ركبته التي برزت منها نواتئ عظمية. فلما استقر تمامًا في جلسته، سمع الصوت الهادئ اللطيف يقول له ضاحكًا:

"أستاذ جاو، ربما أكون قد سببتُ لك حرجًا عندما طلبت إليك الجلوس وأنت في سروالك القصير! لكن، أرجوك أن تأخذ راحتك تمامًا، تصرف بكل بساطة، ولا يضايقك وجودي أمامك، وأنت بهذا المنظر!". بدا أن

الكتلة الوردية اللون قامت من مكانها، أثناء الكلام، وتحركت قليلًا، فقام المعلم واقفًا وقد لعبت به الظنون، عندما أحس أن الكتلة المتوردة تحركت تجاهه؛ في حين أن ما حدث حقًا هو أن محدثته فردت ثنيات تنورتها وهي نصف واقفة، ثم جلست مرةً أخرى، فجلس هو الآخر بشيء من التردد. ثم التفت بحركة لا شعورية ناحية الباب، الذي كان موصدًا بكل تأكيد. لكنه، من خوفه، تصور أن الظروف قد تسوق إليه مَن يقتحم عليه الشقة.

لاحظت الكتلة الغائمة الوردية تصرفاته غير الطبيعية، ولم تتمالك نفسها من الضحك... ضحك مكتوم أول الأمر، ثم ضحك فواح منطلق على راحته، لكي ينفلت سريعًا من زمام الاحتشام، ثم يصول ويجول فاجرًا مترعًا بقهقهات رائحة من عقالها. سمعها وانتابه الغضب. ومع احتداد الغضب جاءته الإفاقة، وتساءل: مَن هذه؟ صوتها لا ينبئ عن سنها بوضوح. فهل هي فتاة أم شابة كبيرة متزوجة، أم امرأة كبيرة ذات صوت ناعم، هادئ، لطيف؛ على اعتبار أن الطب الحديث بلغ من التقدم درجة تمكنه من أن يمنح العواجيز صوتًا ناعمًا لطيفًا. وفيما هو منشغل بالتفكير في الطب والأصوات سمعها تتكلم وهي تغالب الضحك:

"أبدًا، أنا فقط اكتشفت أنكم، يا رجال، تنظرون إلى المرأة الحلوة نظرة الأمير في الحكاية الأسطورية إلى التنين... يعني أنتم تشعرون برهبة تجاه المرأة الجميلة، لكنكم تحبونها في نفس الوقت".

هنا، كان المعلم جاو قد سيطر تمامًا على ارتباكه وحيرته، تحت ضغط مشاعر الغضب. فقد كان للسخط العارم في طباعه قدرة هائلة على تنحية

أية اضطرابات أخرى. وتساءل كيف يَسمح لفتاة غريبة أن تقتحم عليه شقته هكذا دون سبب، ثم يتركها تثرثر بكلام فارغ على هذا النحو. سألها:

"عندي سؤال: أنتِ، لماذا جئت إلي هنا؟"

"آآ... جئت أسأل حضرتك"، قالت بمنتهى الهدوء، "إن كنت قد قرأت قصتي التي أرسلتها إليك، هل تصلح للنشر أم أنها دون المستوى؟"

"أية قصة؟" سألها مستغربًا.

"القصة التي أرسلتها إليك، وتحكي قصة حب بين أخ وأخته"، أجابته الكتلة الضبابية وردية اللون، بلهجة تشي بالغموض، "فهدفي من كتابة القصة اقتحام تلك المنطقة المحرمة في العلاقات الإنسانية، حيث أحاول مساءلة قدرة الرجل على مواجهة كثير من الأمور الشائكة..."

هنا، لم يعد المعلم يطيق صبرًا، فانتفض واقفًا مقاطعًا كلامها:

"أنتِ أخطأت العنوان! ثم إني لم أقرأ قصصًا مليئة بهذا الكلام الفارغ!"

جاء الدور على الكيان الوردي الباهت لأن يستغرب، ويفقد جزءًا كبيرًا من رقة صوته ولطافته، ليقف بدوره ويقول:

"ألست أنت الأستاذ الملقب بـ 'جاو'؟"

"طبعًا لقبي 'جاو'، وأخوتي كلهم بل عائلتنا كلها تحمل هذا اللقب عن جدنا الأكبر 'جاو'".

"أليست هذه هي الشقة رقم 7، المدخل 3، في البناية رقم 19؟"

"بالضبط هكذا، الشقة السابعة بالمدخل الثالث، في البناية التاسعة عشرة، عند الشارع الغربي"

"ألم تكتب لي رسالة تقول فيها إنك استلمت القصة التي بعثت بها إليك، والمرفق بها صورة فوتوغرافية لي، وقلت إنها أعجبتك جدًّا، وفوق هذا فقد أرفقت خطابك لي بورقة مكتوبة بالانكليزية؟" ودست الكتلة الوردية الغائمة يدها في تلك المساحة البيضاء عند منتصف جسدها تقريبًا، فأخرجت ما يشبه قصاصة ورقية ناولتها للمعلم جاو، قالت: "انظر هنا جيدًا، أليس هذا خطك الذي كتبته بيدك لي؟"

أخذ القصاصة منها بيد مرتعشة. ولم يكن في حاجة لقراءتها بالمرة، وأسرع يقول لها: "هذا الكلام لم يحدث على الإطلاق! كيف يكون هذا قد صدر عني؟ مستحيل، أقول لك، مستحيل!"

"ألست الأستاذ جاو رئيس تحرير 'مجلة الأدب'؟" بدا أن الكيان الغائم الوردي قد استطاع- بدرجةٍ ما- أن يلتقط طرف خيط من الفهم، وقد احتفظ صوته بحد أدنى من الرقة والنعومة.

"ما شأني ورئيس التحرير الذي تتحدثين عنه، فأنا مدرس، ولا علاقة لي بالصحافة". قالها بنبرة احتجاج، كأن رئاسة تحرير مجلة عمل مشين بطبيعته.

"ما دام الأمر هكذا، فمن المؤكد أني أخطأت العنوان حقًّا، وربما كان يجب عليّ أن أسلك شارع 'لودونغ' [الشارع الشرقي]" هكذا تساءلت الكتلة

الوردية الغائمة.

"لا أعرف!" كان المعلم جاو قد بلغ به السخط مداه.

العجيب، أنها- بعد سماع كلامه- انطلقت ضاحكة بصوت عال، وقد استعادت كثيرًا جدًّا من أصالة الصوت الناعم اللطيف.

"واضحٌ طبعًا أن الحكاية كلها عبارة عن سوء تفاهم حصل بيننا". قالت ذلك، بينما كانت تتجه إلى الباب، وبيدها تلك المساحة من الشيء الأبيض الناصع. ومع انسحاب اللسان المعدني بصوت مسموع، انفتح الباب.

"خذي الورقة!" صاح بها المعلم جاو، وهو يمسك القصاصة الورقية بطرف اصبعه، كأنه التقط جمرة من النار تكاد تحرق يده، فسعى إلى التخلص منها بأية طريقة.

"احتفظ بها للذكرى، يا عم الشيخ جاو!" وعلى غير توقع منه، واصل الصوت اللطيف كلامه قائلًا: "لا عليك، احتفظ بالورقة، فما تزال معي نسخة أخرى... في حقيبتي".

انغلق الباب جيدًا، وتبددت الكتلة الضبابية ذات المسحة الوردية.

بعدها، كان المعلم يهرول مبهور الأنفاس إلى المدرسة، فيسرع إلى معلمة اللغة الإنجليزية "لي هويليان"، ويسلمها الورقة إياها.

هذه هي حكاية المعلم من أولها إلى آخرها؛ أو قُل إنها "وجهة نظره"، كما رواها بنفسه.

والحكاية- مع ذلك- كانت موضع شك عند البعض، والسبب له وجاهته، باعتبار أنه: إذا صحَّ أن الورقة لم تكن مكتوبة إلى المعلم جاو، فلم يكن مفهومًا أبدًا أن تتركها الفتاة معه وتذهب من دونها؛ فليس من المنطقي على الإطلاق أن تترك الورقة بيده، وتمضي بكل بساطة إلى حال سبيلها.

"لكن ما ذنبي أنها تركتها معي ومشت، ما الذي كان بيدي أن أفعله يعني!" حاول المعلم أن يبرئ ساحته، لكنه لم يفلح في أن يأتي بحجة واضحة ومقنعة.

أحس المتشككون أنه ربما يكون قد أخفى بعض "التفاصيل المهمة"، لكنه- من ناحيته- أحس أنه تعرض لتشنيع شديد وافتراء جائر، بلا أي مبرر.

ورغم كل هذا، ففي رأيي الشخصي، وأيًا ما كانت الحكايات أو وجهات النظر أو الملابسات التي أحاطت بالوقائع، فما كان ينبغي للمعلم أن يسعى بالورقة إلى الناس لكي يترجموها له. ولعل الدرس المفيد في الموضوع كله يتلخص في أنه: لو عثر المرء على ورقة مكتوبة، بأية لغة كانت على وجه الأرض، حتى لو كانت اليونانية القديمة، فلا يصح أن يحملها ويدور بها على كل من هبّ ودبّ ليقرأها له.

الواقعة الثانية

صَدَق من قال إن المصائب يوم تترصد أحدًا لا تدعه في حاله، وتظل

تتوالى عليه واحدةً وراء الأخرى حتى تكاد تطيح بعقله؛ ذلك أن المعلم جاو لم يكد يخرج من ورطته الأولى- دون أن يجد سببًا منطقيًا يبرئ ساحته- حتى وقع في نكبة أشد. وذلك يوم أن وصلت إلى المدرسة شكوى ضد المعلم، صادرة عن إحدى ساكنات العقار المجاور، وتقول فيها إن شرفة شقتها تطل على شرفة سيادته، من مسافة ليست بعيدة تمامًا. وقالت- في شكواها- إنها "فتاة في ريعان شبابها، ذات سمعة طيبة"، وإنها تتهم "رجلًا، المفترض فيه أنه مدرس محترم مسئول عن تربية النشء في المرحلة الثانوية، وهو المدعو 'جاو لاو فو'؛ بيد أن ما ظهر من سلوكه ينم عن قصد مبيت في انتهاك الأعراف الاجتماعية القويمة!" ذلك أنها لاحظت، وفي أكثر من مناسبة، وكلما اضطرتها الحاجة للذهاب إلى الشرفة، أن ذلك المدعو... يبرز أمامها على الفور، في اجتراء صفيق، عند شرفته المقابلة، وكأنه يترصّدها بشكل غير عادي؛ إذ سرعان ما يظهر أمامها مثل "الغراب الجائع"، ثم ينثني بجذعه فوق الحاجز الحديدي للشرفة، وهو يغمز لها بعينين منتفختين أشبه ما تكونان بـ"برميلين متكورين!" مثبتًا نظراته الوقحة على "وجهها وقوامها الرشيق". وفوق ذلك، فقد كان يتعمد أن يتلفظ بكلمات ذات مدلول غير مهذب، بأسلوب رقيع، حتى أن الفتاة أصيبت- من جراء ذلك- بالإغماء عدة مرات... لولا أن شعر بها أخوها فأسرع إلى إنقاذها، وأعاد إليها الوعي، بفضل الإسعافات الأولية، إلخ، إلخ.

ربما كان "التكتم" هو العبء الأكبر الذي لم يكن في مقدور المدرسة الثانوية احتماله. فقد ذاع الخبر بين المدرسين... "ذاع" حقًا، كأنه صدر عن

نشرة إخبارية بالراديو، أنصت لها الجميع بآذان مصغية. وصارت هذه الواقعة جنبًا إلى جنب سابقتها تشكلان معًا سندًا قويًا لتفنيد أية حجج من جانب المعلم؛ بل إنها وضعت أنصاره والمدافعين عنه في موقف حرج جدًا. ومع ذلك، فلم ييأسوا في استجلاء الحقائق، حتى خرج أحدهم باكتشاف مذهل، حينما ظل يروح ويستقصي ويسأل هنا وهناك، إلى أن عرف ما أسفرت عنه نتيجة التحقيقات من أن تلك الفتاة- "ذات السمعة الطيبة والصبا والعمر، إلخ"- عبارة عن شابة على درجة من الجمال، في الثامنة والعشرين من عمرها وقد اعتادت اتهام الجيران وتقديم الشكاوى بحقهم، حيث صوَّرت لها هواجسها أن حسنها الفتّان يثير إعجاب كل الذكور من حولها، ويدفعهم لملاحقتها بكل وسيلة؛ فيظل الواحد منهم يحملق في وجهها، كلما وقعت عينه عليها، وتعددت اتهاماتها للجميع، دون تفرقة، وأرسلت للكل تقريبًا نفس الشكوى إلى محال أعمالهم، بطريقة ملفتة أفضت إلى استخلاص حقيقة شبه مؤكدة بأنها تستمد من اتهامها للجميع لونًا من المتعة والتسلي وتزجية وقت فراغ! ألم يقل القائل- الذي عرك الحياة والناس- إنه لو كانت أجسام الفتيات مزودة بقصبات صيد ذات شصوص مسلطة على المارة في الشوارع، لكان أكثر صيدها عيون الرجال؛ فهذا دليل لا يقبل الجدل على ما للجمال والفتنة من تأثير مشهود! وبالتالي، فالشابة ابنة الثامنة والعشرين تيقنت- مثل كل بنات جنسها- من أن صنارتها الأنثوية الصيادة قادرة، في كل وقت، على اجتذاب عين أي رجل، وتعليقها مشرعة بالبلاهة والاستمتاع بكل تلك العيون، وهي والهة مدلاة فوق شجرتها الغضة الواعدة بالقطاف.

والمتمعّن في قراءة شكوى الفتاة يلحظ نبرة سخط عارمة في عموم المعنى؛ ليس فقط لأنها اكتشفت بأن صنارتها تصيدت، هذه المرة، عينين منتفختين كبرميل مخللات، وإنما أيضًا لأن العينين كانتا مصابتين بضعف حاد في النظر، وهو ما لَم يكن لَيغتفر من جانب أنثى ذات صنارة لاقطة؛ فمن ثم امتلأت شكواها بتلميحات هدفها السخرية منه، بتعرية أستاره على نحو فاضح، مما لاقى آذانًا مصغية وسط زملائه في المدرسة. وقد كشفت الأحداث اللاحقة أن الفتاة نفسها كانت تتعمد إثارة اللغط وتلفيق الوقائع، بحيث تلقى شيوعًا كبيرًا بين جمهرة المدرسين، كأنها شعرت أن اقتصار الشكوى على التنديد العابر بسلوك غير لائق لا يكفي ثأرًا لأنوثتها/ صنارتها المحبطة. وعلى هذا، فقد صاغت الكلمات بحيث تبدو كأنها رسالة موجهة إلى هيئة التدريس والموظفين والعمال كي... "يفطنوا إلى حقيقة زميلهم المعلم جاو، وألاعيبه المشينة في الشرفة، وكيف كان يقف هناك ويمط عنقه مثل غراب أسود، إلخ". وهو ما سيتناثر في ثنايا القيل والقال، ويعم الدنيا بأسرها. لكن الفتاة، لحسن الحظ، لم تتناول في شكواها ما هو أكثر من ذلك، وإلا لكانت سمعة المعلم قد تهاوت فعلًا إلى الحضيض.

والحكاية أنه بعد واقعة الشكوى بعدة أيام، وذات ظهيرة، راح المعلم جاو- الذي لم يكن أحد قد أبلغه حتى ذاك الوقت بأمر الشكوى- راح يتلمس طريقه إلى الدور الرابع بالبناية رقم 18 المجاورة، وتجرأ فدق باب تلك الشابة، في موقف شبيه بما حدث مع فتاة الكتلة الوردية الغائمة، التي دقت عليه بابه ذات مرة. وبالفعل، كانت الفتاة نفسها "ذات الشباب الربيعي

والسعة الطيبة" هي التي جاءت وفتحت الباب، وتمامًا، مثلما كان الحال مع
الكتلة الوردية، فما إن رأته من خلال الشق الموارب حتى صرخت فزعًا،
لكن الصوت- هذه المرة- لم يكن رقيقًا لطيفا ناعمًا، بل كان هيستيريًا
صارخًا بأعلى ما في طاقته، انطلق مع انغلاق الباب في وجهه بكل قوة
"بنغغغ". بعدها لم يُعرف إن كان قد أغمي عليها أم لا، ولم يعرف ما إذا كان
أخوها سيحاول إفاقتها أم لا. لكنه- رغم الباب المغلق بهذه الطريقة
الهيستيرية- لم يتخاذل عما في نيته، بل أخرج من جيبه الخطاب الذي كان
قد أعده جيدًا، فأدخله من تحت الباب، واعتدل واقفًا، وقد أحس كأنه
أراح ضميره ونفض عن نفسه الهموم التي شغلت باله. وراح- من بعدها-
يترقب ما سيسفر عنه إرساله الخطاب، إما بخبر وإما بنتيجة أو رد فعل ما.
وأصبح يُطل يوميًا من الشرفة، ويتطلع تجاه الشقة المقابلة، دون أن يجد
للفتاة أي أثر هناك. ومع ذلك، فلم يمل من تكرار المحاولة، حتى لفت إليه
نظر أحد مدرسي مادة الأحياء من زملائه، وكان يقيم في نفس البناية
وأسرع الرجل ليبلغ الجهات المسئولة في عمله بما رآه، عسى أن يجدوا حلًا
للموضوع، دون ضجة! وتصادف- في الوقت نفسه- أن موظف مكتب
البريد التابع للمدرسة، ويدعى العم "تسنغ"، قد تكلم في حضور عدد من
أعضاء هيئة التدريس قائلًا إنه أصبح يستغرب جدًّا أن يزوره المعلم جاو
يوميًّا، ليسأله إن كانت هناك هناك خطابات واردة باسمه، خصوصًا أنه لم
يكن يهتم قبل ذلك بهذه المسألة. وبالطبع، فإن إضافة هذه الحكاية إلى جملة
الأقاويل الذائعة في المدرسة تصبح أشبه ما تكون بإضافة جناحي الصقر إلى
بدن عصفور الثرثرات الهامسة. والنتيجة هي الطيران والتحليق، بقوة

واقتدار. وكلما زاد الكلام، اتسع نطاق الطيران في كل ناحية، حتى أصبح الكلام على كل لسان، هنا وهناك، مما فرض على إدارة المدرسة أن تجري تحقيقًا مع المعلم جاو. ثم قرر السيد المدير أن يذهب أولًا بنفسه، ويتكلم في هذا الأمر مع المعلم.

ومدير المدرسة زميل المعلم منذ زمان بعيد، وهو خريج نفس دفعته، حيث كانا يدرسان معًا في نفس المعهد؛ لذلك، فقد كانت بينهما لغة وروح وود مشترك، بشكل يضمن استجلاء الحقائق بصراحة تامة. ولو أن مثل هذا الموقف كان يتطلب الحرص والحذر عند تناول النقاط المثيرة للحساسية. ومن هنا، فقد تعمد سيادة المدير- أثناء زيارته للمعلم- أن يفتعل سببًا للخروج إلى الشرفة. ومن هناك، راح يستطلع المكان جيدًا، والأجواء من حوله، وهو يقول لزميله القديم: "آآ، الشرفة هذه رائعة فعلًا!" وراح يتأمل الشفق المطلة على المكان، واستطرد متسائلًا: "قل لي، هل تستمتع حقًّا بشرفة جميلة، مثل هذه؟ هل تجيء وتقف هنا دائمًا، يا لَك من محظوظ!"

"طبعًا، وتندهش لو قلت لك إنني أقضي هنا وقتًا طويلًا في العادة".

"لا، ليس هناك مجال للدهشة، خصوصًا أن جيرانك جاؤوا وأبلغوني بوقوفك هنا... والأصوات الغريبة التي تطلقها من وقت لآخر". قالها المدير بطريقة توحي بالدعابة، بينما كان يراقب انفعالاته بحرص.

"جيران ماذا؟ وأصوات ماذا؟ يا رجل، أنت تعرف أنني- منذ إصابتي بالمرض الأخير- وأنا أسعل كثيرًا"؛ أجابه المعلم متجهمًا.

"يا سيدي، من حقك أن تسعل كيف تشاء، لكن لماذا تصر على أن تحدق طويلًا في شرفة الجيران؟ أيها الثعلب العجوز؟" قالها على نفس وتيرة الدعابة التي بدأ بها.

"ماذا تقصد؟" سأله المعلم مستفسرًا، وقد استوقفته في كلماته تلميحات غير مريحة.

"اسمع، يا جاو، فمعي ورقة مهمة جدًا لا بد أن تقرأها بنفسك". وقرر المدير أن يفاتحه في الموضوع بلا مواربة. ثم ربت على كتفه قائلًا: "لكن، أرجوك أن تتمالك أعصابك. وتوضح لي بكل هدوء ما الحكاية، بالضبط؟"

عادا إلى الغرفة المطلة على الشرفة، حيث كان يمكنهما رؤية الشقة المقابلة. وأخذ المعلم جاو يقرأ الشكوى، بينما كان المدير يراقب ملامحه جيدًا. فلما انتهى من قراءتها، تلوّن وجهه من الانفعال بشتى الألوان، وسكت حينًا، ثم قال:

"كنت طوال الوقت أتطلع إلى زهرية الورد في شرفتهم، بالذات تلك الزهرية الموجودة في منتصف الصف، فهي أجمل واحدة بين الجميع؛ وبسبب ضعف بصري، فلم أتبين بوضوح نوع الورد الذي فيها، هل هي "زهور الميجوي" أم هي الـ"يوتشي"؟ وظللت أتطلع إليها طويلًا، محاولًا التعرف على نوعها. وقلت لنفسي إنني لو عرفت النوع، فسيمكنني أن أذهب وأشتريه. وكنت قد قررت أن أشتري لشرفتي أيضًا عدة زهريات مثل هذه، على أن تكون كلها من نفس النوع. وقلت إنها فرصة لتجميل الشرفة على كل حال،

لكني- طوال الوقت- لم ألحظ إن كانت هناك فتاة أو غير فتاة. فما شأني بذلك؟ ولك أن تذهب إليهم وتستقصي حقيقة كلامي، لو أحببت؛ بل إنني أرسلت إليهم خطابًا أسألهم فيه عن عنوان محل الورود الذي اشتروا منه الزهريات. وكنت قد قررت الذهاب إلى شقتهم لأسألهم بنفسي عن العنوان، ثم قلت لنفسي إنه من باب الاحتياط يُستحسن أن أكتب ورقة بهذا المعنى، وأضعها تحت الباب، إذا لم يكن سكان الشقة موجودين. تلك هي المسألة كلها. وأنا حقًّا لا أفهم لماذا تلاحقني المتاعب أينما ذهبت! لماذا تتشبث بعنقي كل تلك المضايقات، كأني موعود بالفضائح!

أوصاه المدير بأن يهدأ، ولا يدع الأمر يعكر مزاجه أكثر من هذا، ووعده بأن يوضح المسألة للمدرسين، على أمل أن يبدد ما لحق بسمعته من تشنيع. ولو أن واقع الحال كان يشهد دائمًا بأن الشائعات أبقى عمرًا من كل محاولات تبديدها، أو استجلاء حقائقها؛ فلهذا ظل كثيرون حتى اليوم يعيدون ويزيدون في حكاية ألاعيب المعلم جاو في الشرفة، واستراقه النظر على فتيات الجيران.

ثم إنني انتهيت من كل ذلك إلى خلاصة أخيرة، مفادها أنه بالنسبة لمن يعانون قصر النظر (وخصوصًا في حالاته الحادة!)، فلا داعي أبدًا لأن يرغموا أنفسهم على التدقيق في ملاحظة الأشياء البعيدة؛ حتى لو قيل لهم إن الديوك التي على مرمى البصر تضع بيضًا في عز النهار. فليتجاهلوا تلك العجيبة وليدعوا الأمر يمر مرّ الكرام.

[تمت]

أتحدث إليكم من صالون الحلاقة

وسط الخضرة اليانعة، قريبًا من مزرعة فريق الإنتاج، كان دكان الحلاقة يفتح أبوابه في ذلك النهار. وفي الحال، جاء أحد الزبائن: كهل ذو شعر أشيب ووجه متجهّم، دخل المحل دون أن يلقي بالتحية على الأسطى "تشوانغ"، الذي كان قد فتح للتو مصراع الباب الكبير... دلف إلى الداخل، وجلس من فوره على كرسي الحلاقة.

"منظره يوحي بأنه مختل عقليًّا"؛ فكر الأسطى تشوانغ، وهو يتطلع إليه ويرفع نحوه ذقنه المدببة، بينما انهمك في كنس أرضية المدخل. وكان- منذ قليل- قد أشعل الموقد داخل المحل، حتى سرى الدفء في أنحاء المكان، مع قليل من أطياف الدخان المتصاعد.

الدكان عبارة عن غرفة صغيرة مستطيلة مسقوفة بالطين، وعلى جدرانها أثر دهان جيري قديم، وقريبًا من السقف كانت هناك كوة ذات حاجز

زجاجي يسمح بنفاذ كمية معقولة من الضوء عبر شفافيته الرائقة. وأمام المرآة الكبيرة، تجاورت مقاعد ثلاثة للحلاقة. والمصففون الثلاثة الذين يحلقون للزبائن هنا من أعمار مختلفة، أكبرهم سنًّا هو والد الأسطى "تشوانغ"، وتجده- طوال النهار- مرتديًا بنطلونه الكاكي ذا الحِجر الكبير الفضفاض، مثل (الأوفرول)، والناس تناديه بـ"العم تشوانغ الكبير"؛ أما الثاني، فيصغره سنًّا بكثير، فهو شاب في الرابعة والعشرين، ويدعى "آمبيه"، ولو أنهم ينادونه أحيانًا، على سبيل المزاح، بـ "كيتزي" [أبو قشرة]. وساعة أن أطل الزبون القادم بوجهه المتجهِّم هذا، لم يكن كل من أبي قشرة والأسطى الوالد قد وصلا بعد. وحتى لو كان هذا الأخير قد وصل، لبقي في الخارج حتى ينتهي الاثنان الأصغر سنًّا من كنس الأرضية، ورش الماء، وإعداد أدوات الشغل، وتوضيب كل شيء. وعندئذٍ فقط، يدخل المحل متمهلًا بخطى وئيدة، بينما يفرغ الآخران مما في أيديهما من مهمات البدء في العمل. والاتفاق بينهم أخذ مجراه على أن الأسطى الثالث- الذي سيكون عليه الدور في المناوبة المسائية- هو فقط مَن مِن حقه أن يصل متأخرًا في النهار. وبشكل عام، فقد كان هذا الثالث دائمًا "آمبيه"، باعتبار أنه الوحيد الذي يمكنه أن يركب دراجته السريعة- ماركة فنهوانغ [العنقاء] - ويصل في وقت قياسي. وبالتالي، فلم يكن مطلوبًا منه التبكير بالحضور كزميليه! ومع أن بيته لم يكن يبعد عن المحل بأكثر من رُبع الكيلومتر، فقد كان مُصرًّا على قطع المسافة بالدراجة ذهابًا وإيابًا، حتى زجرته أمه غير مرة: "لم يعد ينقص إلا أن تدخل إلى المرحاض بالدراجة، وظني أنك ستوفر المرحاض، وتبول وأنت قاعد على دراجتك التعيسة هذه؛ ابق هكذا إلى أن تفعلها مكانك، ويراك

الناس ويعيروني بك!"

تقع المنطقة عند أطراف ضاحية بعيدة، ومعظم زبائن المحل من أبناء الكومونات المحلية، التي هي المزارع الجماعية، بالإضافة إلى عدد محدود من عمال المصانع القريبة. وكانوا يتوزعون على الحلاقين الثلاثة حسب فئات محددة؛ فمثلًا المزارعون من كبار السن، الذين كانوا يحلقون رؤوسهم تمامًا حتى تلمع مثل حد الموسى، كانوا يجلسون إلى الكرسي الأيسر هذا، حيث يقعون ضمن اختصاص العم تشوانغ الكبير؛ أما شباب العاملين في المصانع والمناجم القريبة وبعض المزارعين الشبان، فقد كانوا يحبون أن يقصوا شعرهم عند "تشوانغ الابن"، ببراعته المشهودة في تلك النواحي، بل في دائرة ممتدة يبلغ قطرها عشرات الكيلومترات؛ فكم قصده شبانٌ من أماكن نائية لتصفيف شعورهم وتجفيفها بـ"السيشوار" على يده الخبيرة الماهرة في الصنعة، حيث يجلسون إلى الكرسي الأوسط، كما اعتادوا دائمًا. وبالنسبة للآخر الأيمن، الذي قعد عليه الآن زائرنا الأشيب الكهل في مطلع نهارنا هذا، فهو محل اختصاص "أبي قشرة"... الملقب بـ آمييه، وهو لقبه الأكثر شهرة في هذه الناحية. والسبب في ذيوع اللقب على هذا النحو جاء من أنه كلما ضحك بصوت مسموع، خرج صوته بنغمة قريبة من مأمأة الماعز، فنال شهرته بهذه التسمية من هامش القرابة الصوتية مع قطيع التيوس الجبلية، في حدها الأدنى من الخشونة. والحاصل أن اللقب من كثرة شيوعه طغى على اسمه الحقيقي الذي لم يكن معروفًا إلا لعدد قليل من أقاربه. ومع خفة دمه، وضحكاته العنزية المجلجلة، فقد كان ابن أصل كريم، وطيبة قلب

مشهودة فتحت له ينابيع القبول في نفوس أكثر زبائن الدكان. لكن طريقته المتسرعة في العمل، وتواضع مهارته الفنية، وعدم اكتراثه بالتدقيق المطلوب في بعض جوانب الصنعة، خصم من رصيد زبائنه، ولم يحتفظ له بنسبة محددة منهم؛ وهي النسبة التي بقيت- بعد الكتلة الرئيسية- من زبائن المصفّف الكهل وابنه. فزبائن آمييه كانوا من بين تلك الفئة التي لا تهتم من الحلاقة سوى بقص الشعر فقط. يأتي الواحد منهم وهو في عجلة من أمره، فيجلس سريعًا على الكرسي الأيمن، الذي كان يبقى فارغًا معظم الوقت، ويبقى آمييه هو الآخر خلي البال طيلة معظم الأوقات.

انتهى تشوانغ الابن من كنس أرضية المحل بالداخل والواجهة، ومن بعيد كان أبوه قادمًا ببنطلونه ذي الحِجر الفضفاض، يباعد ما بين ساقيه بخطى وئيدة. ومن بعيد، جاء آمييه راكبًا دراجته الـ فنهوانغ، وهو يضغط على زر الجرس الرنان. والكهل ذو الوجه المتجهم، في تلك الأثناء، يجلس إلى المقعد وهو يدخن سيجارته اليدوية، أي السيجارة المصنوعة من العشب الطبيعي، التي يلفها المدخن القروي بيديه إلى أن تصبح سيجارة وسطًا بين السيجار الغليظ والحجم المتوسط للفائف الدخان. كان جالسًا مكانه دون أن يلتفت، أو يعبأ بالنظر إلى أي إنسان، كأنه قاعد في غرفة خالية ومغلقة عليه وحده.

"تفضل، تعال هنا أيها العم، انتقل إلى هذا المقعد لكي أحلق لك هنا". كان تشوانغ الوالد يرفع قطعة مربعة من القماش الأبيض، وينفضها جيدًا، وهو يقف وراء الكرسي ذي المسند العالي خلف الرأس، ويوجه كلامه إلى الكهل

الجالس على الكرسي الأيمن، ويرفع صوته عاليًا على الرغم منه؛ ربما لأنه كان ثقيل السمع بدرجة كبيرة.

وهو لم يكن يعرف أن هذا العم القاعد في دكانه أثقل منه سمعًا هو الآخر، وبالتالي فقد بقي على جلسته بغير حراك، لا يكترث لشيء سوى تدخين السيجارة العشبية، وبين حين وآخر يلمح صورته في المرآة المقابلة، فينطلع إليها برهة كأنه يستغرب ملامحه، ثم يبدو عليه التبرم قليلًا وهو يشيح بعينيه.

"وكأنه ينقصنا أطرش مثلك!" فكر في نفسه تشوانغ الصغير، وهو يقترب من الزبون ويربت على كتفه خفيفًا، فيميل على رأسه ويزعق في أذنه:

"تفضل على الكرسي الآخر... تفضل هناك لكي نحلق لك!"

اضطرب الكهل قليلًا، وقال له: "ما لك تصرخ في أذني هكذا؟ هل قال لك أحد إنني لا أسمع؟" فتح عينيه على اتساعهما دهشة، وصوته القوي ينفي عنه البكم والصمم.

في هذه اللحظة، أقبل آمييه مرتديًا قميصًا زاهي الألوان وبنطلونًا من البوليستر الكاكي، حسب الموضة الشبابية الرائجة هذه الأيام، ووجهه مشرق بالسعادة على غير المعتاد. دخل ووقف وراء الكرسي القاعد عليه العم الكبير، وبادره قائلًا:

"هيا أيها العم الفاضل، تفضل إلى هذه الناحية، فهذا مقعدي".

كلام طبيعي، لا شيء فيه، وقد قاله بنبرة هادئة وطبيعية جدًّا، من دون أية عصبية، خصوصًا في هذا النهار، حيث كان قلبه يرقص فرحًا للأمر الذي انطوت عليه جوانحه.

لكن العم التفت إليه بنظرات محتقنة للغاية، وقال له: "ماذا تقصد أنه مقعدك؟ هل اشتريته يعني؟ هل ممنوع عليّ أن أجلس هنا؟ طيب، لعلمك... أنا لن أقوم من مكاني!" انتهى من كلامه، وهو يفتح عينيه على اتساعهما، ثم أشاح بوجهه إلى الناحية الأخرى.

"لا، هذا أكيد مختل عقليًا"؛ قالها في نفسه تشوانغ الصغير بيقين لا يقبل الشك هذه المرة. لكن لسانه الناطق قال لـ آمييه بنغمة فيها قدر من المزاح: "لا عليك، يا آمييه، الرجل جاء إلى هنا قاصدًا أن تحلق له أنت بالذات".

راح آمييه يخلع بنطلونه الكاكي البوليستر، وهو يقول بمرح: "المهم يا جماعة.. أنني في هذا النهار أشعر أني أسعد إنسان على وجه الأرض، ويبدو أن الحظ سيلعب لعبته معي؛ فأنا على موعد مع زائر قادم من أجلي! إن الحظ السعيد أهداني العروس التي أريدها، والمشتري الذي كنت أبحث عنه". كان وهو في غمرة السعادة قد كشف عن الأمر الذي ابتهج به قلبه.

جاء عدد من الزبائن إلى المحل في تلك اللحظة، وسمعوه وهو يفضي بأسباب فرحه، وتوزعوا على الكراسي الخشبية الصغيرة، وهم يضحكون.

"أصحيح أنك وجدت عروسك التي تحلم بها؟" سأله أحدهم، والناس هنا يعرفون بعضهم بعضًا تمام المعرفة.

"أتصدقون يا جماعة... آمييه وجد عروسًا، للمرة الثانية!" لم يتمالك تشوانغ الصغير أن يعلق على الكلام بهذه الطريقة، وهو يضغط بشدة على كلمتي: "للمرة الثانية"!

والزبون الكهل لم تنفرج قسماته بأية علامة على التجاوب المرح، بل أخذ يحدق في آمييه بنظرات ساخطة، ثم قال له: "إياك أن تظن أني جئت إلى هنا لكي تحلق لي أنت بالذات، أبدًا، بل وجدت الكرسي فارغًا فجلست، ثم إنني رجل عجوز بشعر أشيب، يعني لا أريد تصفيفًا على الموضة، ولا دهانًا للشعر ولا تلميعًا. ثم ماذا أفعل بشعر لامع؟ هل تظن أني من النوع الذي يجري وراء الفتيات الصغيرات ويخدعهن؟ هل أبدو لك من النوع الذي يعاكس هذه ويغمز لتلك، ويظل يلهث طول النهار وراءهن، ولا يعجبه أحد؟"

لم يتوقع الجميع أن ينطق هذا الشيخ المقطّب الوجه بهذه التلميحات الظريفة؛ فلم يكد الحاضرون يسمعونه يتكلم هكذا حتى أغرقوا في الضحك، باستثناء العجوز نفسه والأسطى تشوانغ ثقيل السمع.

لم يفطن الشاب آمييه إلى أن كلمات الرجل كانت تومئ إليه هو بالذات، ومن هنا فلم يُبد أي انفعال سلبي؛ بل- على العكس- أعجبه كلام الرجل، ووجده خفيف الظل بعض الشيء؛ فأقبل بمرح على زبونه، وفرد المنشفة البيضاء حول عنقه، وقال له: "أنت اليوم زبون جديد عندنا، وأظنك لا تعرف نظام الحلاقة هنا... فنحن نحب المرح والقفشات والنكات من وقت لآخر". هنالك، انبسطت أسارير العم، وأومأ إلى آمييه برأسه علامة الرضا.

وواصل الشاب الفَكِه كلامه قائلًا: "بالمناسبة، لا بد أن تعرف أن مستواي في الحلاقة ليس جيدًا تمامًا. ومع ذلك، فلك أن تطمئن. فأنا- برغم كل شيء- لم أسلخ فروة رأس أي زبون وقع تحت يدي حتى الآن، فأنت وحظك معي!"

تعالت الضحكات مجلجلة.

انعقد الحاجبان الكثيفان بلونهما المشبع بالبياض، وبدا أن العم لم يسترح إلى التلميح الظريف في دعابة سلخ فروة الرأس، وخصوصًا عندما يتعلق الأمر بفروة رأسه هو نفسه؛ فأخذ يتطلع بعمق إلى آمبيه في المرآة الكبيرة، متفحصًا ملامحه بدقة متناهية، وبطريقة ملفتة للغاية، لدرجة أن الولد ظن أن وجهه ربما يكون ملوثًا بالأقذار أو ما شابه، فأسرع يتطلع في المرآة، ولم يجد أي شيء غير عادي... ليس سوى الشعر الأسود المصفف والمفروق بعناية، وقد انسابت بعض ذؤاباته فوق جبين فضي ووجه أبيض ناصع البياض، وعينين لامعتين بكثير من نزق وخفة و"شقاوة" الشباب الدافقة؛ نفس العينين اللامعتين اللتين تطلعتا بالأمس إلى فتاة حلوة (لا يعرف اسمها بالضبط!) التقاها بمحض المصادفة، وبدا أنها شغفت به، وبدا أيضا أن أمها هي الأخرى سعدت به زوجًا (محتملًا) لابنتها. لكنه عندما تطلع إلى الأم (الحماة، بحكم المتوقع) اجتهد كثيرًا في أن يصفّي نظراته من آثار النزق الشبابي العالق بهما؛ فاعتدل برأسه في صرامة، لدرجة أن رقبته تصلبت بعض الشيء، وحاول أن يجعل ملامحه جادة بقدر الإمكان... ملامح شاب ريفي مخلص، يقطر شهامة ووفاء وكرم أخلاق. فتلك هي الصورة

المثالية المطلوب توافرها في الأصهار، حسب مواصفات الحموات الريفيات، في أيامنا هذه. لذلك، بقيت ملامح آمييه متحجرة لفترة طويلة بعدها. حتى بعد أن عاد إلى منزله، كانت رقبته متصلبة، واستمرت توجعه من أثر التخشب الذي طال أمده أثناء اللقاء.

ظل العم يثبت نظرته الغريبة عليه؛ فكّر إن كان قد التقى بهذا الرجل قبل الآن؟ ثم تذكر فجأةً أنه فعلا تقابل معه، لكن أين بالضبط؟ نعم، سبق أن رآه قبل الآن فعلًا! لم يطل الوقت بآمييه حتى استعاد تفاصيل كثيرة مما جرى: أليس هذا هو الصياد الذي قابله عند مزرعة شيسان؟ بلى، هو بعينه! كان يمشي وقتئذٍ وقد تدلت من وسطه سلة من البامبو، وبيده صنارة طويلة رُبطت فيها شبكة مربعة مصنوعة من ستائر البلاستيك، المستخدمة أساسًا في تغطية النوافذ، متجهًا إلى شطآن الأنهار والجداول، ليصطاد ذلك النوع من السمك الصغير المستخدم لإطعام القطط؛ فيطهو لنفسه في البيت بعضًا منه، ويبيع البعض الآخر في سوق القرية... نعم، بالضبط! صار آمييه يتذكره الآن جيدًا، بل تذكر أنه ذات مرة تشاجر مع هذا العم نفسه. كان الرجل يصطاد عند حافة الجدول أمام بيت آمييه مباشرة، وكان أن ذهب إليه وطلب منه بضع سمكات (لأجل القطط التي في البيت)، بيد أن نبرة الطلب بدت كأنها نوع من الجباية. وإذ ألح آمييه في طلبه المبطَّن في طياته بشيء من التهديد، فقد استثار العم ودب الشجار بينهما. ويبدو أن العجوز كان قد تذكر كل ذلك؛ فراح يحدِّق فيه بعينٍ متبرمة ساخطة. وبالطبع، فاستدعاء الواقعة من الذاكرة لم يكن شيئًا سارًّا بالمرة. ومشكلة آمييه أن فقدانه طاقة

الشعور بالبهجة في قلبه كان يستعد في طاقة الغضب في يديه مباشرة، فأكب على رأسه، قبض عليها بيدين قويتين، ثم أمالها ليغطسها في الحوض المليء بالماء فيما فوق المنتصف تقريبًا.

وإذا بالكهل أشد من الشاب قوة!

"ما لك تدفع برأسي هكذا؟!" رفع رأسه معاندًا، وقد امتلأ وجهه بالماء الذي سال على جانبيه، وزعق في آمبيه: "ما لك يابني؟ أأنت جزار؟ هل تحلق أم تذبح خنازير؟"

"الحلاقة هكذا، مادمت تريد حلق الرأس بالموسى، فلابد في الأول من أن يتبلل شعرك بالماء جيدًا!" رد عليه آمبيه بلهجة هادئة، وهو يغالب الضحك، وهو يرى منظر العم على هذا النحو. فلما مال الرجل برأسه في الحوض ثانية، صب عليه الماء برفق هذه المرة، فيما كان يشيح قليلًا بوجهه ويقول لـ تشوانغ الصغير بصوت مسموع: "ياااه، ما رائحة السمك هذه؟ رائحة سمك من النوع الذي تطعم به القطط!" بلهجة سخرية واضحة.

أجابه تشوانغ مداعبًا:

"يبدو أنك أكلت بالأمس- عند 'أختك الكبرى'- وجبة سمك ضخمة، ضخمة لدرجة أنها لم تنهضم في بطنك إلى الآن". كان الأسطى مشغولًا في تلك اللحظة بالحلاقة لأحد زبائنه من عمال المحاجر. أما تعبير "الأخت الكبرى" فمعناه هنا، حسب استخدام البيئة المحلية في هذه المناطق، يشمل دلالة "الزوجة"، أو بمعنى أدق "الخطيبة"، وهي تسمية كانت في نظر آمبيه

سابقة بكثير لأوانها؛ لأن اللقاء تم بالأمس فقط عبر طرف ثالث قال له إنه يعرف ناسًا طيبين عندهم فتاة مناسبة للزواج، وشعر آمييه بأنه لا بأس- على كل حال- أن يعتبر نفسه قد خطبها منذ الأمس؛ فعساها ستصبح فعلًا 'أخته الكبرى'، أي زوجته، في مستأنف الأيام. فاللقاء بالأمس كان مبشرًا بالخير، على غير ما تصور، وليفرح من كل قلبه! ليفرح حتى يُغشى عليه من الفرحة، خاصة أن البنت، والحق يقال، كانت جميلة جمالًا فائق الوصف، أجمل من كل اللاتي عرفهن حتى الآن. وقد بقي معها طيلة نهار وشطرًا طويلًا من المساء، فلم يدر إلا والوقت قد مر سريعًا. ولما قام صباح اليوم، أحس بسعادة تغمر كيانه؛ سعادة بقيت معه طوال الليل وإلى الساعة، حتى أحب أن يحكي ويزيد ويقول كلامًا كثيرًا بأكثر مما قال طوال عمره. فقط، كان ينتظر من يتجاذب وإياه أطراف الحديث ليفتح معه هذا الموضوع. وهنالك فقد تصور أنه وجد الفرصة المواتية، فأشاح عن اللجاج مع العم الجالس أمامه، وراح يتكلم بكل هدوء قائلًا:

"في الحقيقة، أنا قعدت معهم طوال النهار، لكني لم آكل السمك"، رفع ماكينةالحلاقة استعدادًا للشغل وواصل كلامه، متهلل الأسارير، قائلًا: "وإنما أكلت وجبة 'هاباو' بالبيض". مصمص بشفتيه، كأنه ابتلع آخر قطعة من بيض 'الهاباو' منذ قليل.

"يعني، قل لنا كم بيضة أكلت آنذاك؟" سأله الزبون ذو الشعر الأشعث؛ وكان جالسًا على كرسي عند المدخل. ولمعرفته الوثيقة بـ آمييه، فلم يكن يترك فرصة في الحديث معه دون استثارة مبالغاته المعتادة، التي لم تكن

تنطلي بحال على زبائنه. فكلما بالغ واشتط به الخيال في رواية أحاديثه، أدرك المنصتون وَلَعَه بالإغراق في لعبة الإيهام بالواقع، لكنهم اعتادوها منه على كل حال!

"نعم، دعني أعدّها لك، يا سيدي". ترك رأس العم نصف حليق، وراح يعد على أصابعه، وهو يرفع رأسه محدقًا في الفراغ تنشيطًا للذاكرة، قائلًا كأنه يحادث نفسه: "يعني... انظر، أول ما دخلت عندهم، قعدت وتناولت أربع بيضات دفعة واحدة. وبعد ما تكلمنا وانهمكنا في الطعام، أكلت أربعًا، بالضبط هكذا، فعددهم حتى الآن ثمانية، أليس كذلك؛ ثم لما أخذت الأهبة للذهاب مددت يدي وتناولت أربعًا أخريات، قل إني إجمالًا أكلت اثنتي عشرة بيضة بالتمام"، قالها مزهوًا.

"لابد أنك بعد هذه الأكلة قد انتفخت مثل حُبلى في شهرها الأخير"، علّق قائلًا تشوانغ الابن، وهو منهمك في حلاقة رأس الزبون الذي تحت يده.

ثار العم غضبًا، وقد انشغل عنه آمييه، وزعق فيه قائلًا: "هل ستكمل لي الحلاقة أم لا؟ ما لي أنا إن كنت أكلت بيضًا أو أكلت [...] ولو ان منظرك يؤكد أنك لم ترَ البيض ولا رائحته!"

الكهل الملعون، صائد أسماك الترع والمصارف... مؤكد أنه ينتقم الآن، وقد وجد فرصة سانحة! قال آمييه في نفسه، وقد عزم على أن يرد له الصاع صاعًا ونصفًا:

"أقول لك شيئًا، وأرجو أن تصدقني فيما أقول، أنت آخر واحد في الدنيا

بأسرها يعرف شيئًا عن بيض الـ "هاباو"، لأن قصارى ما تفهمه هو صيد السمك للقطط الصغيرة!"

سكت الكهل مشدوهًا، نصف حليق الرأس، وكأن الولد ألقمه حجرًا، فظل يرمقه بعينين جاحظتين.

هنالك، عاد الزبون الجالس عند المدخل يقول له:

"أنت غلطان في العد، يا آمييه، المفروض أنك أكلت ست بيضات فقط".

"قلت لك إنها اثنتا عشرة بيضة بالتمام، بل كانت إحداها تحتوي في جوفها على مُحّين". أجابه، وقد تهيأ لمواصلة الحلاقة، بينما استقرت في أعماقه حقيقة تامة لا تقبل الجدل، وهي أن أهل الفتاة، وبرغم ترحيبهم وحفاوتهم به، ودعوته إلى وجبة غداء كريمة، لم يطبخوا له "هاباو" بالبيض على الإطلاق، على عكس ما كان يتكلم توًا بكل تلك الثقة التي كادت أن تقنعه هو نفسه بأن حكايته حقيقة لا مراء فيها.

"أهكذا، ومن أول لقاء، أقبلوا عليك بالود والترحاب والبيض، هكذا؟" أراد تشوانغ الابن، وبطبيعته في تدقيق وتمحيص الحقائق، أن يتثبّت من صحة الرواية.

"تستطيع أن تقول إن الودّ بيننا أخذ مجراه من أول نظرة!" أجابه آمييه في خيلاء، "وخصوصًا امرأة سيدي". كانوا في تلك المناطق يقولون للحماة "امرأة سيدي".

"جرى الود بينك وبين حماتك، من أول نظرة؟" داعبه أحد الزبائن، فثارت الضحكات تهز جدران المحل.

ولم يكن لمثل هذه التعليقات أن تستثير رد الفعل من جانب آمييه بسهولة، فهو لم يعد ذلك الصبي الصغير الساذج. وقد تعلم من تجارب أيامه ما يكفي لأن ينتقل به من عتبات المراهقة إلى سني الرجولة. وبالتالي، فقد استمر في حلاقة الرأس "الكمثرية" الهيئة للعم العجوز، وبقي يكشط بالموسى الحامية زوائد الشعر الصغير بثبات، وهو يغالب الضحك، ويقول لمحدثيه: "لا تتصوروا يا جماعة... لا تتصوروا كيف كانت المرأة ترحب بي كأنها يئست من مجيء العرسان إلى ابنتها؛ فلذلك رحبوا بي ترحيبًا غير عادي، خشية أن أعود من حيث جئت".

"لكن يبدو أنك قد قررت الزواج حقًا هذه المرة". داعبه تشوانغ الابن، وهو منهمك في الحلاقة دون أن ينشغل عن رأس الزبون، على العكس من آمييه الذي كان يتجاوب مع محدثيه بين حين وآخر، فيدع رأس العم حتى ينتهي من محاوراته، وهو نفس ما فعله توًا، إذ أشاح بعيدًا عن رأس الرجل صائد أسماك الترع والمصارف، ورفع يده الممسكة بالموسى عاليًا، وظل يشير بها وهو يتكلم قائلًا: "طبعًا، من غير أدنى شك، فأنا على استعداد للزواج ليس فقط من الفتاة وحدها، بل من أختها الثانية أيضًا لو أمكن، ويصبح لدى المرء فتاتان، يداعب هذه ويعابث تلك".

كان الكلام بهذه الطريقة زائدًا عن الحد المعقول، حتى أن عددًا من الزبائن الجالسين في انتظار دورهم في الحلاقة أبدوا علامات الاستنكار في

وقت واحد: "انظر ماذا تقول! ما قصدك من هذا الكلام؟"

بل إن تشوانغ الصغير زجره قائلًا: "امسك لسانك، وتكلم من غير تحريف!"

والعم، صائد الأسماك على حواف الترع، بحكم كهولته وكونه أكبر الزبائن سنًّا، كان أكثر الجميع استهجانًا لتلك الطريقة في الكلام المخلّ باللياقة وأصول الآداب العامة. وبنظرات يتطاير منها شرر الغضب، زعق فيه وقال له: "أنت، يابني، هل ستنتهي من هذا الكلام الفارغ، وتحلق لي رأسي، أم لا؟"

والأسطى تشوانغ الكبير، ذو البنطال الفضفاض، متسع الحِجر، ورغم ثقل سمعه الذي حجب عنه كل ما كان يدور في المحل من حوارات، التقطت أذناه العبارة الأخيرة المشحونة بالسخط العارم؛ فتطلع جهة آمييه بنظرة ذات مغزى، وقال له في تجهم شديد: "انتبه لشغلك، ولا تضايق الزبائن".

عاد بالموسى الحامية إلى الرأس الشبيهة بالكمثرى، لكنه لم يكن ليسكت عما صار على طرف لسانه من كلمات يرد بها على الزجر العنيف الذي ناله منذ قليل، فقال كالمحدث نفسه:

"لكن، ماذا أفعل إذا كانت تلك هي الحقيقة، من دون مبالغة، ماذا أفعل، وأنتم تظنون أني أبالغ بقولي إن حماتي تعتز بي كثيرًا". هذه المرة كان ينطق كلمة "حماتي" كأن الزواج صار في حكم المؤكد، مثل عامود من النحاس انصبّ في قالب حديدي! ثم إنه لم يكن يتجاوز الحقيقة في كلامه

عن اعتزاز حماته به، حتى أنه- هو نفسه- لم يكن ليتصور أن تستقبله بكل هذا الترحاب، وقال لنفسه: إذا كان أهل "دونشان" بطبيعتهم على هذه الدرجة من الدماثة ولين الجانب، فما المانع من أن "يلمّع" و"يشذّب" صورتهم في كل مناسبة!

"ظللتَ تتكلم طوال الوقت، ولم تقل لنا شيئًا حتى الآن عن فتاتك... ماذا؟ هل هي جميلة، أم تخشى أن تقول لنا إنها دميمة الخلقة؟ ثم ما الفرق بينها وبين مَن عرفتهن قبلها؟" سأله تشوانغ الصغير.

"هه! جميلة؟" بنبرة تهكمية قالها، ثم واصل كلامه، "لو قلت لكم إنها أجمل مما تتخيلون، فربما ظننتم أني أتغنّى وأطبل بالكذب! وعمومًا، ولكي أقرب لكم الصورة بطريقة واضحة في عقولكم، فهي أجمل حتى من البنت التي تعمل في إذاعة الكومونة عندنا، تلك التي اسمها 'يوامي'". إلى هنا، كان آمييه قد بلغ ذروة الخيال المحلق في آفاق الوهم الخلاب. ولم يكن- مع ذلك- ينوي في قرارة نفسه أن يخدع أحدًا؛ لكن الكلام كان يجيء على لسانه من تلقاء نفسه... يجيء من جعبة الخيالات الجامحة، فيحكي لمستمعيه على هواه، وعلى هواهم أيضًا؛ ما داموا قد منحوه آذانًا مصغية. وبدا- في أحيان كثيرة- أن بعض ما يقوله يلقى منهم شغفًا، فكلما طالعوه بوجوه مشدوهة اغترف لهم أكثر وأكثر من جعبة الحكايا.

لما جاء على ذكر المذيعة العاملة بمحطة الكومونة، وكانت شابة مليحة معروفة عند جميعهم بأناقتها، فقد استحضر في الأذهان صورتها على سبيل المقارنة، عندما قال لهم إن فتاته أجمل منها كثيرًا، فأبت نفوسهم التصديق.

"أمعقول أنك قابلت بالأمس فتاة حلوة بهذا الشكل؟" سأله تشوانغ الصغير، متشككًا في كلامه.

"لعلك قد ذهبت قريبًا من بيتها، وأخذت تتسكع في الشوارع، ثم عدت لتخترع لنا حكايتك هذه"؛ قال له الزبون الجالس قريبًا من الباب، بشعره المشعث المليء بالغبار.

أسرع آمييه بالرد دفاعًا عن نفسه قائلًا: "مزحة سخيفة طبعًا!" ثم تذكر على الفور شيئًا ذا صلة بالموقف الذي وضع نفسه فيه، وتصور أنه لو استغله الآن أحسن استغلال لانخرست ألسنة كل هؤلاء الزبائن؛ فتكلم في الحال قائلًا: "سأريكم الآن شيئًا يقنعكم بأن تسكتوا إلى الأبد، انظروا معي..." ترك رأس الزبون مرةً أخرى، وتناول الجاكيت المعلق على الحائط، ثم أخرج من جيبه "الدليل الدامغ"... صورة فوتوغرافية. واقترب الرجل ذو الشعر الأشعث مع باقي الزبائن، وتحلقوا حوله وتطلعوا إلى الصورة، قال أحدهم: "البنت جميلة حقًّا"، "بل أجمل فعلًا من المذيعة 'يوامي'!" ونزل الكلام على قلب آمييه لذيذًا مبهجًا، مثل قطعة آيس كريم مثلجة في نهار صيف أوقدت فيه الأرض نارًا من شدة القيظ.

انتهى من حلاقة رأس الرجل، وبدأ في حلاقة ذقنه. وبينما كان الآخرون منهمكين في تأمل ملامح فتاة الصورة الفوتوغرافية، التقط آمييه فوطة بيضاء ساخنة، ووضعها على فم الكهل وضغط عليها بأصابعه. وسواء بتأثير السخونة الشديدة أو بغيرها، فقد كادت عيون العم تخرج من مآقيها، وهو يحدق بما يشبه الغيظ في وجه آمييه، الذي لم يعبأ ساعتها بما إذا كانت تلك

النظرات مليئة بضغائن مكبوتة ضده، أو بأي شيء آخر! فهو- من الأساس، ومنذ أن وقعت عيناه على الكهل- نفرت نفسه منه. فماذا يعني أن تكون الفوطة شديدة السخونة على وجهه؟ لا بأس... فليحتمل قليلًا، أو ليحترق في داهية. وهل يمكن لفوطة ساخنة أن تحرقه؟ هل يعني ستكون في سخونة اللهب الذي يشوي عليه صيده الوفير من أسماك الشطوط؟

هنالك، تكلم تشوانغ الصغير. ولأنه كان مشغولًا بما في يده من حلاقة، فلم يتمكن من الفرجة على الصورة، لكنه راح يمازحه قائلًا:

"قُل لي، يا آمييه، أين عثرت على هذه الصورة؟ أنا، يا بني، أستطيع أن أقول لك إن فتاتك لو كانت حلوة بهذا الشكل لما فكّرَتْ في الارتباط بك".

"على أي أساس، يعني؟ وما الذي يجعلك متأكدًا هكذا؟" رد عليه آمييه محتجًا، وقد آلمه الكلام.

"والدتك بنفسها هي التي قالت لي بالأمس إن الفتاة لو أبدت الموافقة على الارتباط، فستأتي لزيارتكم اليوم، فلما رأيتك جئت إلى المحل كالمعتاد، فهمت أن الزيارة لن تتم، و.. طبعًا، فالموضوع في حكم المنقضي".

"هذا في رأيك الخائب!" عاجله غاضبًا، "الزيارة لم تتم اليوم لأنهم قالوا إن أقارب البنت يريدون أن يجيئوا معها. فهناك أخوها الكبير وعمها، لكن أخاها عنده شغل مهم جدًا في المدينة، أما عمها فقد ذهب لشراء العجول من المزارع".

"الكلام بهذه الطريقة معناه أن البنت غير موافقة!" قال له تشوانغ، وهو

ينفذ بعقله النابه إلى قلب الأمور.

"انظر... أنت أصلك لا تعرف شيئًا عما تتكلم عنه، وأنا سأوضح لك المسألة على حقيقتها"، أصبح آمبيه يتكلم بلهجة العارف ببواطن الأمور، وقد أدرك أنها الطريقة الوحيدة التي يخرس بها مجادليه، "الموضوع وما فيه أن أخاها رجل أناني بطبعه، ولا يلتفت إلا إلى مصالحه، ولا يهمه أي شيء من أمر أخته. أما بالنسبة إلى عمها... ذلك الكهل المخرف، فأسوأ حالًا. ورغم هذا، فحماتي تُصر على أن تجعل الرجل مطلعًا على ما يجري".

"اسمع، يا آمبيه" قال له تشوانغ الصغير، وقد غلبه الضحك، دون أن يتنازل عن الشك الذي يملأ قلبه فيما يحكيه الولد، "أنت نسيت الزبون... حتى كاد يحترق منك!"

انطلقت قهقهات الزبائن.

عاد آمبيه إلى شغله، وحانت منه التفاتة إلى الضاحكين من حوله، وبدا أنه يريد أن يواصل ما عنده لكي "يفحم" كل تلك الشكوك المثارة حول حكايته؛ فانتظر حتى انتهوا من نوبة الضحك الهيستيري، ثم زعق فيهم بانفعال:

"ما كل هذا الانشراح الذي نزل عليكم دفعةً واحدة؟ وهل في كلامي ما يستحق كل هذا الضحك؟ ثم إنكم سمعتم بعض ما عندي، فماذا لو عرفتم أني بالأمس قد أنهيت كل شيء تمامًا، كما أقول لكم... أنهيت كل الأشياء، أخذت البنت وخرجنا، وعملنا مراسم الزفاف بطريقتنا الخاصة، وفي آخر

اليوم كنا على فراش الزوجية معًا؛ حتى هذا، انتهينا منه بالأمس أيضا!"

وهنالك، أزاح الفوطة البيضاء الساخنة التي كانت تغطي فم العم ووجنتيه، وما كاد يقترب من وجهه لحلاقة ذقنه، حتى فوجيء به يقفز واقفًا، ويصيح بأعلى صوت من الفم الذي حوطته دائرة من ا لسخونة المفرطة:

"أنت ولد كذاب وقليل الأدب!"

مشدوهًا، نظر إليه آمييه. وبإحدى يديه موسى الحلاقة، وبالأخرى الفوطة البيضاء الصغيرة. لم يجد ما يقوله سوى أن تمتم مستغربًا:

"ما لك، أيها العم؟"

"أعطني صورة الفتاة التي معك!" قالها وهو يمد يده لانتزاعها من دون جدال.

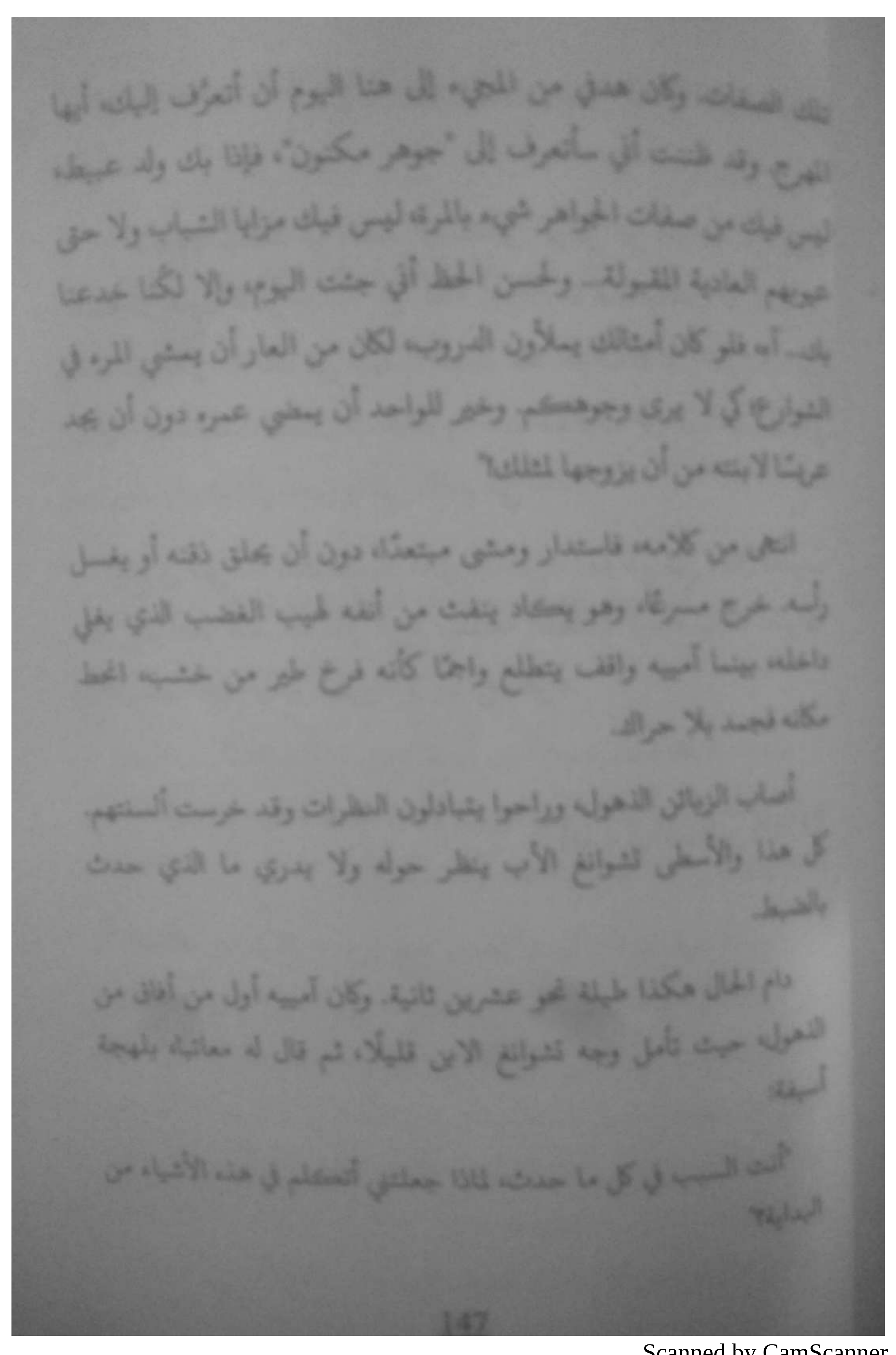
نصف ذاهل، حاول آمييه أن ينحي يد الرجل عن الصورة، وقد بادر بمحاولة أخذها عنوة.

"أعطني إياها... قلت لك!" هذه المرة كان يأمره محتدًا.

"وما شأنك بها؟" سأله مستفهمًا، وقد واتته الفرصة لأن يقول شيئًا ما، "ما شأنك أنت بالموضوع كله؟" كان يحاول أن يعيد الصورة إلى جيبه.

دون نقاش، مد يده واستولى على الصورة عنوة من جيب الولد، وصاح فيه، وقد تملكته سَورة غضب هائلة:

"اسمعني جيدًا، أنا عم الفتاة... أنا الرجل الذي وصفته توًا بالحرف وكل



تلك الصفات. وكان هدفي من المجيء إلى هنا اليوم أن أتعرّف إليك، أيها المهرج. وقد ظننت أني سأتعرف إلى "جوهر مكنون"، فإذا بك ولد عبيط، ليس فيك من صفات الجواهر شيء، بالمرة. ليس فيك مزايا الشباب ولا حتى عيوبهم العادية المقبولة.. ولحسن الحظ أني جئت اليوم، وإلا لكنا خدعنا بك.. آه، فلو كان أمثالك يملأون الدروب، لكان من العار أن يمشي المرء في الشوارع، كي لا يرى وجوهكم. وخير للواحد أن يمضي عمره دون أن يجد عريسًا لابنته من أن يزوجها لمثلك!"

انتهى من كلامه، فاستدار ومشى مبتعدًا، دون أن يحلق ذقنه أو يغسل رأسه. خرج مسرعًا، وهو يكاد ينفث من أنفه لهيب الغضب الذي يغلي داخله، بينما أمييه واقف يتطلع واجمًا كأنه فرخ طير من خشب، الحظ مكانه فجمد بلا حراك.

أصاب الزبائن الذهول، وراحوا يتبادلون النظرات وقد خرست ألسنتهم. كل هذا والأسطى لشوانغ الأب ينظر حوله ولا يدري ما الذي حدث بالضبط.

دام الحال هكذا طيلة نحو عشرين ثانية. وكان أمييه أول من أفاق من الذهول، حيث تأمل وجه لشوانغ الابن قليلًا، ثم قال له معاتبًا بلهجة أسيفة:

"أنت السبب في كل ما حدث، لماذا جعلتني أتكلم في هذه الأشياء من البداية؟"

عندئذٍ فقط، ترك تشوانغ الصغير ما بيده من شغل، وانفجر زاعقًا في وجه آمبيه:

"يا للتبجح، وكأنك لم تتعمد أن تضايق الرجل من أول ما جاء إلينا، وكأنك لم تحاول كسر دماغه من لحظة رؤيتك له هنا، وكأنك لم تلمّح إلى رائحته الزنخة في كلامك عن صيد الأسماك عند حواف الأنهار! ثم إنك- من البداية- قد أطلقت العنان للسانك، وفتحت شدقيك على اتساعهما للكلام يمينا ويسارا... ثم تأتي أخيرًا وتلقي باللوم عليَّ أنا؟"

"وقع في ظني أنه ذلك الصياد الذي تشاجرت معه من قبل". قال بصوت ذابل وقد خمد عنفوانه، مثل قربة منتفخة انقطعت فجأة، تبدد مكنونها وترهل منها الجلد، وصار مطروحًا لا يمتلئ بالهواء.

[تمت في أغسطس 1980]

"فان آبينغ" والعنزة الحلُوب

1ـ الرجل وامرأته، والخناقة التي لم تخمد نارها

قامت الخناقة الحامية بين "فان آبينغ" وبين امرأته، علمًا بأن الرجل لم يكن يسمع له أحدٌ حِسًّا، حتى قيل إن لسانه معقود بكماشة. فإذا بالشجار يدب بينهما، والدنيا تقوم قيامتها... والسبب عنزة!

وعندما نقول إن فان آبينغ "تشاجر" مع زوجته، فلابد من ملاحظة أن المرأة هنا وفي هذا السياق، هي التي انفردت بحق الأداء العلني في الساحة، وأنها استحوذت على الدور كله تأليفًا ولحنًا وإخراجًا؛ فلم يكن لـ"فان آبينغ" ذي الوجه الطويل المسحوب أن يقف ندًّا لامرأته عريضة القسمات. ولم يكن له- في مثل تلك الأحوال- إلا أن ينزوي في ركن المطبخ، تحت وابل الشتائم والسباب الذي كانت تأتي به المرأة من أطراف اليابسة إلى أقاصي البحار [من كل ناحية تحتوي على ألفاظ بذيئة!]، وهو قابع مكانه

صامتًا إلا من همهمات مرتبكة، ذات دلالة مهمة على أنه حاضر في المشهد، وأنه معترض ومحتج. وفي بعض الأحيان، النادرة جدًّا، كان يمكن له أن يحدق فيها بعينين جاحظتين، ويكيل لها ردًّا متلعثمًا بصوت متردد خفيض. ويصبح الوضع حينئذٍ، وبلغة الكتابة، عبارة عن مقالة مطولة من الملاسنة النسائية الفياضة، اقتصر الدور الذكوري فيها على مجرد وضع الفواصل وعلامات الترقيم القليلة المتباعدة! مع ملاحظة أخرى مهمة هنا، وهي أن وضع علامات الترقيم لم يكن حكرًا على الرجل وحده، بل كان يشارك فيه ابنهما "جياومو" البالغ من العمر تسعة أعوام. ولقب "جياو" في اللهجة الدارجة هنا تعني "دامع العينين"، ويشار بها إلى "الصبي الذي لا ينقطع عن البكاء". وعلامات الترقيم التي كان يأتي بها الصغير كانت تختلف جذريًا عن تلك المنسوبة إلى الوالد؛ حيث إنها لم تكن تتضمن معنى الاعتراض، بل كانت- في حقيقتها- مساندة تامة لموقف الأم؛ فجاءت كأنها تضع خطوطًا تحت العبارات اللامعة المتفردة بأهميتها، خصوصًا عندما كان يبدو أبوه عاجزًا عن ملاحقة السيل المتدفق على لسان الوالدة؛ فينتهز الفرصة ليدعم هجومها بنغمة متوافقة من عنده؛ بخلاف ما كان يتطوع به من شتائم جانبية. ومثلًا، فعندما كانت أمه ترغي وتزبد، ساخطة:

"فلتذهب في داهية، يا آبينغ... ولتنقطع سيرتك من الدنيا وما فيها!"

كان يردد العبارة وراءها، وبنفس لهجتها، وبما امتلأت به من مرارة، قائلًا:

"فلتذهب في داهية، ولينقصف عمرك، كي أرتاح من منظرك... لقد

سئمت منك ومن أفعالك!"

والكلمات هي نفسها التي كانت تشتمه بها أمه، عندما يفيض بها الكيل منه؛ فالآن يكررها حرفيًا تجاه أبيه، بينما تواصل المرأة سبابها:

"انظر، حتى الولد الذي لم يخرج من البيضة يبغضك! قل لي، هل أعجبت أحدًا من الناس؟ ما الذي جرى لك؟"

ويفرح الصغير الذي لم يدلف من أبواب الدنيا الواسعة.

ثم كانت تأتي ساعة تتعب فيها المرأة من كثرة الصياح، وتتوقف عن الشجار، ويصبح الأب منكمشًا على نفسه، صامتًا صمت جدران؛ لكن الولد العابث- الذي لم ينضج عقله بما يكفي كي يلحظ دقائق المشاعر والأحوال- يستمر في ترديد العبارات المستدعاة من مخزون السيدة الوالدة، فتنهره هذه المرة:

"أنت، يا ملعون، أيها الشيطان الغبي، ما إن تراني ممسكة بسكين حتى تأتيني بمصفاة دماء! فالرجل مهما فعل فهو والدك، فلا تتنكر له مثل سلحفاة ابنة زنا؛ منذ متى كانت أمك زانية؟"

"أمدّ لكِ يد المساعدة، يا أمي"، يجادلها الصبي، الذي أخذ عن أبيه شكل وجهه المسحوب.

"وهل كنت عاجزة حتى تساعدني؟ أنا في لساني عافيةٌ قدر عشرة من أمثالك، أنت وأبوك".

"هي أول وآخر مرة أساعدك في شيء، إذن"، يصيح حانقًا الولد مسحوب الوجه.

"وتجسر على مجادلتي كلمة بكلمة؟ انتظر حتى أمسح بك الأرض لتأديبك!" وتتهيأ لضربه.

وقتئذٍ، يجيء أخوه الصغير "شياوجيا" ابن سنوات عمره الخمس (ووجهه المسحوب أيضًا)، ويرى أخاه تحت غضبة الأم ووعيدها، فيصطاد في ماء عكر. وبدلًا من أن يمد يدًا للساقط في بئر، إذا به ينهال عليه رجمًا؛ فيأتي ويرفع كفه عاليًا قدر ما يستطيع، ثم ينهال بها على وجه أخيه في صفعة مدوية، صفعة حقيقية تتجاوز في عافيتها ما كان موعودًا به من جانب الأم.

ولم يكن جياومو، ابن التاسعة من العمر، ليتفادى الضربة المفاجئة، فانطلق يعوي ألمًا، وعواؤه ساعتئذٍ كان يمنحه شيئًا من التطابق مع اسمه [جياو: الصراخ]، فيتبدد سخط المرأة، وينقلب زعيقها الغاضب نوبةً متقطعة من الضحك، تواصل من خلالها شيئًا من الزجر الذي بدأته:

"ما لك مستسلم هكذا للضرب، ولا ترفع يدًا تدافع عن نفسك؟ خائبٌ طوال عمرك مثل الذي أنجبك؛ تقعد وتمط عنقك، والناس يذبحونك، وأنت ساكت!"

سالت دموع الولد الباكي على وجهه، وقد أخذته الحيرة: هل تبغض أمه حقًّا الرجل؟ هل تكره المرأة أباه؟

وأيًّا ما كان الأمر، فقد كانت حكاية شراء العنزة الجبلية هي التي كشفت

الستار عن أشياء كثيرة محيرة؛ وأهم هذه الأشياء التي اتضحت- بغير مداراة- أن الأم والصبي جياومو وأخاه الصغير، أي الوجهين الصغيرين المسحوبين والوجه الكبير المستدير، جميعهم، يكرهون السيد الوالد... كراهية حقيقية لا مراء فيها؛ مع الإقرار بأنه هو نفسه كان أول من مهَّد طريق هذه الكراهية، منذ أن قرر شراء العنزة، وأوقع بيته في ديون طائلة، فانقبلت الأحوال بؤسًا.

2 – فان آبينغ يشتري عنزة جبلية

في السنة الفائتة، وذات يوم من أيام الشهر الأخير فيها، عاد فان آبينغ من مشواره الطويل وقد احمرَّ طرف أنفه من شدة البرد؛ أطلّ على امرأته بوجهه المسحوب وعينيه الثوريتين [كعيني ثور، يعني!]، وقال لها بانفعال واضح:

"أنا كككتبت توكككيلًا... وققعت على توكككيل لشراء عنزة جبلية".

"هل جُننت؟" ابتدرته في الحال، "نحن لا نجد ما نشتري به الزيت، فمَن أين لنا بشراء المعيز؟"

"وما الممانع أن نستلف الثمن؛ فالعم 'يانغ' قال لي إنني أستطيع تتدبيرالمبلغ على كل حال". أجابها بصدق يطفر من عينين ساذجتين، "ووعدني بالمساعدة وقت الشراء، قال إنه سيبيعني أحسن عنزة في السوق، وبالضمان أيضًا، ضمان لمددة شهرين، يعني نستطيع رد النقود

بعد ششهرين".

صرخ الأخوان الصغيران، جياومو وشياوجيا، في وقت واحد، قائلين: "أماه، نريد عنزة نلعب معها".

تحرك قلب الأم، وإن لم يكن السبب المباشر صراخ طفليها وتوسلاتهما، وإنما العسر المالي الذي لا ينفك يلاحق فان آبينغ على مدى سنوات طويلة، ويعوقه عن التكيف مع رغبات ولديه، ما دفعه إلى عدم التردد في قبول فكرة السيد أمين اللجنة الفرعية "يانغ يوان"؛ وهو بالمناسبة يشغل موقعًا قياديًا في المزرعة الجماعية [المعروفة باسم: الكومونة] يعتبر أهم ثالث منصب تنفيذي فيها، بالإضافة لإدارته لمكتب المؤتمرات. وطبعًا، فقد كانت للرجل مصداقية مؤثرة في موقف آبينغ، بالذات وقد وعده بمساعدته في شراء العنزة على ضمان شهرين، يستطيع بعدهما استرداد فلوسه، لو أراد.

والعم يانغ يوان يقيم بنفس منطقة الوحدة الإنتاجية التابع لها آبينغ، لا يفصل بينهما سوى تل صغير. وفي العام الماضي، ذهب برفقته إلى أسواق منطقة "شانشي" لشراء العنز الجبلي، وكانت تلك أول مرة يسافر فيها آبينغ إلى "شانشي" في حياته، حيث اشترى العم يانغ عنزة حلوبًا بثمانين يوانًا. وقال فليجرب حظه في تربية العنزة، واستبشر بها خيرًا وسحبها عائدًا إلى بيته. فما كاد ينقضي الشهر حتى أنجبت عنزتين باعهما بنحو مائة يوان، واستفاد من حليب الأم بما بلغ نحو خمسة كيلوغرامات يوميًا، عادت عليه حصيلة بيعها بستين يوانًا آخر كل شهر.

كانت الفائدة مثالية، والربح كان حديث الناس؛ فحسده كثيرون، وتمنى الجميع أن يقتنوا المعزى الجبلي. ولما واتته الفرصة هذا العام- من خلال زيارة ثانية إلى "شانشي"- كان عدد الذين وقعوا توكيلات، ودفعوا مبالغ تحت الحساب، أضعاف المشترين في العام الفائت.

لم تكن امرأة آبينغ تجهل الفائدة من وراء هذا الموضوع، لولا ضيق ذات اليد، إضافةً إلى ما بلغ سمعها من أن العنزات التي اشتراها الناس في العام الماضي لم تكن تحلب أكثر من كيلوغرام واحد في اليوم؛ مما يعني أن العائد لم يكن يغطي ثمن العلف في أقل القليل. لكن، بغض النظر عن هذا كله، فمادام العم يانغ يوان قد وعد بالمساعدة، والرجل له مكانته ومنصبه المعروف، فلابد أنه يعني ما يقول ويقدر عليه؛ بالذات في مسألة صغيرة كهذه. ولا ينبغي للمرء أن يفوت فرصة مكسب طيب، إلا لو كان غبيًا.

هي ضخمة الحجم، مدورة الوجه، نعم؛ لكن امرأة آبينغ كانت أيضًا ممن يتحرون الدقة الزائدة، بحكم قدر من النباهة لم يكن يتمتع به زوجها. وعلى هذا، فقد راحت تتقصى الحال، وتسأله:

"أتظن أن كلام العم يانغ يُعتمد عليه؟"

"ططططبعًا، يُعتمد عليه. فأنا أعععرفه منذ زمن... منذ زززمن الصصبا". وطريقته في الكلام بفأفأة وتلعثم كانت أكبر دليل على صدقه. وكلما أمعن في الصدق والإخلاص، ترددت الكلمات في فمه هكذا، شأنه في ذلك شأن كل

ثقيلي اللسان في الدنيا بأسرها.

ثم، وباعتبارها ربة البيت، أكثر مما هي زوجة الرجل فان آبينغ، فقد حسمت الموقف بكلمة: "خلاص، نشتريها، وليكن ما يكون!" ويكون الكلام قد انتهى عند هذا الحد.

ويكون أيضًا أنهما يطوفان بكل معارفهما لاقتراض المال المطلوب، فيتعللان بكل الأسباب، ويقولان كلامًا طيبًا، ويعتذران بعسر الحال، مع وعد محدد بالساعة واللحظة التي يردان فيها الدين.

اجتمع لديهما المبلغ المتفق عليه (سبعون يوانًا)، وتجهز المسافر للسفر. وبعد شهر من ذلك التاريخ، أصبحت العنزة هي الموضوع الرئيسي للحديث بين أفراد أسرة آبينغ... على مائدة الطعام، وفي أحاديث المساء. وانهمكت المرأة في حسابات كثيرة، وهي ترسم صورة طيبة لما ستأتي به الأيام، تقول: ثلاثة كيلوغرامات من الحليب في اليوم، لو بعناها فسيكون لدينا آخر الشهر أربعون أو خمسون يوانًا. وهذا معناه أننا نستطيع تسديد الديون كلها في شهرين اثنين فقط.

يقول آبينغ: "لا، فأنت تعملين حسابك على بيع الحليب كله، وهذا مستحيل، لأننا يجب أن نحتفظ منه بكيلو واحد على الأقل؛ اعطِ الأولاد قليلًا منه، ألا ترين أجسامهم نحيفة وجوههم ممصوصة مثل وجوه النسانيس".

"نصف كيلو فقط!" ردت الزوجة بحسم قاطع، "عندك واحد مثل العم

"يانغ يوان" بكل الغنى والمال الذي عنده، ومع ذلك تجده يعطي كل واحد من أولاده الثلاثة نصف الكيلو من اللبن في اليوم، وتجدهم بكامل عافيتهم، كما ترى".

سكت قليلًا على مضض، ثم قال: "عمومًا، فالعنزات الوليدة ستأتي لنا بمكسب لا بأس به". ولم يكد يتم كلامه حتى انفتح حلق المرأة عن آخره، واندلع شدقاها بكثير مما في جعبتها من التقريع: "لا أنت فقير وساكت، ولا غني ومرتاح؛ وتجيئك أفكار بائسة مثلك، فتريد الثمر قبل أن يطرح الشجر! تعيشُ بأفكارك التعسة، عمرك ما خالفت طبيعتك البائسة، وكيف تخالفها؟ ومن أين؟" إلخ إلخ. وهو منكمش على نفسه، كما تدور وتنكمش على نفسها الفاصلة في علامات الترقيم.

على أية حال، وبرغم صياح المرأة ولسانها المقذع، وانكماش الرجل وانزوائه، فلم تبخل التصورات الجامحة في خيالاتهما بالأمل العريض... الأمل في تسديد الديون المتراكمة، وفي شراء سرير جديد (حيث لم يعد يتسع السرير الحالي للأسرة كلها، وقد ازدادت عن ذي قبل، خصوصًا أنه تخلى عن صمته وثباته الوقور، وأمسى مخلخلًا مهتزًا بـ"صرير" موسيقي رتيب، عند الاضطجاع والتقلب، بل حتى في الاضطجاع دون تقلب!). ثم اتسع الخيال لمطبخ وخزانة أطباق وملاعق (حيث تستقر حاليًا في كومة فوق منضدة الطعام). واتسع أيضًا لحقيبة مدرسية جديدة يحملها "جياومو"، وطاقية ملونة لأخيه يلهو بها مزهوًا مع أترابه.

3 – صداقة ضاربة بجذورها بين الموظف الكبير والفلاح البسيط

صحيحٌ فعلًا؛ فالصداقة بين العم يانغ يوان، أمين لجنة الحزب بالكومونة، وفان آبينغ، تمتد جذورها منذ أيام الصبا، منذ كانا يرعيان الأبقار والثيران؛ إلى أن شق كلٌ منهما طريقه في الحياة. ثم فترت الصداقة حينًا من الدهر إلى أن جاءت المحن والتجارب التي عركت الود، واستصفت للرفقة أنقى ما في الروح من إخلاص، فتوثقت عُرى الإخاء بينهما، وصار آبينغ شابًا بقلب طيب، يكاد لا يُتم عبارة من كلامه دون تلعثم؛ وكان نصيبه أن بقي مزارعًا يفلح الأرض ويرعى البهائم، بينما استطاع يانغ يوان- بفطنته وذكائه- أن يجد وظيفة (حكومية) مرموقة، مستفيدًا من مشروع "استصلاح المزارع". حتى قبل هذا المشروع، وقبل بدء الحملة التطهيرية الرباعية[*]. كان يشغل الموقع الثاني في قيادة الكومونة، وكانت تلك هي الفترة التي 'خملت فيها مشاعر الود بين الصديقين'. وربما لم يكن هناك خمول على الإطلاق، إلا بما رسخ في ذهن آبينغ، على اعتبار أنه كان يرى نفسه، وهو الفلاح البسيط، أضأل من أن يكون صديقًا للموظف الرسمي الكبير. وبالتالي، فقد كان يتحاشاه، ويتجنب كل فرصة للاقتراب منه؛ بينما الطرف الآخر مشغول بما تحت يده، دون أن يكون لديه أية مشاعر نفور أو ترفُّع تجاه صديقه، راعي الأبقار القديم، سوى أن المسافة بينهما أنبتت فراغًا من الوحشة؛ مسافة

---

[*] "حملة التطهير الرباعية": مبادرة سياسية أعلنت في الفترة (1963- 1966)، لمحاربة الفساد في أربعة مجالات: السياسة، الاقتصاد، الإدارة، الفكر.

أخذت تباعد ما بين رفاق صبا... مسافة كان يلوذ بها آبينغ، ويتطلع إلى صديق عمره من بعيد؛ يتطلع إليه وهو يخطب في اللقاءات الجماهيرية، يحدّق فيه ويلاحظ الوجه المدوَّر والملابس الأنيقة لصاحبه الجالس على المنصة رئيسًا للمؤتمر، ممسكًا غليونه بيد ومشيرًا- باليد الأخرى- مفندًا حديثه بكل ثقة، متكلمًا بتلك اللهجة الرسمية المعهودة في رطانة كل المسؤولين. ولو أن العم يانغ كان يكثر في كلامه من استخدام أداة الاستفهام "ماذا"، وأحيانًا أخرى يستفسر بـ"ما" و"ما الذي" إلخ؛ فكان يكررها بشكل دائم، وبطريقة غير معهودة في لهجة الفلاحين العاديين، ما دفعهم إلى السخرية منه بقولهم "الواحد منا عنده 'ما' واحدة، لكن العم يانغ عنده سبع وثلاثون 'ماما'". يستمع آبينغ إلى تعليقاتهم، ويبدي امتعاضه مستنكرًا أن يخوض الناس في السخرية من صديقه، منزهًا نفسه عن السير في ركابهم، معتبرًا أن لكل شيء حدودًا، وأنه حتى لو لم يكن الرجل صديقًا قديمًا له، فالاحترام واجب تجاه موظف كبير له مكانته القيادية؛ فما بالك والموظف القيادي صديق، بينه وبين آبينغ أواصر ودٍ قديم.

ولنرجع خطوةً إلى الوراء، لنقول إن تعليقًا ساخرًا يصم أحد الناس بكونه ابن "سبع وثلاثين امرأة" لا يضير في شيء، ولا يعني الانتقاص من كرامة، كما لا يشير إلى أن الشخص المشار إليه سيء أو فاسد أو شرير بأي معنى. ورغم كل هذا، فقد اتُّهم العم يانغ يوان بكل النقائص والمفاسد والشرور التي في العالم، واهتزت صورته ومكانته، وسقط متدحرجًا على قفاه إلى الحضيض، بعد أن كان في قمة المجد، وذلك بعد انتهاء 'حملة التطهير

الرباعية' إياها؛ فأضيرت سمعته من جراء ذلك، خاصةً أنهم ألصقوا به كل التهم والمفاسد التي يمكن أن تصم سيرة إنسان على وجه الأرض. كان آبينغ على اقتناع بأن الرجل بريء، وشيء ما في نفسه كان يحدثه بأن كل ما يثار حوله مجرد افتراءات كاذبة، إلى أن فوجئ بأعضاء فرق الإنتاج يدقون عليه باب بيته، ويقولون له إنهم بحثوا عنه في كل مكان في أمر مهم للغاية، وطلبوا إليه أن يذهب معهم، ويشهد بأن العم يانغ يوان رجل مسكين، في حاله، وأنه طوال عمره كان ابن فقر مدقع، لم يتكسب عيشه إلا التقاطًا للرزق، وحياته تمضي على الكفاف. على الفور، قام الرجل (الذي لم يعش إلا على الكفاف حقًّا، ولم يكن له عمل دائم يتقوت منه!) غير عابئ بما قد تجره عليه هذه الشهادة من ضرر أو نفع؛ فوقف أمام المحققين وحدّق فيهم بعينين ثوريتين [شبه عيني الثور] قائلًا بكلمات واضحة تمام الوضوح: "الرجل كككان راعي أبققار... مثلي بالضبط، وكككم قاسينًا معًا، الششد... الششدائد والأيام الصصعبة".

وتقرر أن يبقى بالقرية، ولا يغادرها لأي سبب؛ فلا سفر ولا ترقية ولا "صعود إلى الطوابق العليا"، أي لا تصعيد إلى أي منصب أعلى من الوظيفة الحزبية بالكومونة. وذات يوم، عرج على بيت آبينغ، فرحب به وأخذ يحدق في وجهه، ويرى فيه ملامح الرجل الذي خبر الدنيا وأحوالها، وحصل منها معرفة بطبائع الناس ونفوسهم. وبدا الوجه المدوَّر الممتلئ هادئًا عليمًا ببواطن الأمور، غير خائف ولا مضطرب، كأن شيئًا في هذا العالم لا يمكن أن يفزعه. وبهذه الروح المطمئنة، مال على أذن آبينغ وهمس له قائلًا: "اسمع

يا صاحبي، أنا لم يعد يقلقني شيء في هذه الدنيا أكثر من أن يفاجئني المفتشون بزيارة بيتي، ويصادروا أجولة الحبوب التي أعيش عليها؛ فلا يجد أولادي ما يأكلونه". وتم الاتفاق بينهما كالتالي: يذهب آبينغ إليه في منتصف الليل... "حيث الهدوء والظلام ساتر، ولم يعد هناك رائحٌ ولا غادٍ"، فينقل أجولة الحبوب من عنده إلى بيته لبعض الوقت. لم يتوان آبينغ في الموافقة، حتى قبل أن يشاور امرأته (وهي عندما علمت بالأمر فيما بعد، لم تعاتبه، بل على العكس، شجعته على مبادرته ومرونته في التعاون). وبالفعل، فما كاد الليل ينتصف يومئذٍ، حتى بادر إلى التنفيذ الذي استغرق ليلتين كاملتين، حمل فيهما ما يزيد عن ألف كيلوغرام من الحبوب، بقوة يده النحيلة وجسده المهزول، منتهيًا بها إلى منزله القابع في هذا الركن من التل الجبلي، بما يشبه المغامرة المحفوفة بالمخاطر؛ وبالذات في تلك الحقبة من الزمان. فلما أرسل فريق الإنتاج عددًا من المفتشين الحكوميين لفحص محتويات بيت العم يانغ، ظهر للجميع أن الرجل لا يملك حقًّا سوى جدران أربعة، يعيش وراءها بما يقيم حياته بشق الأنفس، وبما يستر عريه بالكاد؛ لأنهم وجدوا الباب... باب البيت، مخلوعًا من مكانه (وهنا، فنحن أمام بصيرة نافذة، أو معجزة تنبؤية تمشي على قدمين، فيا للرجل؟).

أصبحت العلاقة بين الصديقين أكثر حميمية منذ تلك الساعة. وليس معنى وصف العلاقة بـ"الحميمة" هنا أنها كانت تُشع دفئًا أو "حرارة" وسخونة لمجرد جريانها النشط بين متآخين؛ فهذا معنى غير واضح بصورته المثالية المقولبة عند واحد طيب القلب ومخلص جدًّا، مثل آبينغ؛ ولا هو نفسه كان

بارعًا في التعبير عنه والتلبّس به، وسط دائرة أصدقائه ومعارفه؛ وإنما لأن زميله القديم يانغ يوان قد عاد الآن إلى الكومونة، في أعقاب حدث سياسي كبير، وأصبح مثل كل الفلاحين هنا يعمل بالزراعة من أول النهار إلى آخره، ويلتقي بالجميع ويتحدث إلى هذا وذاك، ويرتاح كثيرًا إلى زميل عمره ويخصّه بالود دون الآخرين. يكفي أنه كان الوحيد الذي يبتدره بالسلام والتحية كلما التقاه، وقد فاضت ملامح السرور على وجهه، الذي لم يعد مدورًا ولا ممتلئا، مثلما كان في أيامه الفائتة، ولو أنه امتلأ بقدر وافر من "الحميمية" (مصحوبة بشيء من 'التملق'، ولو بشكل عابر في بعض الأحيان). وآبينغ رجل سريع التأثر بمشاعر الود "الحارة" هذه. ولذلك، فقد أنفذت أثرها في أعماقه. وفي أعماقه أيضًا، انطبعت صورة يانغ يوان كموظف مرموق له كيانه واحترامه... كرجل يُكن له ما يليق به من تقدير. وهو سعيد حقًّا بأن يكون له صديق محترم مثله، رغم أنه لم يكن يجاريه في الكلام كثيرًا عندما يلتقيان، ربما بسبب حُبسة لسانه وتلعثمه. كان يجلس إليه منصتًا، وفي قلبه شعور بالفخر بأن يكون هذا الجالس أمامه صديقًا له، على خلاف البعض ممن راحوا يشمتون أو يزردون العم يانغ، بعد فقدانه منصبه، ونزوله عن عرش السلطة في لجنة الكومونة. فلم يكن آبينغ على استعداد لأن يزدري أو يشمت بأحد، بل كان أكثر شيء يقلقه أن يصبح هو نفسه موضوعًا للسخرية والازدراء.

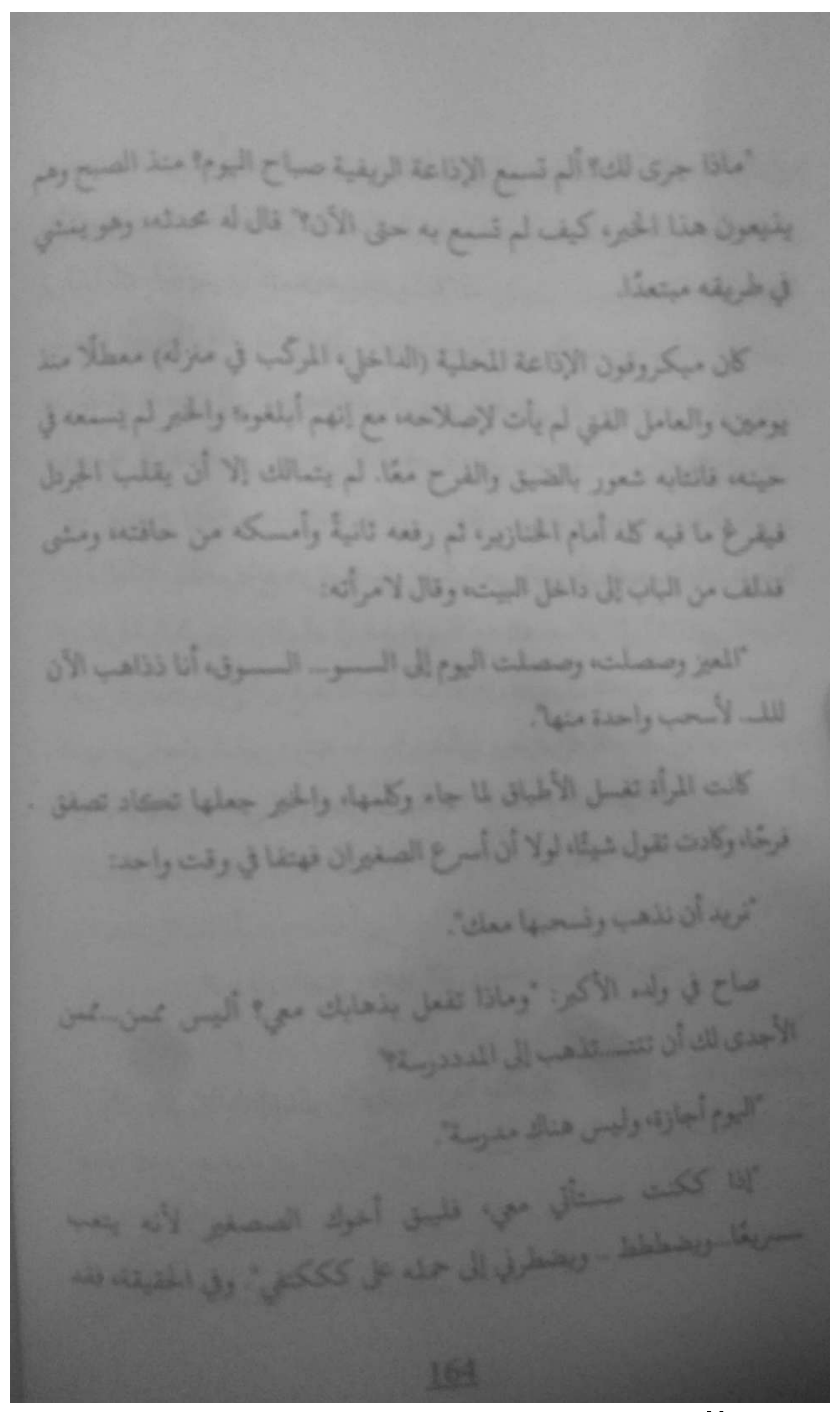
بعد سقوط "عصابة الأربعة"، أي سقوط القيادات المتسببة في كثير من المشاكل التي عمت البلاد لفترة طويلة من الزمن، ومع بدء التطبيق العملي

لسياسات الحزب، أُعيد العم يانغ مرةً أخرى إلى منصبه أمينًا للجنة الحزب بالكومونة؛ وهو ما جلب السعادة إلى قلب صاحبه فان آبينغ، وكاد يطير فرحًا، لكنه اجتهد في كتمان مشاعره لئلا يُشاع بين الجميع أنه لما علم بعودة صديقه للسلطة فقد سارع إلى "لعق الكف المليء بالسمن والزيت"؛ فبادر- من تلقاء نفسه- إلى الابتعاد عن الرجل، والحرص على مسافة فاصلة يراها ويلمسها كل الناس... "الرجل الآن قد عاد إلى مسؤولياته الكثيرة، ولم يعد لائقًا اقتحام وقته ومشاغله؛ هكذا وبكل بساطة. أما بالنسبة لموضوع شراء العنزة، فالعم يانغ هو صاحب الفكرة من البداية. وعندما التقاه عرضًا على قارعة الطريق، وقال له في معرض كلامه إنه مسافر إلى "شانشي" لشراء المعيز الجبلية، فرح آبينغ لما لاحظ أن الرجل ما يزال كعهده متباسطًا معه، كغيره من آحاد الناس، وأنه ما يزال يذكره ويعرف له أفضاله. وبالطبع، فقد كان العم يذكره، وهل كان يُعقل أن ينساه؟ كيف له أن ينسى؟

4 – فان آبينغ والمعيز التي وصلت إلى الكومونة

كان يلقي بالطعام إلى الخنزير عندما جاء إليه مَن قال له: "تعال، يا عم آبينغ، المعيز وصلت إلى السوق اليوم، رُح بسرعة اسحب لك واحدة وعد بها إلى بيتك!"

"أحقًا؟ أتتكلم بجد؟" سأله متلهفًا.



"ماذا جرى لك؟ ألم تسمع الإذاعة الريفية صباح اليوم؟ منذ الصبح وهم يشيعون هذا الخبر، كيف لم تسمع به حتى الآن؟" قال له محدثه، وهو يمشي في طريقه مبتعدًا.

كان ميكروفون الإذاعة المحلية (الداخلي، المركب في منزله) معطلًا منذ يومين، والعامل الفني لم يأت لإصلاحه، مع إنهم أبلغوه؛ والخبر لم يسمعه في حينه، فانتابه شعور بالضيق والفرح معًا. لم يتمالك إلا أن يقلب الجردل فيفرغ ما فيه كله أمام الخنازير، ثم رفعه ثانية وأمسكه من حافته، ومشى فدلف من الباب إلى داخل البيت، وقال لامرأته:

"المعيز وصصلت، وصصلت اليوم إلى الســو... الســـوق، أنا ذذاهب الآن للل... لأسحب واحدة منها".

كانت المرأة تغسل الأطباق لما جاء وكلمها، والخبر جعلها تكاد تصفق فرحًا، وكادت تقول شيئًا، لولا أن أسرع الصغيران فهتفا في وقت واحد:

"نريد أن نذهب ونسحبها معك".

صاح في ولده الأكبر: "وماذا تفعل بذهابك معي؟ أليس ممـن... ممن الأجدى لك أن تتت... تذهب إلى المدددرسة؟"

"اليوم أجازة، وليس هناك مدرسة".

"إذا ككنت ستأتي معي، فليبق أخوك الصغير لأنه يتعب سريعًا... ويضطط - ويضطرني إلى حمله على ككككتفي". وفي الحقيقة، فقد

تمنى لو استطاع اصطحابهما معه، لولا تدخل الزوجة وزجرها للجميع.

صاح شباوجيا باكيًا، متعلقًا بأخيه، قال إن بإمكانه المشي دون تعب، ذهابًا وإيابًا.

"لا تتعبني معك، ثم كككيف لرررجل مثلك أن يبكي هككذا؟"

خرجت امرأته من المطبخ وهي تمسح يدها في المنشفة، ثم صاحت في الجميع: "كلكم ستبقون هنا، وأنا وحدي سأذهب وآتيكم بالعنزة، فمن الأفضل أن أذهب أنا بدلًا من أي واحد هنا".

ارتبك آبينغ، واستغرب أن يكون ذهابه هو نفسه غير نافع، أسرع يقول لها:

"لككن العم بيبانغ لا يعرفك ججيدًا ... فما فائدة ذذهابك؟"

"حتى لو لم يكن يعرفني، فسأتصرف؛ وأنا أعرف كيف أتصرف في هذه الأمور"، ردت عليه، "لكني لا أعرف حقًّا ماذا ستفعل أنت لو ذهبت؟"

"ماذا تققصدين بككلامك هذا؟" سألها متلعثما، "الرجل صصـ... صصاحبي من زمن طويل، وليس بيني وبينه إلا كككل خير، فهل معقول أن يبخسسني حقي؟"

"لكن موضوع شراء المعيز جديد علينا، ولا ندري ماذا سيحدث!"

"لا عليك... لللن يحدث إلا الخخير وعلى مسسئوليتي هذه المرة... المشي؛ وسسأرجع لك بالعنزة".

ملامحه الجادة، وإصراره وشكله وهو يتكلم بثقة، جعلها تبتسم وتقول:
"طيب، رُح واعمل حسابك أن تنتقي معزى سليمة، واعرف أنك لو جئتني بعرجاء راكبها عفريت، فستكون لي الكلمة في أي بيع أو شراء بعد ذلك".

لم ينتظر زوجته حتى تكمل كلامها، فدلف إلى حجرة النوم ومعه ولداه، يلتصقان به كأنهما يخشيان أن يذهب دونهما، لكنه غاب وقتًا طويلًا بالداخل.

وضعت المرأة كومة الغسيل في الحوض، وصاحت متسائلة:

"فيم كل هذا الاختفاء بالداخل؟ بقى لك مدة هناك، لماذا لم تخرج حتى الآن؟"

"أغغير مـ ـملابسي"؛ أجابها من وراء الباب.

"أية ملابس هذه التي ستغيرها، إذا كانت أمامي الآن كل كومة الملابس التي عندنا؟ ثم لماذا كل هذا التأنق؟ هل ستتزين لعروس تدخل بها اليوم!"

واحتشدت نوبة جديدة من السخط والشتائم على لسان زوجته.

لم تكد تنتهي من نوبتها حتى انفتح الباب، ليخرج منه ثلاثة أفراد: رجل كبير وطفلان، كلهم في زي واحد، عبارةعن بذلة من طراز "العمال والفلاحين"، لونها أزرق فاتح، والبنطلونات بهت لونها قليلًا، لكنها نظيفة ومنشاة بأثر الكي الواضح فيها؛ بينما أمسك آبينغ بحبل متين، لزوم سحب المعزى.

تطلعت المرأة إلى ثلاثتهم: الكبير تام الخلقة، والصغيران اللذان لم يخرجا من البيضة، وضحكت بصوت مجروش من قوارح الحنك، فجاء أقرب إلى النخر منه إلى القهقهة، قالت:

"المهرجون الثلاثة".

5 - مهرجون ثلاثـة على الطريق

قال آبينغ لطفله الأصغر بكل وضوح: "إن لم تقدر على المشي، فقل لي، وأنا أحملك على كتفي"؛ لكنه ما كاد يبتعد عن البيت قليلًا، حتى بادر- من تلقاء نفسه- فرفع الولد، وأجلسه على كتفه جلوس الـ"ماماجيان"، أي امتطاء الكتف بهيئة ركوب الحصان. فالناس- لفرط عطفهم على الأطفال- يحملونهم هكذا، والرجل يحدب على ولديه كأي أب في الدنيا؛ ثم إنه اليوم بالذات فرحان، ومنشرح على غير العادة.

بمحاذاة الوادي، مشوا قريبًا من الميلين، ثم صعدوا قمة التل، فأشرفوا على الطريق المسفلت. كان اليوم عطلة، وسوق البلدة الأسبوعي يقام في هذا اليوم؛ فامتلأ الطريق بالرائحين والغادين، وكثير منهم معروف بالنسبة له؛ فسار بينهم يحمل طفله الصغير على كتفه، والآخر بجواره يمشي. وكلما التقى بوجه مألوف، ابتدره بالتحية والسؤال عن الصحة والعافية؛ وأحيانًا يبادر بحكاية شئونه قبل أن يسأله الآخر عن الأحوال، فيجيب على سؤال لم يُوجه

إليه: "أنا الحقيقة ذاهب إلى السوق لإحضار العنزة التي دفعت فلوسها مقدمًا..." وللعجب، فقد زال عن لسانه الثقل المعهود، لكن المؤسف أن من بين العشرات الذين حياهم وحيّوه، لم يكن سوى فرد واحد فقط أنكر معرفته به، وزاد الطين بلة ما لقيه من بذاءة لسانه. وكان أثناء الطريق قد حاول اللحاق بامرأة مسرعة، ظنًا منه بأنها من جيرانه، فناداها من ورائها:

"إلى أين، يا امرأة أخي؟ هل أنتِ معنا في الطريق إلى السوق؟"

التفتت نحوه، فإذا هي امرأة غريبة، ليست من أهل البلدة، وقد علت وجهها علائم الاستنكار؛ فحدقت فيه لحظةً، ثم تقبّضت ملامحها غضبًا وشتمته: "وسخ، ابن ***!"

احمرَّ وجه آبينغ من الحرج لما شتمته، شعر بلهب حارق قد تسلط على جسده، واشتعلت الدماء بعروقه، فسحب ابنه من يده، وأسرع الخطى وهو يسلط عينيه الثوريتين، أي المسحوبتين انسحاب عيني ثور، على الأرض، من شدة الخجل؛ فمضى منكس الوجه. ولشدة تصديقه للخرافة، اقتنع بأن ما حدث كان نذير شؤم من ساعته، وخاصةً وقد شتمته امرأة فاحشة اللسان؛ فهذا وحده كفيل بخراب جبال راسخة رسوخ الدهر!

6 – بعد طول انتظار، آبينغ يعود ساحبًا عنزة جبلية

وصل واكتشف أن المعيز وصلت قبله. وإذ لم يجدوا لها مكانًا بالسوق،

سحبوها ووضعوها في فصول المدرسة الابتدائية، باعتبار أن اليوم أجازة، والمكان غير مستعمل. غُصّت الحجرات عن آخرها (عددها زهاء سبعين حجرة) بالمعيز من أحجام مختلفة، بينما امتلأت الساحة بأصوات صاخبة، تصدر عن عشرات الأهالي المتجمعين في الخلاء الكبير.

كانت أول مرة يرى فيها الصغيران أعدادًا هائلة من المعيز على هذا النحو، فأخذوا يصيحون بنزق طفولي، بينما كاد الصغير شياوجيا يرمي بنفسه من فوق كتف أبيه نازلًا، ليندس مع أخيه الأكبر وسط القطعان وحلقات المشترين.

التقى آبينغ بكثير ممن يعرفهم، وقالوا له إن القطعان قد وصلت بالقطار أول أمس... في منتصف الليل بالضبط، وتم نقلها بعربات النقل، فلم تصل إلا فجر اليوم. ولأنه لم يكن يرغب في الإنصات إلى اللجاج من حوله، فقد أخذ يبحث- وهو جالس وسطهم- عن العم يانغ؛ فمن الضروري أن يجده الآن، بعدما بدا أنهم على وشك التوزيع. وهي ساعة حرجة تتطلب سرعة الوصول إلى صاحبه يانغ، وإلا تم توزيع البضاعة، حتى إذا بقي منها معطوب الرأس والذيل كانت من نصيبه، بعد كل هذا العناء. قام ودار عدة دورات هنا وهناك، فلم يعثر للرجل على أثر، فتوجس خيفة. ثم إذا به يلمح العم يانغ جالسًا في "مكتب المدرسين"، وكان يميل برأسه على الجالسين، ويهمس لهم بشيء في آذانهم، بينما انهمك أحدهم، وهو أصغرهم سنًا، بوجه وسيم وملامح تفيض ذكاء، بكتابة شيء على ورق مفرود أمامه. وحشد من الناس قد التم عند باب المكتب يتطلعون إلى الداخل، عيونهم فاحصة ورؤوسهم

تكاد تتلاصق. تقدم منهم وسمع أحدهم يقول: "الكلام ما يزال دائرًا بين الجميع، حتى الآن".

وقف عند الباب وهو يتطلع إلى داخل الحجرة، وينظر في وجوه الجالسين ويحاول أن يستشف فحوى "الكلام الدائر بينهم". ورأى عيونهم المنتفخة، وملامحهم المرهقة، والرؤوس الثقيلة المائلة كأن السهاد أعياها، ولم يعلق النوم بجفونها طيلة أيام. حتى وجه العم يانغ، الذي كان مدورًا وممتلئًا، بدا الآن مهزولًا، من أثر رحلة سفر طويلة... ربما؛ لكنه شعر بالتعاطف معه، على نحو عفوي. وفكر أن يدخل المكتب، ويسلم عليه، لكنه تردد قليلًا. في تلك اللحظة، رآه وهو يقوم واقفًا ويتجه ناحية باب المكتب، فأراد أن ينتهز الفرصة ويكلمه. وبالفعل تقدم، بخطوة واحدة، منتظرًا لحظة عبوره فوق عتبة الباب بالضبط، وتكلف ابتسامة متخشّبة، وقال له: "ها ققفد عدت... ععععدت أخيرًا، أيها العععم يانغ؟"

كان صوته خفيضًا جدًّا، وحتى لم يتأكد إن كان قد سمع العم يانغ يرد عليه بهمهمة أكثر خفوتًا، ثم استدار سريعًا كأنه تذكر شيئًا فجأةً، وعاد يانغ إلى الجالسين بالداخل، يقول لهم بصوت نافد الصبر: "طيب، إذا كان الأمر على هذا النحو، فما العمل، في رأيكم؟"

"اجلس، نتفاهم!" أشار له ذو البشرة السمراء، الجالس وسطهم.

مرةً أخرى، قعد بينهم، وتلاصقت رؤوسهم معًا، وتشاوروا همسًا.

"مؤكد أنه لم يرني جيدًا، لعله كان مشغولًا بما في رأسه فلم يرد عليَّ"،

قال آبينغ لنفسه.

"خلاص، اتفقنا!" قال العم يانغ بصوت جهوري، فالتفت إليه آبينغ، ورآه يقوم عن كرسيه، ويتجه صوب الباب سريعًا.

شعر من جديد بالحرج. ولم يكن قد استعد جيدًا هذه المرة بابتسامته اليابسة. كان العم يانغ قد مشى وتجاوز الباب فأسرع وراءه ليلحق به، قائلًا:

"ععععدت بخير...ياعم يانغ، أهلًا بعووددتك سسسالمًا."

فقط، بصوت أعلى قليلًا عن ذي قبل.

"آه، شكرًا، شكرًا!" أجابه العم متعجلًا، لسان ناطق وذهن شارد، واتجه صوب إحدى غرف الدرس.

مشى وراءه آبينغ مضطربًا، مندسًّا وسط حشد اللاهثين في إثره.

جاء أحد الموظفين البسطاء، ممن كانوا يقفون وسط الزحام، ووقف في طريق العم يانغ، وحدثه بشيءٍ ما، ثم أخرج سيجارة من جيبه العلوي وقدمها له، فتردد العم قليلًا ثم أزاحها بعيدًا، باليد المرفوعة إليه، وقال بصوت مسموع للواقفين جميعًا: "طبعًا كل واحد من الواقفين هنا يريد لنفسه أفضل عنزة، فقولوا لي ماذا أفعل لكي ألبي طلب الجميع؟ كلكم يريد شيئًا مستحيلًا، ولا أجد سوى حل واحد مريح: توزيع القطعان بنظام السحب بالقُرعة، حيث يسحب كل واحد ورقه فيها رقم محدد، ثم يُنادَى عليه ليستلم العنزة التي تخصه، بالعدل والمساواة، دون تمييز بين الامبراطور

وخادمه!"

كلمتان، قالهما فاحمر وجه الموظف البسيط، لكن حشد الواقفين هتفوا بالموافقة والاستحسان، قالوا: "بالضبط هكذا، معك حق في قولك، كل الحق معك!"

اعتبر آبينغ نفسه محظوظًا بعدم إلحاحه على العم يانغ منذ قليل؛ فلربما تسبب في مضايقته، ووقوعه- هو نفسه- في أشدّ المواقف حرجًا، وشعر في أعماقه أن صاحبه أثبت فعلًا أنه نزيه، بتصرفه المحترم أمام الجميع.

طلب منهم العم مغادرة المكتب، والتجمع في فناء المدرسة الكبير، والاستعداد لما سيطلبه منهم. فانصاعوا لرأيه بكل ارتياح، وخرجوا جميعهم دون الموظفين العاملين معه. ثم وقف عند حافة الدرج يكلمهم عن فائدة التوزيع بنظام السحب، وهم منصتون له، يهزون رؤوسهم بالموافقة قائلين- بين حين وآخر- إن هذا هو عين الصواب. وبعد لحظة، كان الشاب وسيم الملامح يأتي من داخل المكتب بكمية من الأوراق الصغيرة المربعة في صندوق، بينما انهمك زملاؤه في سحب منضدة كبيرة وصفين من المقاعد الطلابية المزدوجة، ونصبوا فوقهم شمسية كبيرة.

كل شيء أصبح جاهزًا الآن. وأشار العم يانغ إلى ذي البشرة السمراء الجالس إلى جواره، موجهًا كلامه إلى جمهور الواقفين، قال: "والآن، فإن الرفيق 'مو'، نائب مدير مكتب الخدمات المتنوعة، سينادي على أسمائكم، واحدًا واحدًا؛ وكل من يسمع اسمه يتقدم ليلتقط من هنا ورقة صغيرة مربعة عليها

أحد الأرقام، وبهذا الرقم يستلم العنزة".

ما كاد الرفيق 'مو' يتنحنح، تمهيدًا للمناداة على الأسماء، حتى صاح أحدهم فجأةً قائلًا:

"قبل كل شيء، لابد من حصر قطع الورق ذات الأرقام، ومطابقتها بعدد الأغنام؛ فلابد أن يكون العدد متساويًا بالضبط، دون زيادة أو نقصان".

لم يفهم آبينغ، بطبيعته التي تغلب عليها الطيبة والإخلاص، المغزى من كلام الرجل. وعندما حاول أن يستوعب ما قيل، على مهل، إذا به يسمع هتاف وصياح الواقفين، في صوت واحد: "تمامًا هكذا، هذا هو، لابد من العَد أولًا، بالضبط، نعم!"

قبع مكانه الرفيق مو، نائب المدير، بسحنته السمراء وجسده النحيل، وهو يتطلع إلى صاحب الاقتراح بنظرة متفحصة، فلاحظ أنه أسمر البشرة، وإن بصحة وافرة وبنيان متين؛ ربما كان في الرابعة أو الخامسة والثلاثين من عمره. أما الرفيق مو نفسه، فكان قد تجاوز الأربعين بقليل. المهم أنه أشاح عن الرجل صاحب الاقتراح، فاستدار وراح يرمق العم يانغ الجالس على مقعد صغير عند الحائط القريب، ويضيق عينيه كأنه يوشك على النعاس من كثرة الإرهاق. وتقريبًا، فلم يكن قد سمع شيئًا مما دار توًا.

أراد الرفيق مو، باعتباره نائب مدير الخدمات المتنوعة، أن يحسم الامر في الحال: "أنا أرى أنه لا داعي للعد الآن. فهذه مسألة بسيطة، وأي واحد منكم يستطيع أن يحسب بنفسه، وهو واقف مكانه. وأنا متفق معكم أنه

لا بد أن تتطابق أرقام الكوبونات مع عدد الأغنام؛ هذا صحيح. ولن تكون هناك زيادة، أؤكد لكم".

"المشكلة ليست في الزيادة، بل في النقصان"؛ أجابه الأسمر متين البنية.

كل هذا وآبينغ لم يكن يرى أية ضرورة للأخذ والرد بين هذا وذاك... وحتى لو كانت هناك زيادة، فما العيب؟ أو حتى لو اتضح أن ثمة نقصانًا، فما المشكلة في ذلك؟... راح يلعن الرجل الأسمر، بينه وبين نفسه، ويعتقد أنه من النوع الذي يحب الانشغال بتوافه الأمور. ثم إنه ليس من قبيل الاحترام أن يناكف موظفًا كبيرًا ومسؤولا محترمًا كالعم يانغ. فما الذي يجنيه المرء من التناطح مع كبار المسؤولين؟ فالمثل السائر يقول: مناكفة الطباخ تجلب السم في الأكل! فما بالك بالرجل، وقد أتعب نفسه، وسافر كل هذا المشوار من البلد البعيد "شانشي" إلى هنا، لينقل إلينا قطعان المعيز؛ أيستحق منا الآن هذه المضايقة؟

صدق من قال.. المشاكل مثل موج البحر، تأتي كل واحدة إثر أخرى. فبعد لحظة، صاح شاب يجلس عند حافة السلم المؤدي إلى الطابق الثاني متسائلًا عن شيء بدا مهمًّا؛ لكن- قبل أن يتم كلامه- قام إليه آخر أكبر منه سنًّا، وحاول مقاطعته. لكن يبدو أنه كان قد صرح بأهم ما عنده، ولا مفر من مواصلته:

"فماذا نفعل في العنزات التي أودعناها بحجرة الرياضة الواسعة بالداخل؛ هل يا تُرى سنضيفها كلها إلى إجمالي العدد، أم بعضها فقط؟"

سرت همهمة عالية بين جمهور المحتشدين، بعدما ظهر أن حجرة التربية الرياضية (المغلقة جيدًا، سوى من نوافذ صغيرة في الجدار) تحتوي على عدد من المعيز. وأسرع البعض لينظر من النوافذ المطلة على الساحة؛ استجلاءً لحقيقة الأمر.

"طبعًا، ستُضاف إلى إجمالي العدد!"؛ بعد لحظة قصيرة من التردد، أجابه الرفيق مو، ذو البشرة السمراء والجسد النحيل، وسمع الكل صوته العالي وهو يرد عليه.

وكان الشاب الجالس عند حافة السلم، صاحب السؤال المزعج، يحاول التفلّت من قبضة زميله، الموظف الآخر، الذي هجم عليه يريد منعه من الكلام، وقال بنفس اللهجة والابتسامة الساخرة على وجهه: "معنى هذا الكلام أن الكوبونات التي عندك لن تزيد عن مائة وثمانية بالضبط. هذا طبعًا باستثناء عدد العنزات الصغيرة، المولودة منذ يومين؛ فليس معقولًا أن نضيف إلى الكوبونات معيزًا ما تزال ترضع لبن أمها".

"لا، لن نضيفها إلى العدد بالطبع!" رد عليه الرفيق مو، وقد تكدَّر وجهه سخطًا، وفي سرّه كان يلعن 'هذا الكلب ابن *** الذي لم يدع للحساب أسرارًا'.

عندئذٍ، تكلم الرجل ذو البشرة السمراء، ابن الرابعة والثلاثين من العمر، قائلًا: "أقترح عليكم قراءة الكوبونات، بدءًا من آخر رقم، لتتأكدوا من أن مجموعها يبلغ مائة وثمانية".

"نعم، هذا هو!" ترددت الصيحات المتحمسة لرأيه، بينما لزم أكثر المحتشدين الصمت، خاصةً وقد اتضحت جليًا للعيان مظاهر الارتباك في وجوه الموظفين، فاكتفى الكل بمراقبة صامتة للملامح والتصرفات، عن كثب.

شيئًا فشيئًا، كانت عينا الرفيق مو، نائب مكتب الخدمات المتنوعة، تزداد جحوظًا، بالذات وهو يرمق الرجل ذا البشرة الداكنة التي تماثل لون بشرته، هو أيضًا؛ كان لا بد أن يكبح جماح غضبه الذي أوشك أن ينفلت، وآهٍ... آه، لو كان هذا الموقف قد حدث منذ سنوات قليلة ماضية؛ إذن لكان قد "سحق" هذا الكلب سحقًا. لكن الأيام تغيّرت، واليوم غير ما قبله، فلا بد أن يملك زمام نفسه. ثم إن الطرق "اللاذعة" في التعامل لم تعد محل قبول أو رضا من الناس في هذه الآونة.

عند هذا الحد، كان العم يانغ قد أفاق من غفوته، فانتبه وفتح عينيه، وقام واقفًا يتمطّى كمن صحا من رقاد طويل. ابتسم وتدخل في الكلام بلطف، قال:

"طيب، تعالوا نتكلم جميعًا بوضوح أكثر، فنحن سافرنا كل هذه المشوار الطويل إلى 'شانشي' لشراء المعيز. ولازم نعترف أن كل واحد من الرفاق الذين كانوا في السفر استبقى لنفسه عنزة. وهنا قد يأتي واحد من حضراتكم ويقول إن هذه محسوبية وكذا وكذا، أليس كذلك؟" ابتسم في كل الوجوه وتوقف برهة. ثم كان هو الذي أجاب على سؤاله بنفسه، قائلًا: "أقول لكم بكل صراحة، الأمر ليس فيه محسوبية من قريب أو بعيد، على الإطلاق. فالرفاق تعبوا كما تتعبون كلكم، وهؤلاء ناس مثلي ومثلكم، وهذه طبيعة

الناس، ومن حق الذين تعبوا أن ينالوا شيئًا على سبيل المكافأة؛ وإلا فلن يتحمس أحدٌ لأن يترك بيته وأولاده ويسافر ويتعب، وسيقول كل واحد منهم لنفسه: لماذا أسافر؟ ألم يكن من الأجدى توفير الجهد والعناء؟"

"كلام معقول جدًّا، ولنأخذ بهذا المنطق، أنا معك"، قال الرجل ذو البشرة الداكنة، مبديًا التفهم التام، دون الدخول في جدل وتفاصيل، وواصل قوله: "بهذا الحساب، أيها العم يانغ، فلنخصم من العدد خمس عنزات. وانظر إن كان لديك الآن مائة وثلاثة كوبونات".

في تلك اللحظة، جاء من ناحية الحجرة الكبيرة- التي جمعت فيها المعيز، وبطول الممر الجانبي- جاء رجل قصير في نحو الأربعين من عمره، وقف قريبًا من الحشد ورفع يده اليمنى، فاردًا أصابعه الخمس كأقلام مشرعة، وتكلم بصوت أجش، قال:

"ليسمعني الجميع هنا، أنا اسمي "تيو". وكنت مع الفريق المسافر لشراء الغنم من شانشي، وأعلن أمامكم جميعًا أني متنازل عن حقي في الحصول على أية عنزة!"

"جميل جدًّا. ومادام الأمر كذلك، فاخصموا أربع عنزات فقط من إجمالي العدد". قال الرجل الأسمر، "يعني المفروض أن يكون معكم الآن مائة وأربعة كوبونات".

عند حافة الدرج، اعتدل الشاب واقفًا، فرفع يده هو الآخر وأراد أن يقول شيئًا، لكن القاعد إلى جواره جذبه بعنف فأجلسه، ثم صفعه على

وجهه، دون أي رد فعل من جانبه، كأن بينهما درجة من التعارف أو التفاهم تسمح بقبول سلوك غليظ من هذا النوع، وربما كانوا أقرباء!

"أنصت، أيها المحترم 'تشانغ'، أنا لم أنته من كلامي بعد"، واصل العم يانغ حديثه إلى الرجل ذي اللون القاتم، وإلى جمهور المشترين في نفس الوقت، وقد امتلأ الوجه المدوَّر بابتسامة خالصة الود، ابتسامة توحي بالفهم التام لكل تلك الأشياء التي ترتسم فوق الملامح، من دون أن تعبر عن نفسها بلسان المتكلم، قال: "الأمور الآن أصبحت أكثر تعقيدًا عما مضى، وربما كان البعض منكم يعرف الظروف. ونحن اليوم قد اشترينا المعيز، لكن كل موظف ورفيق في الكومونة يريد شراء إحدى العنزات. ومن ناحية ثانية، فهناك حاجة مهمة لزيادة الثروة الحيوانية بالمناطق الجبلية النائية، مثل منطقتنا؛ ولا بد من تشجيع الموظفين على المبادرات المثمرة. فقل لي أنت، هل نعطيهم من الغنم أم نمنعهم؟"

هنا، عاد العم "تيو"، الواقف عند مدخل الممر المؤدي إلى محبس الغنم، يرفع يده اليمنى مجددًا، بأصابعه المفرودة على استطالتها. ولعلها عادة راسخة فيه من قديم، قال:

"للمرة الثانية، أيها العم يانغ، أؤكد للجميع أن معظم موظفي الكومونة هنا متنازلون عن حقهم في الغنم المجلوب من شانشي. وحسب معلوماتي الشخصية، فهناك أيضا بعض من أهالي الكومونة رفضوا شراء المعيز". انتهى من كلمته، وأطبق شفتيه مبتسمًا، وهو يخفض ذراعه جانبًا. ذلك هو العم "تيو" بقامته القصيرة؛ وليس قصر قامته هو الذي يشد انتباه من لا يعرفه

جيدًا، بل ما يتولد من انطباع سريع عنه كشخص محب جدًا للظهور. لكن مَن يعرفونه عن قُرب يحبونه، لأنه طيب ونزيه، وأكثر الناس قدرة على المصارحة، دون تردد.

"صحيح، فعلًا؛ ليس كل الرفاق من موظفي الكومونة يريدون شراء الغنم". بمزاج متعكّر قليلًا، حاول العم يانغ الاستطراد في تأكيد حجته، من زاوية أخرى، "لكن هناك آخرين، مثل موظفي قسم الماكينات الزراعية الذين نقلوا المعيز على المقطورات، ورئيس قسم الجرارات والسائقين وآخرين مثلهم، طلبوا نصيبهم من العنزات، فهل تتجاهل كل هؤلاء؟"

"بنفس هذا المنطق، فلابد أن تعطوا نصيبًا لناظر المدرسة هو الآخر، وللمدرسين أيضا". التقط الرجل الأسمر خيط الكلام، واستنتج على منواله.

"لا، ليس إلى هذه الدرجة، فليس عندنا ما يكفي لكل هؤلاء. لكن ما أردت التأكيد عليه هو أن هناك الكثيرين ممن يريدون لأنفسهم نصيبًا من البضاعة". هنا توقف العم يانغ ريثما يلتقط أنفاسه، هز رأسه وعلامات الحيرة والإرهاق بادية على ملامحه، بدرجة تحركت لها مشاعر آبينغ؛ فسرعان ما تعاطف مع يانغ... "هذا المسكين الذي تنهال فوق رأسه المشاكل، ووجع الرأس!"

لم يكن للرجل الأسمر قلب عطوف كهذا، بل كان قلبه جلمود صخر، إذ إنه صاح بكل جحود قائلًا: "لا يهمنا إن كان هناك كثيرين أو قليلين، اعمل حسابك أن تكرم الناس أولًا، وأنت حر فيما تبقيه للموظفين، فأهم

شيء أن يتبقى للناس النصيب الأكبر من الغنم".

فاض الكيل بالرفيق "مو"، واكفهرت ملامحه، واستولت عليه سَورة غضب هائل، تشوشت منها أفكاره؛ فلم يعد يدري ماذا يقول. انتزع الصندوق المليء بالكوبونات من يد الشاب الوسيم، فألقى به بعنف فوق المنضدة، محدثًا صخبًا مدويًا على إثر الارتطام، ارتجت له جنبات المكان، وفزعت الطيور الجاثمة في الطيقان وأسطح المباني وولت هاربة، وتناثرت الكوبونات في أنحاء متفرقة فوق الأرض والمنضدة.

"إذن، فتعال... تعال واشتغل أنت بدلًا منا!" زعق غاضبًا، "الواحد منا كاد يموت من التعب، وأنت تصدع رؤوسنا وتتكلم على هواك، كأن الأمور سهلة إلى هذا الحد!"

نظر الرجل إليه مرتبكًا، اختلج جفنه مرات متوالية، وقال له:

"وهل ممنوع أن أتكلم وأقول لكم رأيي؟" كانت لهجته هادئة، لا تنم عن رغبة في التصعيد أو الشجار.

جاء دور العم يانغ لكي يزجر الجميع ويهدئ الموقف: "خلاص، خلاص، يا حضرات". اتجه صوب الرجل الأسمر، فقال له: "كفى، إلى هذا الحد، يا أستاذ 'تشانغ'. وليوفر كل واحد منكم كلامه، وأنا سأشرح لكم كل شيء بوضوح، بعد أن نفرغ من الشغل الآن. ولابد أن يعلم الجميع مدى الإرهاق الذي أصابنا على مدى الأيام القليلة الماضية. فعذرًا إذا توترت أعصابنا... هيا، تعالوا اجمعوا هذه الأشياء المتناثرة، هيا بسرعة، فيم تقفون هكذا؟"

واستغل فرصة انشغال الموظفين مع الشاب ذي الملامح المهذبة- في جمع الأوراق والكوبونات المتطايرة- واتجه صوب الرجل الأسمر، وجذبه من ذراعه فانتحى به جانبًا؛ ليشرح له الموضوع... بوضوح تام!

فرغ صبر كثير من المحتشدين، وانطلقت صيحاتهم واحدًا بعد آخر: "متى تنادون على الأسماء؟ لِمَ كل هذا التلكؤ حتى الآن؟ نحن أيضًا لدينا أشغالنا ومصالحنا!" وقال أحد المزارعين بصوت خفيض: "أنتم تضيعون الوقت في الكلام، والمهم أن تنجزوا شيئًا".

ما هي إلا دقائق، حتى أخذ العمل مساره بكل سلاسة. أسرع العم يانغ فأخذ الصندوق من يد الموظف الشاب، وأخرج الكوبونات ووضعها أمامه؛ بينما انهمك الرفيق مو في المناداة على الأسماء المسجلة في القائمة. وتم سحب المعيز من المخزن على الترتيب. وطبعًا، فقد استغرقت هذه العملية وقتًا طويلًا بعض الشيء، فسارت الأمور ببطء ملحوظ، لا سيما وقد تطلب الأمر فرز العنزات حسب الأرقام المعلقة في أعناقها. فلم يكن الموضوع سهلًا بأية حال.

كان الصبي جياومو وأخوه، منذ وصولهما، قد قفزا بين حشود المشترين حتى انتهيا إلى أول الصفوف، ليتفرجا على الساحة والموظفين والمكتب والصخب الدائر في هذه الناحية؛ بينما انتحى آبينغ جانبًا وجلس تحت ظلال شجرة الـ"كويهوا"، بعيدًا عن الضوضاء الجارية من حوله. بيد أنه أدرك- على نحو ما- شيئًا من فحوى الجدل الدائر: فالموضوع كله ينحصر في أن إحجام الموظفين عن عد الكوبونات ومقارنتها بالكشوف يرجع إلى أنهم تواطأوا

خفيةً على انتقاء عدد من العنزات، وإخفائها لتكون تحت تصرفهم. ومع ذلك، فلم يكن ليلومهم على شيء مثل هذا. لماذا؟ لأن هؤلاء الناس يتعبون ويشقون أكثر مما نتخيل، ثم إنهم أيضًا يحبون أن "يأكلوا هنيئًا من يد الطباخ، دون أن يضع لهم السم في طعامهم!" وفوق ذلك، فهم أيضًا مثل كل الناس، لهم معارفهم وأقرباؤهم الذين يتوقعون المجاملة. وعند هذه النقطة بالذات، انتعش في قلبه طيف من الأمل: تُرى هل يكون من بين المعيز التي استأثر بها الموظفون ثمة عنزة اختصه بها العم يانغ؟

خطرت الفكرة على باله، وتأملها قليلًا، وقال إنه ليس بعيدًا حقًا أن يكون هذا هو ما يجري الآن. وبالتالي، فلا داعي لأن يتعب نفسه بمتابعة عملية الشراء، وليجلس هادئًا في الركن القريب. فربما ناداه العم يانغ ليستلم عنزته، بعد أن ينفض كل هذا الصخب مع الآخرين.

بالصدفة، ترامى إلى سمعه حوار دائر بين اثنين من الواقفين، غير بعيد عنه، قال أحدهما للثاني: "ليتني أحصل على العنزة المسجلة تحت رقم 37"؛ رد عليه الآخر قائلًا: "بل العنزة رقم 99 هي الأفضل بين القطيع كله، هكذا كما أقول لك".

عاد محاوره يقول: "أيًا ما كان الأمر، فلست أحب أن يكون الرقم 33 من نصيبي". قال له الثاني: "أعجف المعيز جميعًا هي تلك المسجلة برقم 66، فمنظرها يوحي بأنها مريضة. فهي نحيفة ومهزولة للغاية، مثل هذا الجالس هناك تحت شجرة الـ "كويهوا"".

لما أدرك آبينغ أن الكلام يشير إليه هو بالذات، تضايق وقال في نفسه: لماذا يجب أن تكون هناك عنزة عجفاء ونحيفة مثلي؟

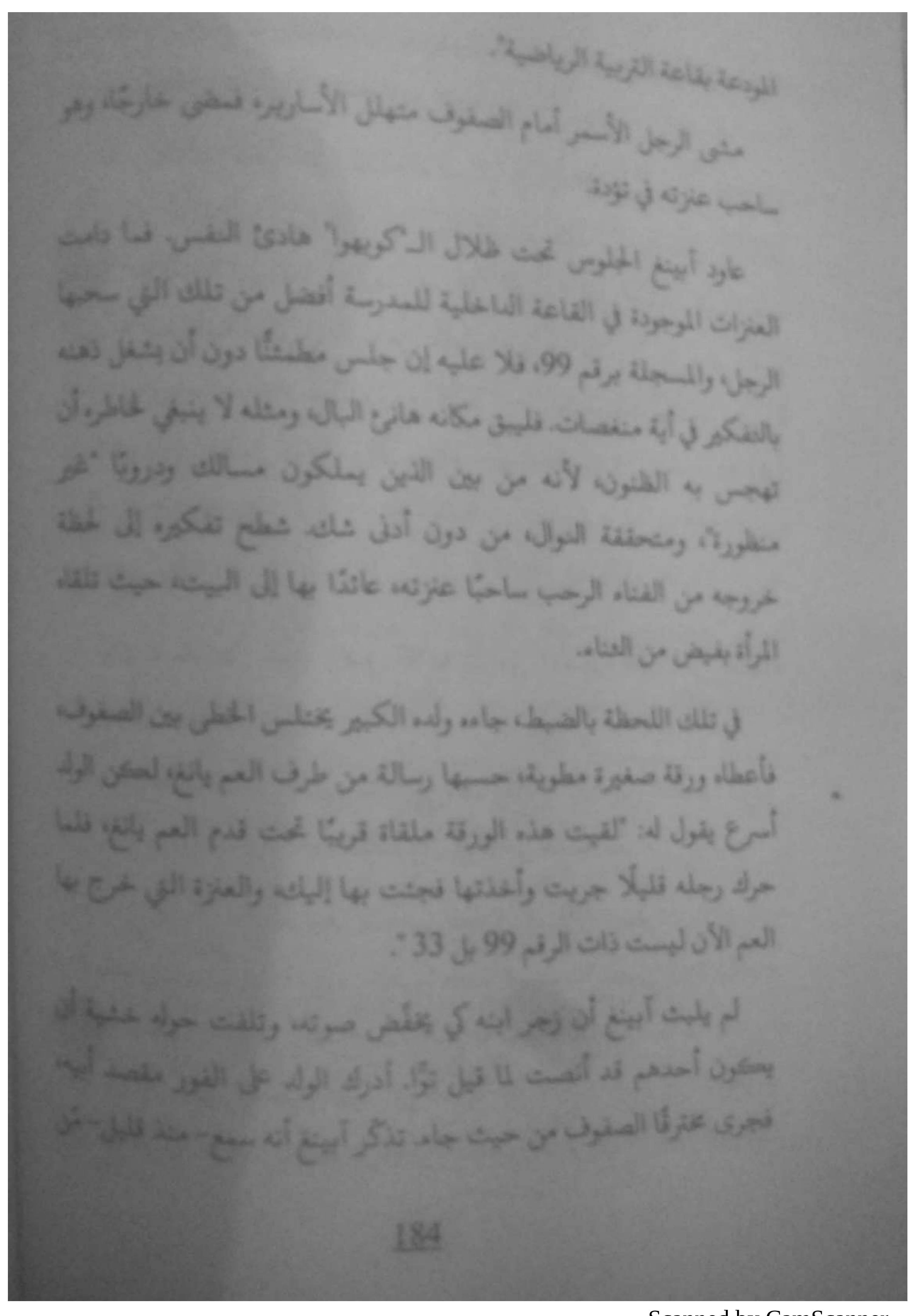
خيم الهدوء، فجأةً، على الساحة، عندما نودي على اسم الرجل الأسمر. ولأنه كان صاحب الجلبة التي دبّت بين الجميع، فقد تركزت عليه الأنظار لترى أية نعجة سيحصل عليها بعد كل الضجة التي تسبب فيها، منذ الصباح. قام واقفا آبينغ في شيء من الفضول، وأخذ يتابع الرجل وهو يتقدم خطوات، ويمد يده تجاه الصندوق، ويلتقط أحد الكوبونات ليقدمه مباشرةً إلى العم يانغ الجالس أمامه، وعلى وجهه أمارات الضيق؛ فتسلمه منه وقرأ الرقم بصوت جهوري:

"الرقم 99"

بصوت خفيض جدًّا، واصل كلامه للرجل الأسمر، قال: "من حظك، فهذه عنزة جيدة".

سرت همهمات بين جمهور المشترين، فمن قائل: "يا له من محظوظ!"، ومن متشكك يرى أنه سيء الحظ تمامًا، وأن في الأمر خُدعة ما.

مشى الرجل خارجًا، وهو يسحب العنزة رقم 99، ونظرات الإعجاب تلاحقه، وتشيد بمزايا المعزى... انظروا كم هي طويلة العنق! قوية مكتنزة ودقيقة الحافر! والبعض امتدح ضخامة الجسد، قائلا إن: "بطنها مدوّرة، وظهرها عال، حتى ليمتطيها المرء مثل حمارة!" وفي ناحية أخرى من الصفوف ردد البعض كلامًا بصوت خفيض، قالوا: "أحسن المعيز على ما يبدو هي تلك



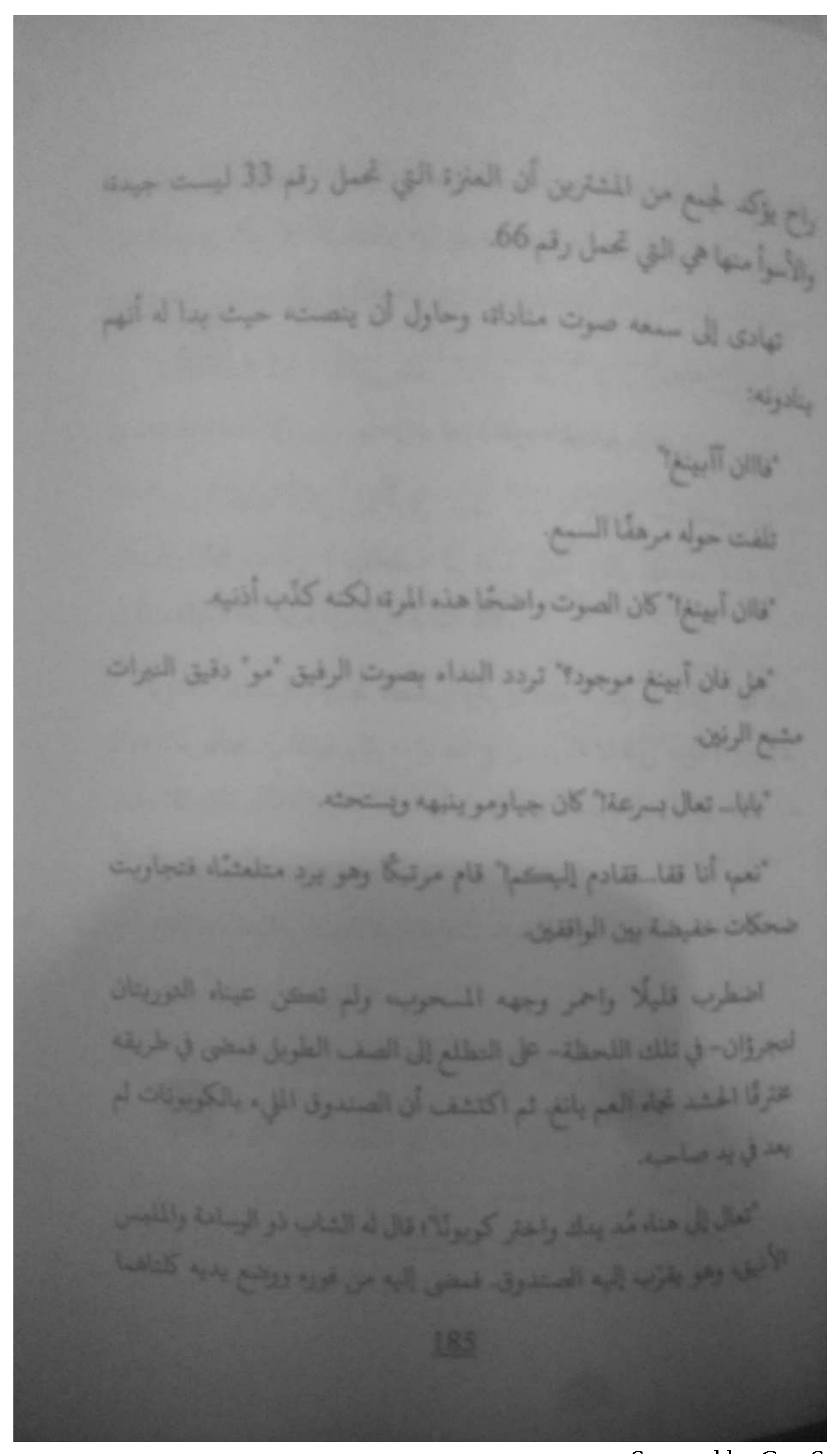
المودعة بقاعة التربية الرياضية".

مشى الرجل الأسمر أمام الصفوف متهلل الأساريرء فمضى خارجًا، وهو ساحب عنزته في تؤدة.

عاود آبينغ الجلوس تحت ظلال الـ"كويهوا" هادئ النفس. فما دامت العنزات الموجودة في القاعة الداخلية للمدرسة أفضل من تلك التي سحبها الرجل، والمسجلة برقم 99، فلا عليه إن جلس مطمئنًا دون أن يشغل ذهنه بالتفكير في أية منغصات. فليبق مكانه هانئ البال، ومثله لا ينبغي لخاطره أن تهجس به الظنون، لأنه من بين الذين يملكون مسالك ودروبًا "غير منظورة"، ومتحققة النوال، من دون أدنى شك. شطح تفكيره إلى لحظة خروجه من الفناء الرحب ساحبًا عنزته، عائدًا بها إلى البيت، حيث تتلقاه المرأة بفيض من الغناء.

في تلك اللحظة بالضبط، جاءه ولده الكبير يختلس الخطى بين الصفوف، فأعطاه ورقة صغيرة مطوية، حسبها رسالة من طرف العم يانغ، لكن الولد أسرع يقول له: "لقيت هذه الورقة ملقاة قريبًا تحت قدم العم يانغ، فلما حرك رجله قليلًا جريت وأخذتها فجئت بها إليك، والعنزة التي خرج بها العم الآن ليست ذات الرقم 99 بل 33".

لم يلبث آبينغ أن زجر ابنه كي يخفض صوته، وتلفت حوله خشية أن يكون أحدهم قد أنصت لما قيل توًا. أدرك الولد على الفور مقصد أبيه، فجرى مخترقًا الصفوف من حيث جاء. تذكر آبينغ أنه سمع- منذ قليل- من



راح يؤكد لجميع من المشترين أن العنزة التي تحمل رقم 33 ليست جيدة، والأسوأ منها هي التي تحمل رقم 66.

تهادى إلى سمعه صوت مناداة، وحاول أن ينصت، حيث بدا له أنهم ينادونه:

"فاان آابينغ؟"

تلفت حوله مرهفًا السمع.

"فاان أبينغ!" كان الصوت واضحًا هذه المرة لكنه كذّب أذنيه.

"هل فان أبينغ موجود؟" تردد النداء بصوت الرفيق "مو" دقيق النبرات مشبع الرنين.

"بابا... تعال بسرعة!" كان جياومو ينبهه ويستحثه.

"نعم أنا فقا... فقادم إليكم!" قام مرتبكًا وهو يرد متلعثمًا، فتجاوبت ضحكات خفيضة بين الواقفين.

اضطرب قليلًا واحمر وجهه المسحوب، ولم تمكن عيناه الحورتان لتجرؤان- في تلك اللحظة- على التطلع إلى الصف الطويل فمضى في طريقه مخترقًا الحشد تجاه العم بانغ، ثم اكتشف أن الصندوق المليء بالكوبونات لم يعد في يد صاحبه.

"تعال إلى هنا، مُد يدك واختر كوبونًا!" قال له الشاب ذو الوسامة والملبس الأنيق وهو يقرب إليه الصندوق. فمضى إليه من فوره ووضع يديه كلتاهما

بداخله، وراح يقلب الكوبونات حتى التقط واحدًا منها بيد، بينما التقطت يده الأخرى كوبونًا آخر، فآثر أن يتقدم بهذا الأخير إلى الموظف الشاب، وراح يتطلع إليه بكل الثقة وهو يقرأ الرقم المدوّن.

"كيف هذا؟ كيف يتكرر نفس الرقم... نفس الرقم 99 ؟" صاح الشاب في دهشة، متطلعًا إلى رئيسيه، وقد امتلأ الوجه الوسيم بالحيرة.

"كيف؟ هات الكوبون، أرني كيف حدث هذا؟" مدَّ العم يانغ يده فأمسك بالكارت، وراح يتفحصه ثم قلبه بيده، وقال بهدوء: "أنت قرأت الرقم مقلوبًا، الصحيح أن تقرأه هكذا 66".

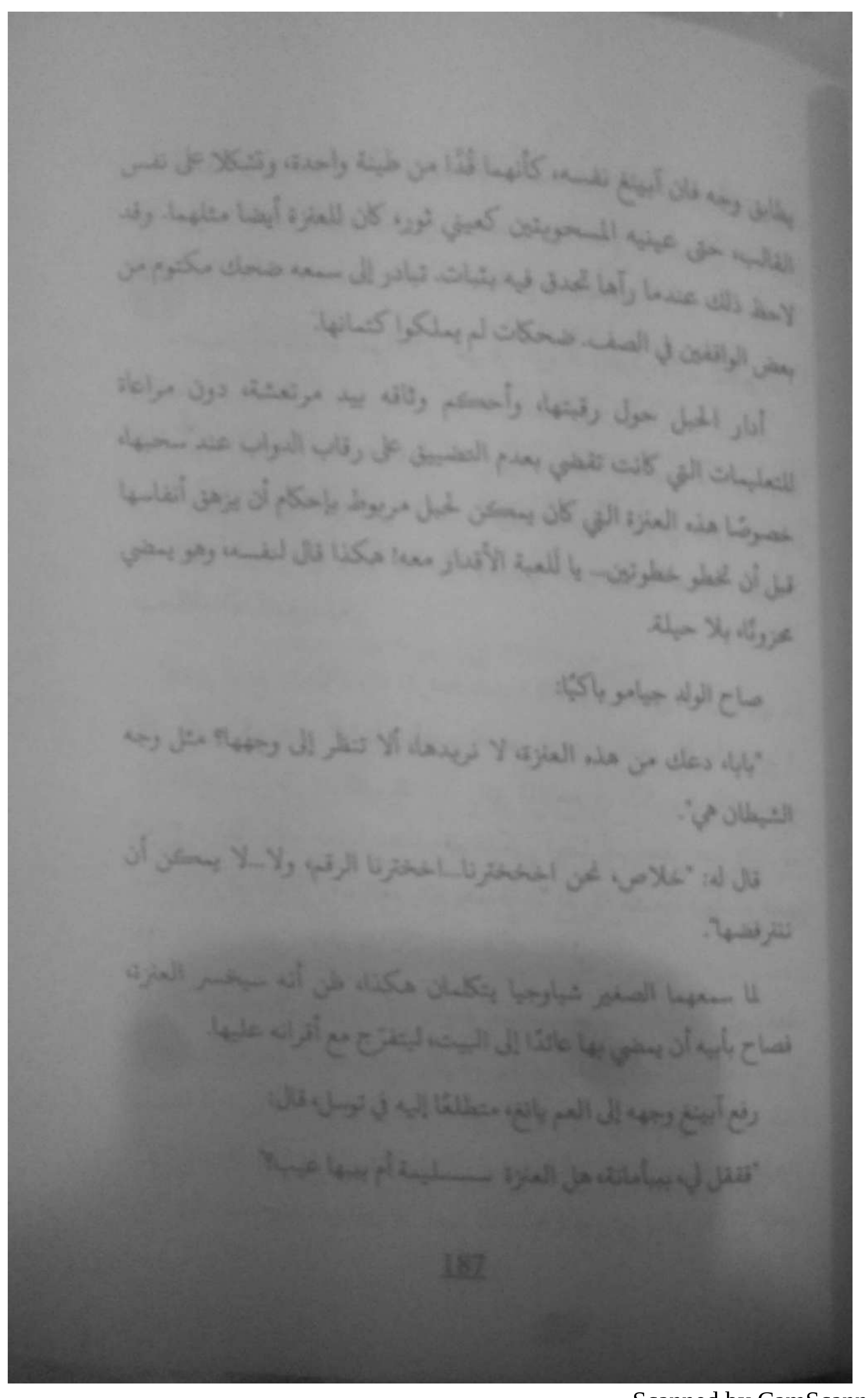
ترددت الهمهمات وسط الصف، ولم يستطع آبينغ أن يميز منها شيئًا، لأنه شعر بطنين في أذنيه. وكل ما استطاع أن يدركه مما قيل حوله لا يزيد عن عبارة قصيرة... "العنزة رقم 66 أسوأ واحدة في القطيع كله، ليس هناك حظ أنكد من هذا!"

هنالك، سمع الموظف الآخر، الواقف عند الممر، ينادي:

"الرقم 66 ، فان آبينغ"

مذهولًا، راح يتطلع بعينيه المسحوبتين، كعيني ثور، تجاه الممر.

جيء إليه بالعنزة المسجلة بالرقم 66، فإذا بمنظرها يبعث على الرثاء: كانت مهزولة عجفاء لم يكد يبقى من جسدها إلا هيكل عظمي يتحرك؛ في رأسها قرنان معوجان ناتئان بشكل غير عادي، والوجه مسحوب يكاد



يطابق وجه فان أبينغ نفسه، كأنهما قُدّا من طينة واحدة، وتشكلا على نفس القالب، حتى عينيه المسحوبتين كعيني ثور، كان للعنزة أيضًا مثلهما. وقد لاحظ ذلك عندما رآها تحدق فيه بثبات. تبادر إلى سمعه ضحك مكتوم من بعض الواقفين في الصف، ضحكات لم يملكوا كتمانها.

أدار الحبل حول رقبتها، وأحكم وثاقه بيد مرتعشة، دون مراعاة للتعليمات التي كانت تقضي بعدم التضييق على رقاب الدواب عند سحبها، خصوصًا هذه العنزة التي كان يمكن لحبل مربوط بإحكام أن يزهق أنفاسها قبل أن تخطو خطوتين- يا للعبة الأقدار معه! هكذا قال لنفسه، وهو يمضي بحزونه، بلا حيلة.

صاح الولد جيامو باكيًا:

"بابا، دعك من هذه العنزة، لا نريدها، ألا تنظر إلى وجهها؟ مثل وجه الشيطان هي".

قال له: "خلاص، نحن اخخخترنا...اخخترنا الرقم، ولا...لا يمكن أن نترفضها".

لما سمعهما الصغير شياوجيا يتكلمان هكذا، ظن أنه سيخسر العنزة، فصاح بأبيه أن يمضي بها عائدًا إلى البيت، ليتفرج مع أقرانه عليها.

رفع أبينغ وجهه إلى العم بائع، متطلعًا إليه في توسل، قال:

"فقل لي، بيأمانة، هل العنزة سسسليمة أم بها عيب؟"

تأملها الرجل قليلًا، وأجابه بكلام محدد، قال: "أؤكد لك أنها سليمة تمامًا، ربما أتعبها المشوار الطويل... يومان من السفر الشاق، كل ما عليك أن تعلفها جيدًا، وستجدها مليئة بالعافية، في مدة بسيطة".

سحب وراءه العنزة رقم 66 ومشى في طريقه، وبجواره الولد الكبير الذي يشبهه في استطالة وجهه. وجهان طويلان مسحوبان يغشاهما الانكسار. فقط الولد الأصغر، وحده، بوجهه العريض، يتقافز لاهيًا يكاد يطير فرحًا. ووحده أيضًا الذي اقترب من مؤخرة المعزى، فضربها وهو في غمرة شقاوته؛ بيد أنها أدارت نحوه وجهًا ساخطًا وقرنين مشرعين بالتهديد، فتبددت ضحكاته العابثة، في الحال.

مشى آبينغ ساحبًا عنزته المرقمة بالعدد 66، ولم يكن له أن يدري بما كان يجري في الممر الداخلي بالمدرسة، حيث جاء الدور على أحدهم في الاستلام؛ ولما نظر الموظف الشاب رائق الملامح في الكوبون الذي أمامه صاح مرتبكًا: "غير معقول، هذا رقم متكرر أيضًا. ألم نكن منذ قليل قد سحبنا الرقم 66 ؟" ومَد العم يانغ يده، فأخذ الورقة متمعنًا فيها، ثم قلبها وهو يقول: "يا بني، الرقم هنا 22 ، أنت قرأته بالمقلوب".

في طريقه إلى البيت، كان آبينغ يستعيد تفاصيل الأشياء في ذهنه، والصورة تتكشف له بالتدريج. فكر وقال لا يهم، ليس مُهمًّا إن كانت العنزة سمينة أو هزيلة، والجميع سيعودون آخر المطاف إلى بيوتهم بواحدة من هذه أو تلك، وكل بضاعة لها مشتريها. فإن لم تكن أنت المشتري فغيرك آخذها، ولا يبقى في حوزة الموظفين إلا أجود الأشياء؛ لأنهم لن ينالوا إلا ما طاب.

وعلى منوالهم، يشتهي كبار مسئولي الكومونة أحسن المعيز. ولئن كان الجميع محتفظين لأنفسهم بالأطيب، فمن إذن سيأخذ سقط المتاع؟ العم يانغ معذور، وليس في يده حيلة لهذا الأمر؛ لذلك، فلا يجب أن يشكو المرء مما وقع في نصيبه. وإذا كان هناك مَن يستحق اللوم في جلب المتاعب فهو آبينغ نفسه، ساعة أن تعرض للمرأة- وهو في الطريق لشراء المعزى صباح اليوم- فكان هذا سببًا للنحس الذي جلبه على نفسه من حيث لا يدري. ولو كان في قلبه ذرة عتاب على العم يانغ، فقد تبددت الآن تمامًا.

7- سيل من الشتائم في استقبال العائد بعنزة

التمس آبينغ العذر للعم يانغ، لكن امرأته لم يكن عندها استعداد لشيء من هذا القبيل. وكانت قد دخلت من الباب المؤدي إلى الفناء لحظة دخول آبينغ ساحبًا العنزة، فانقلبت سحنتها البيضاء المستديرة إلى الانقباض على الفور. تراجعت خطوة إلى الوراء، ثم دارت حولها تتفحصها وتقلب فيها النظر. ولم يلبث سيل الشتائم أن انهمر مدرارًا على لسانها الحاد. وصل عددًا من الجيران خبر شراء آبينغ للمعزى، فجاءوا يستطلعون الأمر، وأثاروا بمجيئهم جلبة هائلة؛ لكنهم فوجئوا عند الوصول بصياح امرأته:

"بحق أجداد أهلك، يا آبينغ، هل هذا ماجئتني به؟ هل هذا منظر عنزة؟

لماذا انتقيتها شاحبة مهزولة، جلدًا على عظام، يكاد جلدها يتهشم بمجرد لمسة! هذه عنزة عجوز... كلا، بل هي أسن مخلوق رأيته في حياتي. هي حتى أسنّ مني أنا بعشر سنوات على الأقل. فهل سأجد لبنًا في ضرعها؟ وكم تُدر عليّ في اليوم؟ لا أظنني سأجد قطرة حليب في هذا الضرع اليابس مثل ثمرة باذنجان ذابلة. تبدو مسنة حقًّا، لدرجة أنها قد تعجز حتى عن التبول. كم أخشى أن تموت وقد حُصر البول في بطنها؛ فما بالك إذا حاولنا استدرار لبنها؟ هل أنتِ عنزة مثل كل المعيز، يا أم الشيطان؟ أكلمك كأني أكلم شيئًا يسمعني... شيء بعيون خضراء يحدق فيّ دون أن تطرف عيناه مثل شيطان، أنت أيها العفريت الغبي... أكلمك الآن أيها الغبي، فاسمع ملء أذنيك القذرتين!"

هاتان العبارتان الأخيرتان كانتا ضمن كلام المرأة للعنزة الجبلية.

وقتئذٍ، أراد شاب من الجيران أن يبدِّد مشاعر المرأة بالخسارة، فألقى بقفشاته الظريفة:

"لا تنسي، ياخالة، أنها عنزة من 'شانشي'؛ يعني من أهل الجنوب. ولذلك، فهي لا تفهم لهجتنا هنا، ولا أظنها تعرف إن كنت تمدحينها أم تسبينها. كان عليك أن تحدثيها بلهجة الجنوبيين".

"وأين لي برطانة أهل شانشي؟" ردت سريعًا، وواصلت بلسانها الحاد، "ثم إني لست بهيمة كي تعلمني أحاديث الحمير والخرفان. فإن كنت جئت لتتسلى بمصيبتنا، فلتمسك لسانك عنا، هذه الساعة!"

وقع الحرج عليه مثل موقد مُسعر بالنار، وأدرك أنه ليس كفئًا لمحاورة حامية، فسكت.

كل هذا والعنزة واقفة مكانها. ثم دبَّت الحركة في أوصالها. ربما بعد كل ما دار حولها، أرادت أن يكون لها "حضورها" الخاص، أو عساها أرادت أن تقدم تحيتها بطريقتها للمرأة صاحبة الدار؛ خصوصًا بعد هذا السيل الغامر من الترحيب العاطر بمجيئها. فالسكوت في وجه كرم الضيافة عار وسوء أدب! باعدت ما بين رجليها الخلفيتين (الهزيلتين كحبل رفيع من كتان)، ثم أناخت النصف الثاني من الظهر بالمؤخرة، كأنها توشك على طقس الركوع أمام سيدتها.

لكنه الركوع الذي لم يرُقْ لامرأة آبينغ، لأنها عرفت ما وراءه، فاستشاطت غضبًا، وزعقت: "آآآبيوو، جئنا على ذكر البول فبالت! كأنها تقول لي إنها بصحة وعافية؛ هيا إذن، بولي لأجل خاطر أمك! هيا، أريني كيف تبولين يا امرأة العفريت!" راحت زوجة آبينغ هي الأخرى توسع ما بين ساقيها، وتراقب العجفاء المصرفة لبولتها، تقول لها: "ماذا؟ هل هذا كل ما عندك؟ أليس لديك شيء آخر غير تلك القطرات الضئيلة؟ وهل يعد هذا تبولًا طبيعيًا علمتك إياه أمك العجوز؟"

ارتج الحوش بضحكات الجيران على كلامها للمعزى.

لكن المرأة نفسها كانت أتعس من أن تشاركهم الضحك.

واتجه آبينغ إلى صخرة مربعة عند الباب، فقعد عليها متجهمًا.

أما العجفاء الجبلية ذات الرقم 66، فدارت بعنقها وثبتت أنظارها على الواقفين في الفناء، وقد لبثت مكانها دون حراك، كأن ثمة شعورًا بالخزي قد حط عليها. وجاء إليها الصغير شياوجيا بحزمة حشيش ليطعمها، لكنها لم تقربها. تكلم أخوه الأكبر ليكشف اللثام عن خبيئة أبيه، ويقدم للجميع شهادة توريط واضحة: "ماما، لم أكن أريد هذه العنزة بالذات، لكنه أبي الذي أصرَّ بشدة على انتقائها!"

"حتى الولد الصغير كان أكثر وعيًا منك، ما الذي دهاك حتى تفقد رشدك هكذا؟ ألست كبيرًا بما فيه الكفاية؟" انهالت امرأته عليه: "أنت ستقضي عليّ، ستهلكني بتصرفاتك الخرقاء، لا أدري أين أضعت حذقك وعقلك؟ وتجلس أمامي- بعد كل هذا- فلا تنتفض وتقوم تسحب هذا الشيء، عائدًا به من حيث جئت، وتعيد لنا السبعين يوانًا، فنرتاح من الديون الثقيلة".

أخذ آبينغ، ذو القلب الطيب، يحدق فيها شزرًا بعينين جاحظتين كعيني ثور حانق، وازداد تلعثمه وهو يقول لها: "الكككلام سسهل، ما أسسهل أن تتطلبي إرجاعها، ططيب، اذذهبي وقولي لهم لا ننريدها، فقولي لهم خخذوها ولا ننريدها، سساعتها لن يعططونك ننقودك!"

"يا للعجب، لماذا لا أستعيد نقودي؟ ألم ترجع إليهم بضاعتهم سليمة؟ هل قطعت لحمها وشويته؟ هل تنقص رقبة أو ذراعًا؟ هل كسرت لها قرنيها؟ لماذا لا يعيدون النقود إذن؟"

"إذا ككنت لا تريدينها فهذذه مشككلتك ... ثم إن أحدًا لن يأخذها

ما دددامت بضضاعة راجعة".

ما إن نطق بعبارته الأخيرة حتى استعرت نار غضبها، فانفجرت فيه:

"أهكذا؟ وهل لأن أحدًا لن يرضى بها غيري، أضطر أنا إلى أن أقبلها رغم أنفي؟ وهل أنا سيدة القناعة المثالية، هل أنا إذن 'العمة المتسامحة'؟ أي كلام هذا؟ ومن يقبل هذا الظلم؟"

وجد الولد جياومو الفرصة تسنح للمرة الثانية، كي يكشف مستورًا ثانيًا، فصاح قائلًا: "أتعرفين، يا أمي، أني كنت التقطت ورقة رقمها 99، وقالوا لي إنه رقم أفضل عنزة عندهم، فأخذها منا الرجل المدعو "تشانغ"- الذي يأتي بالمعيز من المخزن- وأعطانا بدلًا منها رقم 33. لكن العم يانغ قال إن رقمنا الصحيح يجب أن يكون 66، وأصر على إعطائنا هذه المعزى اللعينة".

"أنت ولد ككذاب، مماذا تتفهم أنت؟ هل عندك عقل تتفهم به مثل النناس؟" صاح آبينغ زاجرًا ولده.

"أبدًا، يا بابا، هذا حصل فعلًا، أنا لم أكذب!" دافع جياومو عن نفسه بإصرار.

انبجست التأوهات المتحسرة من صدر المرأة، وتدفقت كلماتها الغاضبة مثل سهام متأججة باللهب؛ اندفعت سيلًا متتابعًا حتى كادت تتحشرج وتنكتم أنفاسها من اللهاث الخانق: "ولماذا يتصرف العم يانغ معك بهذه الطريقة؟ هه؟ الرجل ذو الضمير الأسود! يا لك من رجل قاتم السحنة أسود

القلب! (كانت تنعته بأخس الصفات، وكأنها تحدثه وجهًا لوجه)... أهذا هو الذي قال بأنه سوف يساعدك في شراء أحسن الغنم؟ كم نصحتك ألا تصدقه، وألا تأخذ كلامه على محمل الجد؛ لكنك جادلت بأن كلامه محل ثقة وأنكم أصدقاء من زمن بعيد. لكن الرجل الآن تولى منصبًا كبيرًا في الكومونة، يروح ويجيء هنا وهناك، والناس تعظّم شأنه لأنه مسئول كبير، وأنت تعرف عنه الكثير، وتغلق فمك؛ لكنه لا يغلق فم الجشع، أليس كذلك؟ إنه حتى لم يكلف خاطره بأن يفعل شيئًا بسيطًا من أجلك. لديه كل شيء، ومع ذلك فلم يكلف نفسه بأن يضع في فمك قطعة من الكرز! والغريب أنك ما تزال تثق به حتى الآن، تثق به ولا تحاول أن تسحب العنزة المعطوبة، وتذهب إليه فتقول له أن يسوي الأمر، بلا ضوضاء، هذا هو الحل!"

دارت به الأرض. لم يدر ماذا يفعل... "لكن كيف؟ وما ذذذنب العم يانغ إذذا كككنت أنا الذي سحححبت الورقة؟" استاء مما قالته امرأته على ملأ من الناس؛ فلم يكن يحق لها أن تتكلم بهذا الشكل أمام الجيران. لم يكن يحق لها أن تتناول العم يانغ بهذه الأسلوب، هل هذا معقول؟ عمومًا، فقد كان يعرف- في قرارة نفسه- أن كلامها تعبير عن قلة حيلتها، وهو لن يستطيع أن يفعل شيئًا حيال ذلك، لم يبق في جعبته سوى الارتباك؛ وكلما ارتبك استفحل تلعثمه.

"الورقة، إذن، كانت من اختيارك، ويا لَسوء ما اخترت!" واصَلَتْ تقريعه، "اذهب الآن إلى الرجل، وحاول أن تجد حلًا وتسوي الأمر معه، بأية طريقة، حتى لو اضطررت لأن تطأطئ رأسك له، راكعًا متوسلًا. فالعم يانغ ذو سلطة

نافذة (أظفاره حامية، وإذا أنشبها في جسد فسيؤلمه بحق، بل ويدميه)" التقطت أنفاسها سريعًا، ودارت بجسدها نصف دائرة، وقصدت أن توجه كلامها إلى آبينغ من جانب، والجيران من جانب آخر، استكمالًا لنفس لهجة التأنيب التي ابتدرته بها، حين جاء من السوق: "ألم أقل لك بأن أذهب أنا، عندما جاءنا الخبر صباح اليوم؟ قلت أذهب أنا بدلًا منك، لأنك طيب القلب، ولا تدقق كثيرًا، إذا أعطوك بضاعة تالفة. لكنك رفضت ذهابي بدعوى أن العم يانغ صاحبك، صديق عمرك، ولن يبخسك حقًّا، لأنه هو نفسه الذي وعدك بذلك، حتى تصورت أنه سينتقي لك عنزة مصنوعة من ذهب. وها هي طيبة قلبك! انظر نتيجة ما جاءنا من طيبة قلبك: عنزة مهزولة سحنتها كوجه عفريت! كنت تبدو صباح اليوم، وأنت تتأنق وترتدي أحسن هدومك، كأنك ذاهب لحفل عرسك. كنت تبدو كأنك ستعود بأحسن غنيمة، فانظر الغنيمة التي فزت بها!"

هنالك تحولت أنظار الجميع إلى آبينغ، يتفحصون شكله وهيئته. ولوحظت ملابسه النظيفة، وإن بهتت ألوانها. تضايق آبينغ من تحديقهم فيه ونظراتهم التي تسلطت عليه طولاً وعرضًا؛ فانكمش على نفسه من شدة الشعور بالحرج.

والواقفون عند باب الحوش من الجيران كانوا يتفرجون ويتابعون ما يجري، بشيء من المتعة. نعم، فقد قال قائلهم- ذات مرة- إن سماع صراخ وشتائم امرأة آبينغ، في هذه الناحية، يعد "أرفع" مجالات الاستمتاع في أجواء فرق الانتاج الجماعية؛ لأن المرأة لم تكن تكرر المعتاد من عبارات الزجر

والتأنيب أو حتى الشتم والسب المقذع، بل كانت تنتقي أساليب مبتكرة وتعبيرات جديدة، لدرجة أنها قد تقضي اليوم من صُبحه إلى عشيته وهي تعيبه وتلاسنه، بشتى الكلمات التي لم يسبق لها مثيل، دون أن تكرر شيئًا معتادًا، ودون أن تقول كلامًا فارغًا أيضًا. ويعرف جيرانها أنها نشيطة وماهرة وخدومة جدًّا، بالإضافة إلى قدر هائل من "الشهامة" في تعاملاتها مع الجميع وللحقيقة، فلم تكن "تجرِّد" لسانها وتسلطه على أحد إلا دفاعًا عن النفس فقط. وذات مرة قالت، على مرأى ومسمع من كثيرين: "لابد للمرء أن 'يتشيطن' أحيانًا، حتى لا يفتك به الناس!" والكلمة أصبحت ذات معقولية في مناسبات وأماكن كثيرة هذه الأيام. وعن زوجها آبينغ، فقد سبق لها أن تكلمت أيضًا، تحت سمع وبصر الناس، فقالت: "كم تمنيت أن يكون أصلب مما هو عليه (كم تمنيت للحديد أن يجمد ويقوى). صحيحٌ أن لساني يؤذيه أحيانًا، لكنهم كانوا يقولون في الأمثال: "إذا كان الضرب عداوة، فالشتم محبة!" فقولوا لي، ماذا أفعل مع رجل يجلب لنا المتاعب بسبب إخلاصه وطيبة قلبه؟" ومن وجهة نظر الزوج نفسه، فالحياة كان يمكن أن تكون أجمل والبال أهدأ، لو لم تكن هناك الملاسنات والمشاحنات والكلام الذي لا يأتي إلا بوجع الرأس. ومثلًا، فكم كان يمكن أن تمضي الحياة في هدوء، من دون مشهد الخناقة التي حدثت اليوم وأوقعته في حرج بالغ؛ لدرجة أنه لم يكن يعرف أين يداري وجهه من الناس!

وبدافع التعاطف معه، حاول بعضهم إصلاح الأمور بينه وبين امرأته؛ فجاء إليها من كلمها في الموضوع، وهو يناديها باسمها: "اسمعي يا (مدام)

'سوفن'، أنتِ أيضًا يجب أن تعذري آبينغ. وكما تعرفين، فكل الناس يحبون أن يدخلوا بيوتهم بأحسن غنيمة، ولابد أن الرجل أراد أن يأتي لك بأحسن ما في طاقته. وبالمناسبة، فهي عمومًا تبدو عنزة متوسطة الحال، ليست سيئة تمامًا. فقط، لو اعتنيتِ بها مدة يومين، فستجدينها استردت عافيتها، وحلبت لك أغزر اللبن. ولا تنسي أن تأتي لها بأطيب الطعام".

"كيف، وأنا نفسي لا أجد أطيب الطعام؟" أجابت بمزاج متعكر، "هل يعني أقطع لها من لحمي كي تأكل هي، وتملأ بطنها وتشبع؟"

اقترب أحد المزارعين وقال: "أظن أن سبب هزالها السفر البعيد، وعدم العلف لمدة طويلة؛ فهيئوا لها الراحة لفترة، وبعدها تتحسن كثيرًا".

تكلم آبينغ، قال: "أظظظن هذا فعلًا، وكان العم بيبانغ قد قال لي نفس الكككلام".

"حذارِ من أن تلفظ اسم هذا الرجل أمامي! كلما سمعت اسمه أحسست بأني سأنفجر غيظًا". قاطعته المرأة المغتاظة، ولبثت برهة ثم قالت: "مالك تجلس عندك متخشبًا كالموتى هكذا، قُم... تحرَّك، واسحب العنزة إلى الداخل. فهل ستعمل لها معرضًا للفرجة هنا؟"

ثم كانت هي التي تحركت صوب العنزة لتسحبها، إلا أن هذه أناخت مؤخرة ظهرها ثانيةً، وتصلبت رجلاها وحرنت، حتى انغرس منها الحافر؛ فنهرتها المرأة وضربتها بكف أكثر صلابة، لكثرة ما مهرت بها في أعمال البيت. ولم تكد المعزى تنثر بولًا عارضًا فاجأها، وهي في هذه الوضعية،

حتى اندفعت راضخة لصاحبتها التي جرّتها من حبل مطوّق بالعنق فأدخلتها من الباب الكبير.

8 – هناك أشياء توجع الرأس فعلًا

المثل السائر يقول: 'العمل بالنصيحة يُساوي نصف إنجاز'. والناس نصحت وقالت ما عندها، ولم يعد أمام المرء إلا أن ينصاع لقول الناصحين. والنتيجة أنه صار ينبغي على الواحد أن 'يمضغ' لسانه ساكتًا، بينما يقدم العلف للدابة المكسوة جلدًا على عظام، على أمل أن تتعافى وتسمن. وبالتالي، فقد جيء لها بكل ما تستطيبه الدواب: العشب الأخضر الطازج، ونخالة القمح، ثم وصل الأمر إلى إطعامها مما يأكل الإنسان، كالذرة الصفراء مثلًا؛ بل ومما لا غنى عنه للآدمي نفسه في طعامه، مثل فول الصويا وغيره؛ فراحت تزدرده جميعًا. وبقيت على هذا الحال عشرة أيام، دون أن تنشط ويمتلئ جسدها وضرعها، وتظهر عليها بوادر التحسن... دون أي تغيير يذكر، سوى التغيير إلى الأسوأ؛ وذلك بحكم ما ظهر عليها مؤخرًا من تصرفات غير طبيعية. إذ أصبحت تلتهم كل ما يُلقى أمامها من أجود العلف، سواء كان ذرة صفراء أم فول-صويا، تأتي عليه في ثوان معدودات، وتظل تأكل مما يلقى إليها من الزيادة دون شبع. أما بالنسبة للعلف العادي، مثل التبن أو قشر البطاطا والأعشاب البرية وقشر القصب، فقد كانت تأنف منه جميعًا، وتتشممه ثم تنتقي من ثناياه ما يروق لها، وتدع الباقي منثورًا تحت قدميها،

تروح عليه وتجيء وهي تنظر إليه باشمئزاز. ومسكن آبينغ ضيّق على قدر حاله، فلم يأمن على العنزة أن يبيتها في حظيرة الخنازير، واضطر إلى ربطها في باب حجرة النوم، فتتناءى عن يد السارق. لكن اللعينة لم تدع أحدًا في حاله، فكلما مرت بها سيدة البيت، داخلةً إلى الغرفة لبعض شئونها، نهضت الدابة واقفة، ومدت عنقها لتطل من الباب الموارب، متلصصة بنظرات فضولية، ربما توقعًا لأن ترمي إليها المرأة بشيء من العلف المعتبر الذي اعتادته مؤخرًا. وذات مرة دخلت امرأة آبينغ لتغير هدومها، وتحرَّزت كأنثى تخلع عنها أشياءها فتوارت في ستر الخفاء؛ بيد أن العنزة- بسحنتها المسحوبة كوجه شيطان وزلمتيها المتورمتين وقد تدلتا من رقبتها- لم تكن لتراعي اللياقة، خصوصًا على مشارف غرف النوم؛ من ذلك أنها مدت عنقها من خلال ستارة البامبو المدلاة فوق المدخل، وأطلت برأس متسلل- لا يضمر خيرًا، فيما يبدو- إلى الداخل؛ فأجفلت منها المرأة العارية، وقفزت مكانها، من الفزع، صائحة:

"يا لوقاحة هذا الشيء القبيح! ألا تخجل من نفسك، وأنت تطل بهذه اللحية الطويلة على امرأة تبدل ثيابها في مخدع؟" وقد نسيت، في غمرة الموقف، أنها تخاطب رأس عنزة... أنثى!

بكل هذا وغيره، أصبحت العنزة الجبلية- المسجلة برقم 66- صداعًا في رأس المرأة يربك أعصابها، ويزيد في توترها، فتظل تشتم وتسب طوال اليوم؛ تشتم آبينغ والعم يانغ والمعيز الجبلية، وكل ما يرد في بالها مما له علاقة مؤكدة بهؤلاء جميعًا. لكن أكثر شيء ضايقها فعلًا، وجعلها تبغض الدنيا

بأسرها، هو ضآلة كمية الحليب التي جادت بها المعزى، مقابل كميات البول التي تزايدت في الآونة الأخيرة. والمشكلة أن عملية حلب الدابة كانت- من فرط الإجهاد والصعوبة والمشقة على أفراد الأسرة جميعًا- أقرب شيء إلى اصطياد نمر وذبحه، بل ربما أصعب وأدق كثيرًا؛ إذ لم تكن تدع أحدًا يلمس ضرعها، مجرد اللمس فقط؛ فكيف بمن أراد الحلب! ولا تتورع ساعتئذٍ عن المدافعة بقرنيها، تشرعهما تهديدًا لكل عابث بضرع. والنتيجة أن عملية الحلب تحولت إلى حالة استنفار عائلي لإنجاز مشروع الحلب الطازج: يفرج آبينغ ساقيه ويعتلي رقبتها، ثم يقبض جيدًا على قرنيها ويديرهما، بينما يكون قد أحكم الوثاق على عنقها بين ساقيه المضمومتين؛ والولد الكبير جياومو يركع على الأرض بجوارها ممسكًا بقدميها الخلفيتين جيدًا؛ أما الصغير شياوجيا فيقبض على الذيل، وتكون سيدة البيت قد شرعت في اعتصار الضرع. وهيئتها في تلك اللحظة تعطيك شعورًا بأن ثمة عملية خطيرة تجري على قدم وساق... وذراع أيضًا، ذراع مكشوفة تهدلت أكمامها، وثمة كفان قويتان تعتصران الكيس اللحمي المدلّى، تتحسسانه بادئ الأمر، ثم تدوران حوله قليلًا فتعتصرانه خفيفًا، وتتناوبان حلبه، الكف وراء الأخرى؛ فلحظة أن تبلغ الكف اليمنى أسفل الضرع تكون اليسرى قد دارت حول أعلاه، ونزلت قابضة على استدارته، وإذ يتعذر نزول الحليب بهذه المناوبة، تشتغل الكفان معًا بقوتهما الضاغطة، عسى أن يستقطرا فضالة تعثرت بها المسالك. وكل مَن تصادف مروره وقتها، وشاهد الأسرة بكامل أفرادها في حالة التعبئة الماعزية هذه، لا يملك إلا أن يشكر السماء على أنها لم تخلقه عنزة جبلية؛ بل يرجو في سريرته ألا

يتحول في الحياة الآخرة [حسب معتقده البوذي] إلى معزى جافة الضرع.

كانت الأسرة قد عملت حسابها أن تحلب من العنزة في اليوم ثلاثة كيلوغرامات حليبًا، على الأقل. أما الآن، فقد صارت تتمنى ألا يقل الصافي عن كيلوغرام واحد فقط، يوميًّا؛ بل تعذرت هذه النسبة فيما بعد لدرجة أنها لم تعد تبلغ ثمانية "ليانغ" [أي سبعمائة غرام، تقريبًا] إلا بشق الأنفس. وفي أحيان قليلة، فلم تكن تزيد عن ثلث الكيلوغرام، بأية حال؛ وبذلك، تباعدت الهوة بين المصروف على غذائها والناتج من لبنها. وراحوا وسألوا المجربين والخبراء العارفين، فعرفوا منهم أساليب وطرقًا متطورة. وفي بعض الأحيان القليلة جدًّا، جاءوا بالمربيين المتخصصين أنفسهم ليباشروا الحلب بأيديهم. ولم تختلف النتيجة بعد كل هذا عن الحد المقرر سلفًا: سبعمائة غرام، لا تزيد ولا تنقص قطرة واحدة.

انتقل لسان المرأة من السب المقذع إلى الشتم الفاحش، وأصبحت مغتاظةً تهدد بالذهاب إلى العم يانغ في عمله، وتأخذ حقها منه. فزع آبينغ واجتهد في طرد الفكرة من ذهنها، بل منْعِها بالقوة إذا تطلب الأمر. في المساء، ذهب إليهم مَن يطلب القسط النهائي من سعر العنزة؛ قال: إجمالي المبلغ بعد مصاريف الشحن والنقل والمخازن، بعد زيادة مبلغ سبع يوانات وثلاث 'فنات' [التي هي من أقسام اليوان]، يصل إلى سبع وسبعين يوانًا، بالضبط.

استشاطت المرأة غضبًا، وتوالت الشتائم واللعنات على لسانها. لبثت ساكنةً لحظة، وقالت: أين الرجل الذي اسمه يانغ؟ أنا من باكر سأذهب إليه

بنفسي، وأسحب المعزى معي وأعيدها إليه! ثم واصلت سلسلة الشتائم من كل نوع: مقذعة وطاعنة وقبيحة وفاحشة؛ وبقيت هكذا إلى أن غلبها النعاس.

بات آبينغ يساوره القلق، تترامى إليه شتائم المرأة الغاضبة سيلًا جارفًا، لا يملك لها دفعًا سوى همهمات ساخطة متفرقة، تقوم مقام علامات الترقيم في تلك المقالة المطولة من الملاسنات البشعة. وكان ابنه الكبير ينام بجواره في الطرف الآخر من الفراش، يغفو لكن- باعتباره المساعد الأول للأم في ملاسناتها اللفظية- كان يردد، من وقت إلى آخر، عبارات جانبية مساعدة، تعمل عمل علامات الترقيم المغلظة، أي تلك المكتوبة بالخط الغليظ. وحده، كان الولد الصغير هو الذي سبق جميعهم إلى النوم؛ وبالتالي، فقد أضاع على نفسه فرصة الاستمتاع بذلك العرض المطوَّل من المطاعن اللسانية والتخريق والسباب، بالإضافة إلى الهوامش الجانبية التي أضافها الوالد، بهمهماته المتقطعة، وردَّدها أخوه على سبيل التآزر مع الوالدة، جبرًا للخاطر.

9 - آبينغ يسعى للقاء صاحب عُمره

صحا آبينغ من نومه، صباح اليوم التالي، قبل أن ينبلج نور النهار. سألته زوجته:

"ما الذي أيقظك مبكرًا، على غير العادة؟"

مرتبكًا، قال: "لا عليك، أنا ذذذاهب للقققائه ... بدلًا ممنك".

لوهلة، لم تستوعب شيئًا: "بدلًا مني أنا؟ لقاء مَن بالضبط؟"

"يانغ... ييبيانغ يوان". أجابها، وهو عند الباب، مستعجلًا الخروج لئلا تصدّه عن الذهاب.

الآن فقط، تذكّرَتْ ما قالته الليلة الفائتة، فصاحت به: "خُذ معك العنزة، رُدَّها إليهم مثلما جئت بها".

قال: "سأحاول أن أكككلمه أولًا، أففتح معه الموضوع قبل أي ششيء"؛ وقبل أن يتم كلامه، كان قد خرج وصفق الباب وراءه.

نهرت ولدها الأكبر فأيقظته: "جياومو، قُم الحق بأبيك، انظر ماذا سيقول للناس".

نهض قائمًا وهو يفرك عينيه، انتبه إلى كلام الوالدة، فصدع بأمرها وانسل خارجًا من الباب.

مشى آبينغ في الدرب الجبلي قاصدًا بيت العم يانغ، الذي يقع على جانب هذا الدرب الضيق في الناحية الأخرى من التل؛ وهو المسكن الذي يقطنه العم من زمان بعيد، ولا يبعد كثيرًا عن محل عمله في الكومونة، حيث يذهب إلى هناك كل صباح، قاطعًا المسافة القريبة إما ماشيًا وإما راكبًا دراجة. وقبل أن يعبر آبينغ قمة التل إلى الجهة الأخرى، لحق به ولده على الطريق.

"ما الأمر؟ ما الذي جاء بك؟" سأله.

"أمي هي التي بعثت بي وراءك".

أدرك الرجل ما وراء مجيئه، فلم يشأ أن يرده، وتجاورت خطاهما على الدروب.

بعد قمة التل، منطقة سهلية متسعة، تخللتها فروع أنهار ومزارع وغابات عند الحافة، وحقول خضراء إلى ما وراء المدى، بدت مغبشة تحت ضوء الفجر الباهت. في بقعةٍ ما عند أطراف السهل، يقيم العم يانغ بمنزل ذي فناء واسع يطوقه جدار من الطوب الحجري في جوانبه الثلاثة؛ أما الرابع، فمنزل مشيد من الطوب الأحمر بغرفه الخمس؛ اثنتان منهما تقعان في المنتصف ومعروشتان بالحطب. وصلا إلى هناك والباب مقفل بعد، وثمة رجل في أواسط العمر يقعي على الأرض قبالته، ابتدرهما قائلًا: "اجلسا، فالرجل لم ينهض من نومه حتى الآن".

أقعيا بجواره، حيث لم يكن أمامهما حل آخر. هنالك، طلعت تباشير الصبح، وزقزق عصفور الدوري.

"تتتبحث عن العععم يانغ، أنت أيضًا، فما مشككككلتك معه؟" سأله آبينغ بصوت خافت.

"أبدًا، ليست هناك مشاكل؛ أنا جئت اليوم كي أطلب إليه أن يعطيني عنزة صغيرة... عنزة وليدة يعني"، رد عليه الرجل. وبمزيد من تفاصيل أوضح قائلًا: "الحكاية أني كنت قد اتفقت معهم على شراء عنزة جبلية، ثم لما قاموا

بشحنها ولدت عنزتين أخريين في عربة القطار. وبعد وصولهم، قال لنا العم "تيو" القصير إن الإدارة في الكومونة قررت أن تعطي العنزة إلى صاحبها، بالإضافة إلى أولادها جميعًا، على أساس أن هذا من حق المشتري، من غير جدال. لكن لا أحد يدري كيف تغيَّر الكلام بعد هذا، إذ فوجئنا بأنهم باعوا المواليد بسعر مخفض، العنزة الواحدة بقيمة الـ يوان ونصف اليوان. وطبعًا، فقد سارع كثير من الموظفين واشتروا عددًا منها، حتى أن الواحد منهم صار يشتري العنزتين والثلاث". كان يتكلم بصوت مرتفع، دون تحرز، وهو ما أثار القلق في نفس آبينغ، فأمسك عن محاورته. لكنه فوجئ به يسأله: "وأنت؟ هل اشتريت مثلنا عنزة جبلية؟"

"اشتريت". أجابه بصوت خافت، وأشاح عنه سريعًا، منعًا للاسترسال.

"ما دمت قد اشتريت، فعليك بالذهاب سريعًا إلى الريس "تيو" القصير، كي تسأله إن كانت هناك عنزات وليدة أم لا. فمن حقك الحصول على واحدة... يا لهؤلاء الناس وتدابيرهم الشيطانية!"

لم يفتح فمه بكلمة. وقد لعبت بصدره الهواجس.

بقوا مكانهم نحوًا من ثلث الساعة حتى فُتح الباب، فنهضوا واقفين.

نظروا، فإذا هي ابنة العم يانغ، ابنته الصغرى، فتحت الباب وأطلت عليهم. وكان العم قد تزوج مبكرًا جدًا عن آبينغ وأنجب بنتين، وصار له الآن أحفاد من ابنته الكبرى المتزوجة، ثم ها هي الصغرى قد أتمت الثامنة عشرة، وتعمل حاليًا مُدرِّسة بالصف الابتدائي التابع للإدارة المحلية

بالكومونة.

"أتنتظرون أبي؟ في مثل هذه الساعة المبكرة!" قالت ابنة الثامنة عشرة، وقد أطلت من الداخل وبيدها آنية معدنية، من الفضة اللامعة.

"هل صحا أبوك من نومه؟" سألها آبينغ

"آآآها، صباح الخير، يا عم آبينغ، تفضل تعال، تعال، أبي لم ينهض من السرير بعد، وأنا ذاهبة كي آتي له بالحليب؛ فهو يحب أن يشربه فور استيقاظه من النوم، ويقول إن شرب حليب المعيز على معدة خالية مفيد للصحة غاية الفائدة".

كان كلامها هادئًا ولهجتها صافية، وهي تشق طريقها عبر الحوش، ممسكة بالآنية الفضية، وتمضي بين أشجار البرتقال المتقاربة، فتصل إلى إحدى الغرف المعروشة بالحطب، ووراءها العم آبينغ وولده والرجل متوسط العمر، الذي لا يُعرف اسمه. كان آبينغ أحد الذين جاءوا لمساعدة العم يانغ في بناء هذه الغرفة المعروشة بالحطب، وبقي يحمل معه الطوب وعروق الخشب لعدة أيام متوالية. وفي أول أمرها، استخدمها يانغ كمخزن للحطب، ثم حوّلها الآن إلى حظيرة للغنم، يضع فيها- من بين مقتنيات أخرى- عنزتين جبليتين (من النوع الجيد حقًا!) وثلاث عنزات وليدة. أمام الحظيرة، وقف ثلاثة الضيوف يتطلعون إلى مدرِّسة الفصل وهي تحلب المعيز بيد ماهرة، كأنها تبرع في حلب الغنم وهي في بطن أمها، وقبل أن تأتي إلى هذه الدنيا. والحليب يتقطر طازجًا كثيفًا في زخات متوالية، تبعًا لحركة يدها؛ يندفع في خبط

مستقيم فيفترش قاع الإناء، بصوت مميز، متوال، بإيقاع رشيق... إيقاع يتجاوب مع رنين معدني أخاذ. والعنزة مستسلمة ليدها تدير رأسها تجاهها، تكاد تلمس كتف الفتاة التي أقعت بجوارها، وثلاثة الذكور يتطلعون بصمت مطبق وفي نفوسهم تتردد فكرةٌ، ربما واحدة، عن هذا المنظر؛ يقول قائلهم، هي ذي حقًا العنزة الجبلية، كما ينبغي أن تكون!

فما هي إلا برهة حتى كان الإناء قد امتلأ حتى حافته، وما يزال الضرع ممتلئًا. قامت الفتاة واقفة، فمضت نحو الغرفة الرئيسية المشيدة بالطوب الأحمر، قالت: "تعال يا عم فان، سأنظر إن كان أبي قد استيقظ فأناديك حالًا". كانت نبرتها رائقة وصافية جدًا، بالطبع؛ فليس ثمة ما يعكر صفو حياتها! فعندما حصلت على الشهادة الثانوية- في العام الماضي- اشتغلت بالتدريس فورًا، بكلمة من أبيها، دون حاجة حتى للالتحاق بالجامعة، دون أن تتعب نفسها، ذاهبة وعائدة من الجامعة، تحت وقدة الشمس.

صاروا يغبطونها وهي تمضي أمامهم، ممسكة بالآنية الفضية الممتلئة بالحليب.

امتلأت الدنيا بضوء النهار، وقام يانغ من فراشه، فقال للرجل متوسط العمر المُطالِب بالحَمَل الوليد: "آه، نعم أنا أذكر جيدًا أنك أخذت الدابة رقم 78؛ أليس كذلك؟ بالمناسبة أنا ذاكرتي ممتازة، ولا بد أن تعرف أن عنزتك لم تلد- وهي في الشحن- إلا مولودًا واحدًا فقط، وضعت ذكرًا وليس أنثى، لكنه للأسف ضاع منا، ولم نعثر عليه وسط العدد الهائل من الغنم".

جادله الرجل: "لكني سمعت أنها وضعت مولودين، ذكرًا وأنثى".

"أنت تُكذبني، إذن؟ طيب، ما دمت لا تصدق، فاذهب واسأل الآخرين كي تعرف أني لم أكذب عليك".

"أهكذا؟ حاضر. ولعلمك، فسأكلم الموظفين فعلًا، وأسألهم، ثم أجيء إليك". وغادر ساخطًا.

وهو قاعد مكانه، استطاع آبينغ أن يسمع صوت الأطباق في المطبخ، وأحس بالحرج من أن يكون العم يانغ قد فكر في أن يكرم وفادته فيدعوه إلى الإفطار هو وولده. ثم سمع الفتاة، مدرسة الصف الابتدائي، تسأل أبيها: "هل أجيء لك الآن بالحليب؟"

هز يانغ رأسه بالرفض، قال: "لحظة، ليس الآن، ليس قبل أن أغسل فمي".

رحب بمقدم صديقه القديم آبينغ، واتسعت الابتسامة فوق وجهه العريض، وأخذه فأجلسه على الكرسي البامبو الفخم في الصالة الخارجية، وجلس قبالته منصتًا لشكواه المتقطعة عبر التأتأة والفأفأة فوق لسانه الثقيل أصلًا. وكان الرجل معتدلًا للغاية في شكواه، فلم يذكر كثيرًا من التفاصيل المرهقة بل المحبطة في الحكاية من أولها، لدرجة أن ولده صار يجحظ بعينيه ناظرًا إليه، مُلمِحًا إلى استكمال التفاصيل الضرورية. وكادت عيناه تخرجان من مقلتيهما من كثرة التحديق، حتى أصبحتا كعيني ثور غاضب؛ لكنه أشاح عنه وعن نظراته الثورية هذه إلى أن انتهى من كلامه؛ فأجابه العم

قائلًا:

"وكيف لم تأتني قبل هذا؟ هل ظللت ساكتًا طوال هذه المدة، ثم تجيئني اليوم؟ لو أتيت لي قبل يوم واحد فقط كنُت وجدت لك حلًا، أو- على الأقل- كنت أعطيتك عنزتي بدلًا منها؛ لولا أن خال البنت زارنا بالأمس وطلب شراء الدابة الثانية، ولم أستطع أن أرده، لأنه دفع النقود في الحال، وسيرسل لي ابنه اليوم كي يأخذها".

سأله آبينغ محاذرًا: "ههها يمكن أن آتيك ببها كككي تتتعطيني بددلًا منها؟"

"مستحيل، للأسف". قالها وعلامات الضيق في وجهه، "لو أعدتها الآن إلى الكومونة، فمن الصعب عليهم التصرف فيها".

"ططيب، مادام الأمر هكككذا فلا معنى للكلام إذذذن". أجابه آبينغ ذو القلب الطيب، لكن ولده أخذ يحدق فيه بعينيه الجاحظتين عن آخرهما، جحوظًا ثوريًا.

"قلت لي إن عنزتك رقمها..."

"رقمها 66 "

"آه..." كأنه تذكر شيئًا مهمًا تردد في قوله، ثم آثر السكوت عنه، فغيّر كلامه في اللحظة الأخيرة، كي يقول: "طيب، سأزورك غدًا أو ربما بعد غد؛ لكي أتفحصها وأرى إن كنتم تقدمون لها غذاء جيدًا".

قام آبينغ يريد الانصراف، فطلب إليه أن يبقى هو وولده قليلًا، ليشربا الحليب معه، فأجابه بأن رائحة الحليب تسبب له الشعور بالغثيان... "ولا يستقر في معدتي بعد ذلك أي طعام آكله". أما الولد، فقد رفض قطعيًا أن يشرب أي شيء، حليبًا أو غيره. عند الباب، التفت إليه معتذرًا، قال: "صحيح، أنا هذه المرة لم أستطع مساعدتك كما تقضي الأصول، لكني سأعوضها لك في مناسبات أخرى" [حرفيًا، قال له: سأعوضها لك في 'واجبات' أخرى]. ولم يفهم آبينغ مغزى العبارة بالضبط، لكنه شعر- في أعماقه- أن الرجل لم يدرك تمامًا سبب الزيارة، ويبدو أنه رآها محاولة لاستجداء الإحسان أو التمسح به طلبًا لمغنم.

غني عن القول ما لاقاه آبينغ من امرأته، بعد عودته، لدرجة أنه لم يستطع مجرد الدفاع عن نفسه بكلمتين اثنتين. حتى عندما حاول ذلك، فقد رأت زوجته في المحاولة دفاعًا عن العم يانغ، فاستعر غضبها، وانفتح شدقاها عن آخرهما، ليفرغا سيلًا من المطاعن التي تفزع منها الأسماع، سيلًا من سباب مقرف؛ وابنها الكبير بجوارها يملأ الفراغات والثنايا بـ 'علامات ترقيم' تضع الكلام، بالتركيز، بين أقواس. ثم راح يكشف خبايا الوقائع مما حصل في زيارة الوالد للعم يانغ، قائلًا إن أبيه كان على وشك أن يشارك العم يانغ في شرب أكواب من الحليب. فانطلقت عقيرة المرأة لتنعته بأبشع الصفات: "وتجرؤ على أن تجلس إليه، وتشرب معه حليب الماعز؟ طيب، ما دمت تحب المعيز، فتعال أسقيك من بولها، وعندنا منه الآن الكثير! ما أجمل شكلك، وأنت قاعد وسط بركة من بول وخراء الغنم، تتأمل ملامحك

في الماء العكر، وتتخيل نفسك شاربًا الحليب الطازج! لا تتعجب من نفسك ساعتها، لأنك ستعرف كم أنت منهوم وأناني! أكثر واحد في الدنيا شراهة، هو أنت!"

متخمًا بمشاعر الظلم، طوى جوانحه على مراراته ساكتًا. لكن ثمة عينين ثوريتين جحظتا غضبًا، ثم اكتشف أن ولده الأكبر يطالعه بذات العينين، فانزوى في ركن المطبخ، يطلق- من آن لآخر- زفرات ساخطة، تصنع فواصل متراصة بين الملاسنات المطولة، مثل علامات الترقيم التي تتخلل العبارات، لتصنع لنفسها وجودًا- ولو ضئيلًا- في جنبات السياق.

10 - فان آبينغ والدروب المسدودة

طال الانتظار بـ آبينغ ولم يأت العم يانغ، سوى أنه أرسل إليه- ذات يوم- مَن يبلغه بأنه لا داعي لدفع المبلغ المقرر على سبيل الزيادة، حيث اكتشف الموظفون أنهم- بسبب السهو والغفلة- زادوا المبلغ دون وجه حق؛ على أن "قيمة المبلغ الفعلي المستحق للعنزة المسجلة برقم 66 لا يتجاوز السبعين يوانًا، فقط ليس غيرا" وبالتالي، فقد تم إسقاط الطلب الذي كان مقررًا بدفع زيادة مقدارها سبع يوانات وثلاثة "جياو". ورغم أن رجلًا طيبًا مثل آبينغ لم يأخذ الأمر إلا باعتباره تصرفًا كريمًا من العم يانغ ـ الرجل صاحب النفوذ في المزرعة الجماعية، الذي يستطيع تسوية مثل هذه الثغرات

بدربة واقتدار- فقد تصور أنهم في الكومونة يمكن أن يحصلوا مبلغ الزيادة بطريقتهم الخاصة من أي فرد آخر.

لكن امرأته لم تنظر إلى الأمر من هذه الزاوية. بالعكس، فقد انتابتها الظنون، واسشاط غضبها الذي لم يكن لينطفئ على أية حال، وأخذت منجل الحصاد في يدها، وصاحت قائلة:

"حقًا، الأمر لا يجب السكوت عليه، ولابد من الذهاب إلى أمين اللجنة، كي أسأله عن الطريقة التي يحسب بها ثمن الدواب! غير معقول ما يحدث، هؤلاء الناس يضحكون علينا ويخدعوننا؛ ونحن لسنا بهذه السذاجة! هل من المعقول أن تتغير الأسعار لنفس الدواب بهذه السرعة؟ بالأمس، يطالبون بسعر محدد، وبعد يومين يقررون سعرًا آخر، يا للعجب! عمومًا، ومهما قالوا، فلن أقتنع بأن سعر العنزة العجفاء هذه يزيد عن عشرين يوانًا؛ نعم، ربما كان هذا هو سعرها الحقيقي؛ خصوصًا وهي عبارة عن عظام جوفاء بذيل وقرنين، لا تجود على أحد بنقطة حليب، حتى لو عصرتها بمعصرة، أو طحنتها في ماكينة طحين. افعل بها ماشئت، اذبحها لو أردت، ولن تعطيك شريحة لحم تؤكل... كل هذا، ويطلبون سبعين يوانًا!"

وهو قال: "مالك تكككررين كككلامك وتعيدينه! أما انتتتهينا من الموضوع؟"

قالت: "ومهما تكلمتُ فلن تفهمني! أنا ذاهبة إلى الكومونة لأتفاهم مع ذلك الرجل". وضعت المنجل جانبًا، وقامت واقفة.

ارتبك وقال لها: "اسسسسسمعي، لا ددداعي لذذذهابك أنت، بل الواجب أن أذذذهب أنا".

صاحت به: "خلاص، اذهب أنت، لكن خذ العنزة معك. ولعلمك، فأنا لم أعد أحتمل أن أرى منظرها؛ فهي تبدو لي كشبح مخيف كلما وقعت عيني عليها، لا أريدها في البيت، تلك الدابة المنحوسة التي تستكثر علينا الحلب. لا تتركها هنا، وإلا شققت بطنها بسكين! هل ستأخذها بعيدًا، أم لا؟ إن لم تكن ستبعدها عني، فاقعد ودعني أنا أسحبها"

والمعهود عنها، أنها لو قالت شيئًا لنفّذته في الحال؛ لذلك حزم آبينغ أمره: "سأسحبها وأذهب".

وعادت إلى مقعدها القصير، وتناولت المنجل، وأفهمته جيدًا: "لو رأيتك راجعًا بها إلى هنا، فسأضع السكين في رأسها؛ سأقطعها إربًا، وعلى الأقل ستتغدى لحمًا".

محنة ووقعت على رأس رجل طيب مثل آبينغ. لكن، ماذا يفعل سوى أن يسحب العنزة، ويمشي بها محاذيًا الشق الجبلي، وقلبه مليء بالهموم، وقد ضاقت الدنيا به، وليس ثمة مخرج للمشكلة التي انغرس فيها بقدميه: فصاحبه هو المسئول الكبير في الكومونة، وله مشاغله، والمفروض عليه تقدير ظروفه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فهناك الزوجة التي أخرجها الغضب عن أطوارها، إن كان لها أطوار. وهو بينهما كمن سقط بين شقي الرّحى، فما العمل؟ وإلى أي طريق يمشي؟ هل يمضي في طريقه إلى الكومونة

ويعيدها إليهم هناك؟ هل يتصرف على نحو ما كانت زوجته تريد أن تفعل؟ لكن قرار شراء العنزة هو قرارك أنت، وأنت المسئول عنه. حتى الكوبون المسجل عليه الرقم كان من اختيارك. صحيح أن ظروف هذا الاختيار اكتنفتها ملابسات مريبة، لكن الحقائق المكشوفة تقول إن: العنزة المسجلة برقم 66 لابد أن تكون من نصيب أحد المشترين من أهل المزرعة الجماعية، وعلى المستلم أن يقتنيها ما دامت صحيحة البدن، ليس بها عيب. أما إن ثبت غير ذلك، فلا بد من إعادتها إلى المسئول. لكن نرجع فنقول إن الكومونة- التي هي ملكنا جميعًا- ليس لها بنك ولا صناديق مالية كبيرة، بحيث تتحمل الخسارة في رؤوس الأموال. وإذ قلنا إن المسئولية يجب أن تقع على عاتق الموظفين، فمن إذن سيجرؤ على الذهاب إلى إقليم شانشي البعيد لشراء وشحن الغنم؟ أخذ يفكر على هذا النحو، وقد اقتنع بأن امرأته قد تجاوزت المعقول في تفكيرها، وأية محاولة لشرح الأمر لها، وتوضيح جوانبه، لن تلقى منها إلا الإعراض، بل التنكّر والمزيد من الغضب والحماقة والشتم والسب، الذي ينال الآباء والأجداد في خط طويل متسلسل، قد يبلغ الأجداد الأقدمين في الزمن البعيد؛ وأحيانًا ما تصل بشاعة الطعن والتجريس حدًّا يقلق الأموات في رقادهم العميق تحت الثرى.

دارت الأفكار برأسه وهو يمشي، إلى أن اكتشف أنه يعود إلى منحدر التل، حيث السهول الواسعة الممتدة أمام بيته. قال إن زوجته لا يمكن أن تراه من هذه المسافة، فأبطأ الخطو وهو متحيّر، والعنزة المسجلة برقم 66 المهزولة الشاحبة، في مثل ملامحه تمامًا، ترفع رأسها إليه بنظرات تتفقده

وتشاركه الأسى. قال إنه لم يحاول- طوال كل تلك الفترة الماضية، وتحت أي ظرف- أن يسخر أو يشتم هذه الدابة، حتى في الأوقات التي كانت زوجته تعايره بجلبها إلى البيت، وتطلق العنان للسانها الفاحش بالسخرية منها. بل العكس، كان يشعر بالتعاطف معها، وقال إنها جزء من هذا العالم... جزء يغتذي على حشائش، ينغرس في الطين والوحل، يلف ويدور بطول وعرض السهول والمراعي، ثم يعود آخر النهار، يعتصر الناس أضراعه ليشربوا آخر قطرة حليب بقيت في جعبته؛ والويل له لو اعتصروه ولم يجدوا لديه طلبتهم، فيصير ملعونًا ومذنبًا، سفاحًا ومنتهكًا لحرمة حياة البشر. وسيكون ثمة ربات بيوت يكلن له الشتائم، يسحقن كرامة الحياة في لحمه ودمه، ما أتعسه! وهو نفسه... آبينغ نفسه، لا يملك أن يساعد بائسًا مثلها، ليته كان يملك ضرعًا مليئا بحليب، إذن لأزاح عنها المحنة، وخفف عنها ثقل مسرى الزمن الذي يتباطأ كثيرًا، فيزداد وقع المحن رسوخًا ومعاندة. ربما- فقط ربما- كانت العنزة الجبلية هذه تفهم أفكار قلبه. وحتى لو لم تكن تفهم مشاعره، فلا بد أنها اكتشفت منذ وقت مبكر أن الظروف واحدة، وأنهما كليهما يعيشان مأساة واحدة، هناك وراء جدران نفس البيت، يتعرضان لنفس الإهانات واللعنات؛ إذ لم يكف لسان المرأة عن ملاحقة الجميع... "آبينغ"، "المعيز الجربانة"، "العم يانغ".

وعلى سبيل التعاطف معه، لا أكثر، أطلقت الدابة عقيرتها بصوت عجوز مكدود، وسط خلاء التل والصمت العريق القابع في جنباته.

"ااااااااا"

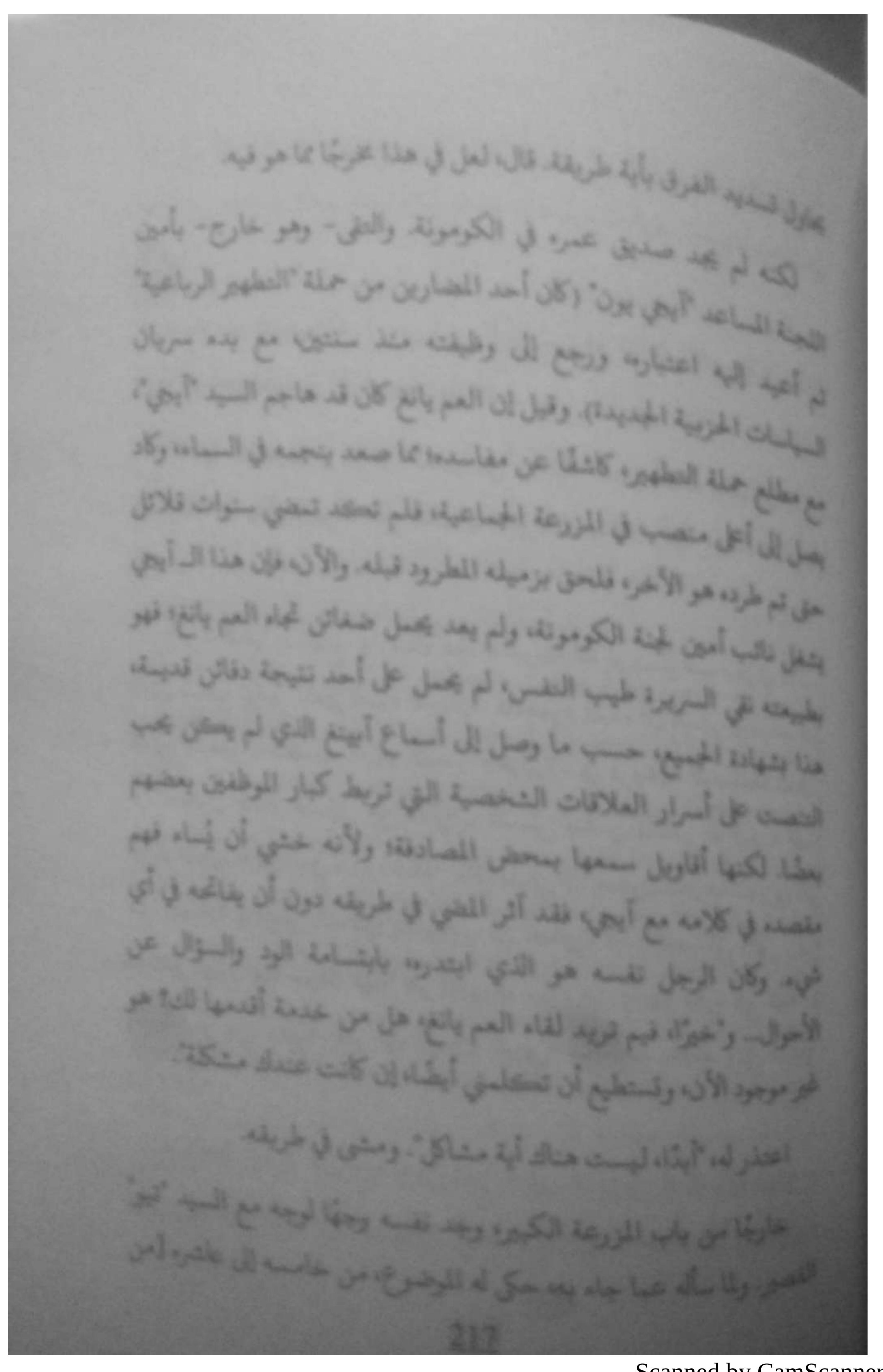
"صمتًا، وتدبري معي حلًا، تُرى ما العمل الآن؟" تحسس قربيها برفق؛ ولأنه لم يكن يتحدث إلى إنسان فقد زال عنه ثقل لسانه.

خطرت له الفكرة، فمشى ساحبًا الدابة حتى انتهيا إلى مرعى قريب من غابة أشجار الـ "تنوب"، حيث ربطها في جذع الشجرة، وقال:

"ارعي هنا، فالعشب وافر، وسأعود إليك حالًا ... حالًا سأعود".

11 - السادة المعيز... "أمناء اللجان العامة"

وصل آبينغ إلى الكومونة، وراح يبحث عن صاحبه يانغ، لا ليحاسبه على الغش في بيع الدواب، ولا لإجباره على إعادة البضاعة التالفة، ووضعه في موقف حرج أمام الناس؛ أبدًا، فلم يكن آبينغ ليتصرف على نحو ما قصدت زوجته وأوعزت إليه، واستحثته بكل وسيلة. وإنما أراد أن يتكلم مع صاحبه في الأزمة التي يعانيها الآن، وتكاد تقلب بيته رأسًا على عقب وتُغضب منه امرأته والأولاد؛ يفتح له صدره ويحكي له معاناته، ويقول له كيف أن المرأة، زوجته، تصرفت بطريقة منافية للمنطق وجعلت حياته جحيمًا، ووضعته- آخر المطاف- أمام طريق مسدود، فلم يجد سوى أن يقصد إليه، باعتباره صديقه القديم، والرجل المتنفذ، صاحب السطوة، ليساعده في الخروج من الأزمة: بأن يفكر معه، مثلًا، في طريقه لبيع العنزة، حتى لو بالخسارة (طبعًا، مع التكتم والحرص، لئلا تعرف الزوجة)، على أن



يحاولا لتحديد الفرق بأية طريقة. قال، لعل في هذا مخرجًا مما هو فيه.

لكنه لم يجد صديق عمره في الكومونة. والتقى- وهو خارج- بأمين اللجنة المساعد "أيجي يون" (كان أحد المضارين من حملة "التطهير الرباعية" ثم أعيد إليه اعتباره ورجع إلى وظيفته منذ سنتين، مع بدء سريان السياسات الحزبية الجديدة). وقيل إن العم يانغ كان قد هاجم السيد "أيجي"، مع مطلع حملة التطهير، كاشفًا عن مفاسده؛ مما صعد بنجمه في السماء، وكاد يصل إلى أعلى منصب في المزرعة الجماعية، فلم تكد تمضي سنوات قلائل حتى تم طرده هو الآخر، فلحق بزميله المطرود قبله. والآن، فإن هذا الـ أيجي يشغل نائب أمين لجنة الكومونة، ولم يعد يحمل ضغائن تجاه العم يانغ؛ فهو بطبيعته نقي السريرة طيب النفس، لم يحمل على أحد نتيجة دفائن قديمة، هذا بشهادة الجميع، حسب ما وصل إلى أسماع آيينغ الذي لم يكن يحب التنصت على أسرار العلاقات الشخصية التي تربط كبار الموظفين بعضهم بعضًا. لكنها أقاويل سمعها بمحض المصادفة؛ ولأنه خشي أن يُساء فهم مقصده في كلامه مع أيجي، فقد آثر المضي في طريقه دون أن يفاتحه في أي شيء. وكان الرجل نفسه هو الذي ابتدره، بابتسامة الود والسؤال عن الأحوال.. و"خيرًا، فيم تريد لقاء العم يانغ، هل من خدمة أقدمها لك؟ هو غير موجود الآن، وتستطيع أن تكلمني أيضًا، إن كانت عندك مشكلة".

اعتذر له "أبدًا، ليست هناك أية مشاكل". ومشى في طريقه.

خارجًا من باب المزرعة الكبير، وجد نفسه وجهًا لوجه مع السيد "كيو" القصير. ولما سأله عما جاء به، حكى له الموضوع، من خامسه إلى عاشره (من

أوله إلى آخره!]، وقال في نفسه، لا بأس أن يعرف القصير تيو بالتفاصيل، فهذا لن يغضب العم يانغ، ولن يؤخذ باعتباره شكوى رسمية، وهذا هو الأهم!

سمع منه القصير "تيو" حتى آخر كلمة، ثم رفع ذراعه القصيرة الممتلئة، فاردًا أصابعه الخمسة على استقامتها، قال:

"الدابة المسجلة برقم 66 تُعتبر من شحنة 'المعيز أمناء اللجان'. وكان مفروضًا أن يقل سعرها عن ذلك بكثير، خصوصًا وأنها مصابة بمرض عضال".

دارت الدنيا بـ آبينغ، وارتبك عقله، لدرجة أنه لم يستوعب مغزى الاسم الذي سمعه توًا... "المعيز أمناء اللجان". فالمفهوم عنده أن البشر وحدهم هم الذين يشغلون منصب 'أمناء اللجان الحزبية'، في فروعها المختلفة؛ لكن أن تكون هناك فصائل من الدواب تتسمّى بنفس الكادر الوظيفي، فهذا شيء عجيب؛ ثم- وفي هذه الحالة- لماذا ينبغي أن يكون سعرها العنزي أقل من المعتاد؟ فالمنطق العادي يستوجب أن تكون هذه الفصائل أغلى سعرًا بكثير جدًّا عما سوها. فهذا هو المفهوم، سواء من وجهة نظره هو كفلاح بسيط، أو من وجهة نظر أي إنسان طبيعي، يستخدم عقله وفق المنطق والأصول.

لما لاحظ السيد "تيو" حيرته واستغرابه، قرر أن يشرح له المسألة بوضوح، وهو يرفع بين الحين والآخر ذراعه اليمنى بأصابعها المفرودة على استطالتها،

كعادته؛ بالذات كلما احتاج إلى التأكيد على معنى محدد من كلامه، يريد أن يوصله بوضوح إلى من يحاوره.

"انظر... 'المعيز أمناء اللجان'، أو 'المعيز الموظفون'، أو 'المعيز العلاقات العامة'، كلهم تقريبًا شيء واحد من دون أي فرق!" لاحظ أن الدهشة على وجه آبينغ ازدادت رسوخًا وتوحشًا، فأكمل موضحًا: "سأشرح لك، وستفهم الأمر كله من دون عناء؛ فهذا النوع من الماعز الذي نجلبه من إقليم 'شانشي' ليس مجرد ماعز جبلي تمت تربيته في مزارع؛ كلا، بل هو نتاج مزارع خاصة بالسادة أعضاء اللجان الكبار، وأحيانًا يكون مما يربيه الموظفون في المزارع الجماعية، أو أمثالهم من العاملين في الوحدات الزراعية. وفي حالات خاصة جدًا، تكون الفصائل قد تمت تربيتها في المحطات البيطرية، أو المراكز المتخصصة في حفظ الفصائل الحيوانية. وفي العادة، فهم يبيعون لنا بضاعة رديئة، يعني إن لم تكن الدابة مريضة فهي- على الأقل- عجوز مسنة. وإن سألت عن سبب بيعها يُقال لك بأنه نوع من.. "التصفية الرحيمة". وعندما نبعث بموظفينا لاستلامها، فإن البائعين يطلبون ثمنًا فاحشًا، ويشترطون عدم المساومة. وطبعًا، فلو فكرتَ جيدًا، فستجد أنك مضطر للنزول على طلبهم؛ لأنهم المصدر الوحيد للبضاعة. وأنا- عن نفسي- لا أعرف آخرين في شانشي غيرهم. وعمومًا، فالأحوال كلها واحدة عند الجميع؛ وكل منطقة لها 'عنزاتها'. لذلك، نذهب ونقول إننا بصدد استلام "المعيز أمناء اللجان" مثلًا، وفي منطقة الموظفين نقول إننا سنشتري "المعيز الموظفين"، أي ذلك النوع الذي نستجلبه من الوحدات الزراعية،

وهكذا. وكنا- في المرة الأخيرة، وبينما نحن في طريق العودة- قد قلنا لبعضنا بعضًا، لابد من تخفيض السعر مع ضمان مكسب معقول، خصوصًا عند بيع بعض الدواب، مثل عنزتك رقم 66 المنهكة مرضيًّا؛ وهناك معيز أخرى مسنة، لكني لا أعرف لماذا تم تغيير الاتفاق بعد وصولنا، مثلما تغير الاتفاق أيضًا بخصوص صغار الدواب التي ولدت أثناء الرحلة! ويبدو أن كل واحد صار له رأيه الذي يفرضه على مزاجه في هذه الكومونة!" بشيء من الغيظ الواضح، نطق السيد "تيو" العبارتين الأخيرتين. رفع يده اليمنى ثانيةً، بينما عرض اقتراحه على آبينغ، قائلًا: "اذهب فورًا إلى السيد 'آيجي' الأمين المساعد وتكلم معه؛ فهو رجل طيب بحق، ولا يتأخر عن خدمة الناس، وحل مشاكلهم".

حرَّك الاقتراح مخاوفه، فقد بدا له نوعًا من التحريض ضد صديقه القديم؛ فمن يدري، لعل الأمر يتفاقم ويتحول إلى شكوى ضده، وهو ما لا ينبغي له الوقوع فيه مهما حصل. تحير وقال: "لا، لا داعي، أنا ذاهب الآن في مشوار آخر، عندي شغل آخر مهم". قام مغادرًا المكان، وقلبه مليء بخواطر شتى تتنازعه. على الطريق، كان يتذكر الوجه المدوَّر الكبير، وجه صديقه يانغ، وبالذات أيام المحنة التي ألمّت به، حيث كان يلقاه وقتئذٍ بكل بشاشة، بل وبابتسامات اختلطت بطيف من التملق. كان يستطيع أيامها أن يطلبه فيجده، ويجلس إليه في أي وقت يشاء؛ على عكس الحال الآن. وليت الأمر اقتصر على مشاغله المتزايدة، بل وصل إلى حد نسيان وعوده السابقة. وعلى كل حال، فالسؤال الذي يطرح نفسه في هذه اللحظة بالذات هو: لماذا أصر

العم يانغ أن يعطيه العنزة المسجلة برقم 66 بدلًا من الأخرى رقم 99؟ هل كان يقصد بيعه العنزة المريضة عمدًا؟ أكان يضمر له كل هذه الكراهية؟ منذ متى؟ عاد الرجل، الذي لم يضمر في نفسه شرًّا لأحد، عاد يجيب على سؤاله الذي طرحه بنفسه... قال مستحيل، فالأمر يومها حتى لو كان منطويًا على نية التخلص من بضاعة معطوبة، فقد نزل على رأس الجميع بغير قصد مُبيت تجاه أحد بعينه. وربما لو كان العم يانغ قد أدرك أنه سيؤذي صديق عمره بهذا البيع لتدبر للمسألة وجهًا آخر.

اقترب من أشجار التنوب حيث ربط العنزة، وتذكر كلمات امرأته:

"لو رأيتك راجعًا ومعك العنزة، فسأغرس السكين في رأسها!" هنالك، تجمدت الأفكار في رأسه، ولم يدْرِ ماذا يفعل مع المرأة ذات الدماغ الناشف مثل حبة فاصوليا متصلبة، لا تلين بالماء ولا الزيت.

أزف المساء، وليس ثمة مخرج من الأزمة. فليمض إلى البيت، ساحبًا الدابة، وقد انعقدت على سحنته أمارات التجهم، كوجه عنزة ساخطة، ولتنغرس السكين في رأسه!

12 – المرأة التي أمسكت بيدها زمام الأمور

مساء أمس، رجع آبينغ إلى بيته، دون أن تستقبله الزوجة بعاصفة من الغضب، كما توقع. فقد اكتفت بالنظر إلى ملامحه الحزينة، ثم تنهدت قائلة:

"ألا تشعر بالخجل من نفسك، وأنت راجع إليّ بهذا الوجه؟ كيف يُكتب لي أن أكون امرأة رجل مثلك، كيف تكون الرجل الذي يُقسم لي العيش معه؟"

بعد إفطار اليوم، قامت واقفةً فجأة، قالت: "هذه المرة لن تمنعني، لن تقف في طريقي، لا تحاول... لأني قررت أن أذهب إلى الكومونة باحثةً عن ذلك المدعو يانغ، لن تصدني عن الذهاب إليه؛ لأني سأنفجر لو لم أصرِّف طاقة الغضب المكتومة في صدري!" وخرجت على الفور، دون أن تدير رأسها تجاهه، دون أن تعبأ برد فعله.

بقي يعمل في الحقل طوال فترة الصبح، وقلبه واجس بالظنون، لا يدري كيف تكون العواقب، بعد ذهاب المرأة في مشوارها الغاضب. لقيه أحدهم في الغيط، شارد الذهن فمازحه:

"ما لك تجلس ساهمًا هكذا؟ هل طارت امرأتك 'من العش'، بعد كل هذه السنوات؟"

بماذا يرد عليه؟ وهل هذا وقت مزاح؟

في الظهيرة، عادت المرأة بوجه مليء بالبهجة.

"هل قابلت السسيد 'آيبجي'؟" سألها متحيرًا.

"ولماذا ينبغي أن أقابله؟ ثم إنه كان مسافرًا، وقالوا سيرجع نهار الغد. فأنا لم أكن أريد غير أمين اللجنة... يانغ نفسه؛ فالمثل السائر يقول: ابحث عن

رأس الشر، مثلما يبحث الدائن عن المدين! وفعلًا قابلته اليوم، أمسكته من رقبته! وظللت أنفث المكبوت من غضبي، بقيت أشتمه حتى أفرغت كل ما يجعبني من الغيظ وارتحت تمامًا. وظل ينظر إليَّ طوال الوقت دون أن يجد فرصة للرد عليَّ؛ تجمّع الناس من كل صوب على أثر الصياح والسباب، وغُص المكان بهم، حتى كاد الباب ينخلع من كثرة الزحام.

تضايق آبينغ وصاح بها:

"ما هذا؟ كككيف تتتصرفين بهذذه الططريقة؟ كككلام غير معققول!"

"كلامي أنا غير المعقول، أم كلامه هو؟ في أول الأمر، دخلتُ وسلمتُ عليه وكلمته بكل احترام، وسألته هكذا بكل وضوح، قلت له: ألم تقل لـ آبينغ إنك تريد أن تختار له عنزة جيدة، على أن تعيد له رأس المال بعد شهرين؟ ردَّ وقال، إن هذا لم يحدث، وإنه مستحيل أن يقبل آبينغ باسترداد النقود، لأن هذا نوع من الفساد والسرقة، إلخ. وعند هذا الحد، كدت أتمزق غيظًا؛ فلم أشعر إلا وقد فاض بي الكيل". عند هذا الحد من الحكي، توقفت امرأة آبينغ، فقط، لكي تشمر عن أكمامها قبل أن ترجع إلى روايتها، ربما لتستحضر في ذهنها المنظر وصورة الأحداث، حية نابضة بالعنفوان، "سألته ساعتها، قلت له: ألم تحجز أفضل المعيز لك، بينما أعطيت أسوأ القطعان فيها لأهل الكومونة؟ ألم تحتجز لنفسك ولأقاربك أحسن البضاعة، هه؟ أليس هذا فسادًا وسرقة؟ حتى المعيز الصغار قمتم باحتجازها وتقسيمها فيما بينكم، وحرمتم منها أهل المزرعة، أليس هذا فسادًا وسرقة؟ قل لي! ثم إن آبينغ

عندما اختار العنزة وقع اختياره على الرقم 99، لكنك أصررت على أن تعطيه الدابة ذات الرقم 66، طبعًا لكي تتخلص من أسوأ بضاعة لديك، أليس هذا غشًّا وفسادًا وسرقة؟..."

وكلما أوغلت في الحكي، ابتهجت وأشرق وجهها صحة وعافية، كأنها كسبت معركة وعادت برايات النصر، مزهوة آخذة بحقها من معتد أثيم.

ورغم شعوره بأن كلام امرأته لم يتجاوز المعقول في عمومه، فقد بقي يتوجس شرًّا مما قالته، لأنها- حتى لو كان معها الحق- فلم يكن يبغي أن تدخل في مناقشات حامية مع كوادر اللجان الحزبية، بل مع أمين اللجنة العام نفسه. ولابد أنها تجاوزت نطاق الشجاعة إلى تخوم الاجتراء.

"قلت له: اسمع، يا سعادة أمين اللجنة، يا عم يانغ يوان"، أضافت بإسهاب قائلة، "أنت طبعًا لم تنس ما حصل أيام 'حملة التطهير'، لما كادوا أن يفتكوا بك، هل نسيت ذلك؟"

لم يتمالك آبينغ إلا أن صاحَ بها: "كككيف تتتقولين ذذذلك؟"

"ولماذا لا أقول؟ لماذا لا أدوس على الإصبع الأكثر أيلامًا؟" زعقت بأقصى طاقتها، "فمادام لا يتورع عن إيذاء الناس وإيقاع الألم بهم، على الرغم من أنه هو نفسه قد ذاق مرارة الألم والمحنة... لماذا- عندما تصبح في يده السلطة- يوقع بالناس مزيدًا من الشقاء؟"

"يعني... هو لم يقققصد إيذذذاءك أنت بالذذذات". عند هذا الحد، بدأت حجج آبينغ تفقد قوة الإقناع.

"وهل من المفروض- ما دام لن يؤذيني- أن يؤذي كل الناس؟" واصلت قائلة، "ثم إني لن أشغل منصبًا في حياتي، ولن أنافس أحدًا في منصبه، وبالتالي فلست أخشى أن يطالني الأذى... إن أبي وأمي لم يورثاني سوى فم ولسان أعتمد عليهما في قضاء مصالحي، دون حاجة لأحد". شاعت البهجة في ملامحها، وأخذت تتسع دائرة الابتسامة مع الوقت.

سرت في البيت كله عدوى البهجة، باستثناء آبينغ؛ وحده بقي صامتًا، في حين دبَّ الفرح في جنبات المنزل، وملأ قلب المرأة وأولادها سرورًا بعد طول كدر. والمرأة نظرت بعين ملؤها الصفاء، وصاحت بمرح: "المهم أني اليوم قلت له ما عندي، وارتحت من ثقل ما كان يرزح على صدري. وليس مُهمًّا ما يحصل بعد ذلك. أعرف جيدًا أننا سنشقى وندبر حياتنا بحيث نسدد السبعين يوانًا. لقد فكرت في تلك المسألة جيدًا". جمعتهم حول مائدة الطعام، وجاءت بورقة وقلم، ووضعت خطة للأيام القادمة: سنبيع الخنزيرين في الوقت المناسب، بحيث يغلان مكسبًا وفيرًا... نسدد بثمنهما الدين، ثم نبيع الخزير الصغير. وبالنسبة لنقود العلف، فلنبحث عن طريقة لتدبيرها. مثلًا، فلنبع العدد الأكبر من الدواجن، ونستغني عن نصف البيض، ونلغي كل المصاريف التي عملنا حسابها في وقت سابق، نلغيها مؤقتًا. أما عن السرير "المتراقص على نغم الموسيقى"، باهتزازاته وصريره عند النوم، فلندعه يصدر كل الأنغام الممكنة في هذا العالم، ندعه مؤقتًا أيضًا، إلى أن نعبر من الأزمة الخانقة، وبعد ذلك نقعد ونتكلم... لن ندع الظروف الصعبة تقصم ظهورنا، ولا بد أن الأحوال ستتحسن... سيتحسن كل شيء

بمرور الأيام!

في المساء، بقي الجو مشرقًا بعبق الانتشاء. التفت الأسرة حول الراديو [حول ميكروفون الراديو المثبت في الجدار، لأن الإذاعة وقتذاك محلية تبث من الكومونة]، وقد تم إصلاحه منذ عدة أيام. ومع ذلك، فلم تكن برامجه تجذب أحدًا لمتابعتها، بسبب كثرة الضوضاء والأصوات الزاعقة التي كانت تصدر عنها طوال الوقت. لكن الإذاعة- في تلك الليلة- بثت برنامجًا للأوبرا المحلية، بعنوان "أنهار الخريف". وساعة أن بدأت الموسيقى الافتتاحية، التفتت المرأة إلى الجميع، قالت: "أنصتوا، لا نريد أن يفوتنا شيء منها، ولا عبارة واحدة من الحوار أو الأغاني، لنعرف ما الذي ستفعله البنت (الراهبة البوذية) مع الولد الذي نذر نفسه للعلم والدراسة. المفروض أنها ستلاحقه حتى توقعه في غرامها... هذا الجزء أمتع ما في القصة، فانتبهوا جيدًا إلى الأحداث من بدايتها".

"لكن لماذا تريد الراهبة أن توقع بالولد، يا أمي؟" سألها الولد الصغير.

"لأنها تريد أن تتزوج منه، تصبح امرأته يعني". وإجابتها بهذا الشكل هي أقصى ما كانت تستطيعه من توضيح لولد في سنه، خصمًا لتفاصيل كانت أعمق.

"ولماذا تريد أن تتزوج منه، وتصبح امرأته؟" واصل الولد، وقد استبدت به نوبة لجاجة تساؤلية.

تجاهلته. ولكي تحول انتباهه، أشارت له بالالتفات إلى تفاصيل الأحداث

التي ترويها الأوبرا الغنائية، قالت: "انظر، هذا هو الملّاح، ماسك الدفة في الحكاية العجيبة، قد جاء دوره الآن..."

في تلك اللحظة عينها، انقطع الصوت في الميكروفون، وتوقف الحوار والعزف الموسيقي المصاحب وصوت المغنية الأوبرالية. حتى صوت الملاح في التمثيلية وهو قادم، انقطع كل ذلك فجأة. سادت لحظة سكوت تخللتها أصوات خشخشة، ثم جاء صوت المذيعة واضحًا: "أيها الرفاق من أعضاء الكومونة! مساء الخير، إليكم الآن كلمة مهمة يلقيها على حضراتكم السيد يانغ يوان أمين اللجنة الفرعية بالكومونة، يتحدث فيها عن بعض المسائل المتصلة بتربية الأغنام".

"الأغنام... مرةً أخرى"، قالت المرأة، وقد تجمدت ملامحها.

تنحنح العم يانغ، وببطء شديد تكلم: "أيها الرفاق، أتكلم معكم اليوم في موضوع مهم بشأن تربية المعيز".

من لهجته وهو يتكلم بهدوء، ظهر وكأنه قد نسي تمامًا ما حدث له صباح اليوم من سب علني أمام حشد من الناس.

بدأ كلامه بقوله إن الكومونة شرعت في خطة تطوير تربية الأغنام منذ السنة قبل الماضية، ونجحت حتى الآن في إنتاج مائة وواحد وخمسين رأسًا منها، "... والنتيجة العامة- بحسب هذا الإحصاء- تشير إلى تطور جيد في الأداء"، وقد بلغ إنتاج الألبان لكل رأس، في المتوسط، مقدار الكيلوغرام، "...وهو ما يعد إنجازًا رائعًا، من الناحية المبدئية". وبعد أن سرد عدة أرقام

وإحصاءات، إذا به يتحول فجأةً إلى موضوع آخر مختلف عما كان يتحدث فيه، قال، "ولكن، ورغم كل هذا، فلا يجب أن يأخذنا العجب بأنفسنا وبما أنجزناه، ولا يجب أيضًا أن نغفل عما يدبَّر من محاولات هدَّامة، ولا يصح أن تأخذنا الغفلة ونقول إن السموم التي أفرزتها 'عصابة الأربعة'[*] قد زالت تمامًا! فهل يمكن أن نركن إلى هذا الوهم، ونقول إن الساحة قد خلت ممن يناوئون محاولتنا في تطوير الثروة الحيوانية؟ مستحيل طبعًا. فصباح اليوم، كانت عندي في مكتبي واحدة من هؤلاء. إذن!"

و"إذن"، فكلامه كله كان يلف ويدور حول هذه النقطة، أول ما بدأ حديثه. كلامه كله كان مقصودًا به ما حصل صباح اليوم، وبالطبع فلم يكن لينسى شيئًا مما حدث! ولا بد الآن من الإنصات جيدًا لما يقول. حتى آبينغ، نهض من فوق المقعد الخشبي القصير وقام واقفًا، ينصت بانتباه، وقد ضرب التوتر العنيف بأوتاره في كل خلايا جسده.

"هي امرأة، إذن، وأنا لا أقول إنها سيئة إلى هذا الحد، ولا أتهمها بشيء!" كذا قال.

"وما الذي يمنعك من القول بأني سيئة؟ قل على راحتك. فالمرأة هذه لا تخافك، مهما قلت". صاحت امرأة آبينغ، وهي تتطلع إلى الميكروفون المعلق في الجدار.

---

[*] "عصابة الأربعة" مصطلح سياسي واجتماعي، يشير إلى مجموعة القادة الصينيين الذين تم إبعادهم عن السلطة ومحاكمتهم، عقب انتهاء الثورة الثقافية، بتهم متعددة أبرزها إساءة استخدام السلطة السياسية أثناء توليهم الحكم، وعلى رأسهم زوجة الرئيس ماو تسي تونغ.

"بل أقول فقط إنها أرادت إثارة المشاكل في الكومونة. وإذن، فقد جاءت وليس في جعبتها سوى افتراءات واتهامات بالباطل للمسئولين، ولم تستطع إلا أن تصيح وتسلط علينا لسانها، إذن! لكي تشيع بين الناس تصورات مختلفة، إذن! لم تكن تريد سوى أن تحدث البلبلة، إذن!" ظل العم يانغ يضع هذه الـ'إذن' في ذيل كل عبارة، وهو يتكئ على الحرف الصائت بقوة، حتى كاد يقترب في نطقه من الـ"زن" المتصل، الذي يشير إلى معنى الطنين الأجوف. وبعد هذه السلسلة متصلة الحلقات من الـ"طنين"، شحبت ملامح المرأة وتبدل صفاؤها كدرًا.

"أؤكد لكم أني لا أقصد من كلامي الآن أن ألصق بها التهم جزافًا، بل أتساءل معكم جميعًا، ألا يمكن أن تكون هذه المرأة إحدى النفثات المسمومة الباقية من زمن 'عصابة الأربعة'؟ وعلى هذا، أفلا يكون سلوكها مقصودًا به تخريب الاستقرار والتضامن فيما بيننا؟..."

"تخريب فـ *** أمك!" صاحت، وهي تقفز من فوق المقعد، وتنادي ولدها الصغير صارخة: "جياومو، اقطع سلك الميكروفون حالًا".

ومكبِّر الصوت في منزل آبينغ مثل معظم مكبرات الصوت في باقي منازل القرية، لا يعمل بمفتاح مستقل، أي لا يمكن التحكم في فتحه أو إغلاقه بزر مخصص لذلك؛ فهو متصل بمحطة الإذاعة القروية، ويعمل من تلقاء نفسه، ويذيع برامجه على الجميع في أوقات البث. وعلى من يُعرض عن سماعه، أن يمد يده فقط فيسحب السلك المثبت في الأرض عند زاوية الحائط؛ عندئذٍ ينقطع الصوت عن المكبِّر؛ ولو أنه لا ينقطع تمامًا، بل يظل

يصدر أزيزًا خافتًا جدًّا... مثل صوت الذباب. وهو لم ينقطع بالكلية هذه المرة أيضًا، عندما مَد الولد جياومو يده وجذبه بقوة، بأمر الوالدة.

جاء الدور عليها كي تبدأ نوبة طويلة من السباب والطعن ولعن آباء يانغ وأهله، والذين أنجبوا أجداده. أصبح عندها شبه اعتقاد بأنه رجل منحط فعلًا، وأن دناءته مختلطة ببذور شيطانية من الأصل. وأكثر ما سبب لها الغيظ، هو أنه كان يبث تشنيعه عليها في الراديو، بينما لا تملك الرد عليه. وحتى لو ردت بأعلى صوتها، فلن يسمعها. صحيح أنها انتقمت بفصل الأسلاك، لكن كل بيوت القرية ستواصل الاستماع إلى بقية كلامه؛ كل بيت سينصت مليًّا، ولن تملك أن تقطع أسلاك المكبِّر في كل واحد منها. وحتى لو قلنا إنه لم يذكرها صراحةً بالاسم واللقب، فلن يمضي يومان اثنان فقط حتى يعرف الجميع أنها هي المقصودة، سيدرك الكل أنها هي التي تعمل على "تخريب الاستقرار والتضامن بين أهل المزرعة الجماعية"، أنها المرأة سليطة اللسان التي تبث التشنيع والاختلاقات ضد المسئولين العاملين على تطوير ونجاح المشروعات في الكومونة، أنها المدعوة "سوفن" التابعة لفريق الانتاج رقم "××" من المنطقة رقم "××"، ذات اللسان الحاد كشفرة حامية. بات الميكروفون المصنوع من الورق المقوى، داكن اللون، هو الطرف الوحيد الذي راحت تصب عليه وابلًا من أقذع ما لديها من رصيد الملاسنات الشنيعة، كأنه يقوم الآن مقام السيد أمين اللجنة، يانغ يوان. هنالك، لم يكن لـ آبينغ أن ينطق بشيء؛ لأن أية كلمة سيلقيها الآن على مسامعها ستكون بمثابة نقطة ماء تُلقى في قدر مليء بالزيت المغلي، فتسوء الأمور

بمرحة يصعب معها التنبؤ بما ستؤول إليه. ومن ثم، فقد بقيت تتدفق مع تيارها العاتي، إلى أن توقف التيار من تلقاء نفسه (وهو الطبيعي، بما أن الطرف الآخر لم يكن حاضرًا يستدعي لديها طاقة الرد بالمزيد). فكّرت أنه من الأفضل لها أن تواصل الاستماع إلى ما يقوله الرجل عنها، فصرخت مرةً أخرى في الصبي: "جياومو، قم ضع السلك مكانه مثلما كان".

لكن الصوت الذي ردده المكبر الآن كان لمغنية شابة:

"ياحبيبي، متى تعرف أن قلبًا يتحرّق شوقًا... إليك!"

لم يكن الولد، هذه المرة، بانتظار صيحة أخرى من أمه، خصوصًا وقد رأى على وجهها سُم الغضب الناقع، فأسرع من تلقائه وسحب السلك من ثقب الجدار، دون أن يعرف مصير قلب الفتاة المتحرق.. شوقًا.

ولو أن كتلة أخرى من النار المستعرة في قلب امرأة آبينغ كادت تنفجر كبركان... كادت تعصف بكيانها كله. كان الغضب ينهشها من الداخل، دون القدرة على تصريف هذا الوحش المكتوم في أعماقها. لطالما كانت تعتمد على لسانها طوال الوقت، ولم يخذلها على الإطلاق؛ كم شرعته في وجه مبغضيها ولم تنهزم مرة، لم تخفق في النيل من خصومها بهذا السلاح البتّار، كانت تكسب به كل الجولات، كمحارب لا ينثلم له سيف، لكنها الآن لا تجد مفرًا من الاعتراف بأن حربها- هذه المرة- كانت خاسرة، ولن تقدر أن تهرع إلى مكتبه صباح كل يوم لتلقي على مسامعه ما لم يُقل حتى لكلاب ضالة في الدروب. ولنفترض أنها استطاعت، فماذا تفعل مع تلك المكبرات في

البيوت؟ هل ستهرع إليها جميعًا- في وقت واحد- وترد عليه بأعلى صوتها، وتقص على الناس حقيقة ما حدث، وتجأر أمامهم بالشكوى، وتقنعهم بأن الحق في جانبها؟

ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي تشعر فيها امرأة آبينغ بذلّ الهزيمة وتعاستها.

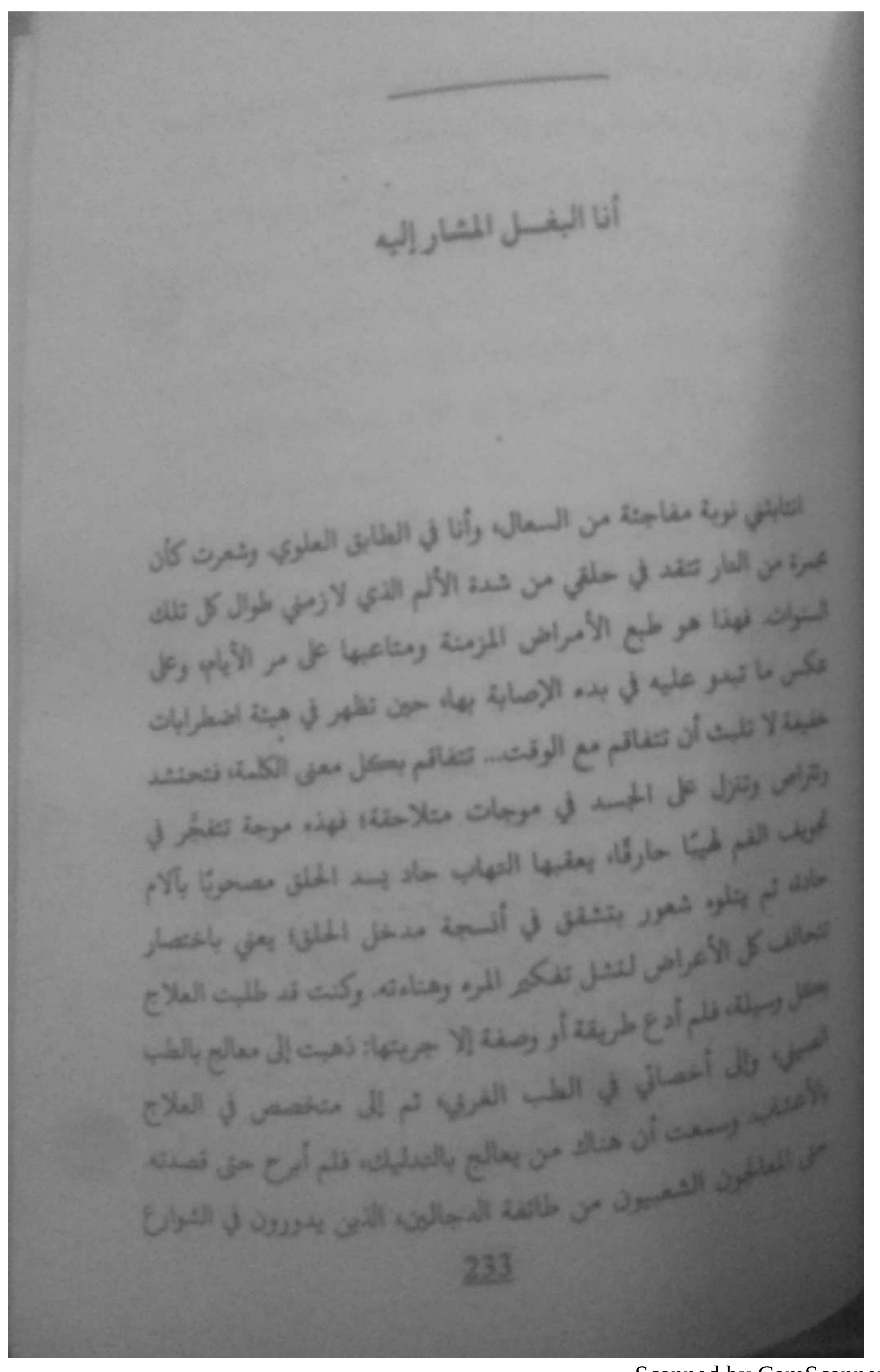
أخيرًا... أخيرًا جدًّا، كانت تميل صوب زوجها وتقول له، والنعاس يغالب أجفانها:

"اذهب من باكر إلى السوق، واسحب العنزة معك، اعرضها للبيع بأي ثمن، حتى لو جاءت بأربعين يوانًا! خلِّصنا من وجهها المشئوم، لا أريد أن أراها هنا... وجه النحس هذه!"

لم يجبها بشيء، بيد أنه كان يغرف بيده حفنة من الذرة الشامية ويلقيها، خفية، لوجه النحس. يقول لها همسًا: هاكِ، اقضمي من دون صوت!

كان الأمر يأخذ مجراه على هذا النحو.

[تمت في مايو 1980]



أنا البغـــل المشار إليه

انتابتني نوبة مفاجئة من السعال، وأنا في الطابق العلوي، وشعرت كأن جمرة من النار تتقد في حلقي من شدة الألم الذي لازمني طوال كل تلك السنوات. فهذا هو طبع الأمراض المزمنة ومتاعبها على مر الأيام، وعلى عكس ما تبدو عليه في بدء الإصابة بها، حين تظهر في هيئة اضطرابات خفيفة لا تلبث أن تتفاقم مع الوقت... تتفاقم بكل معنى الكلمة، فتحتشد وتتراص وتنزل على الجسد في موجات متلاحقة؛ فهذه موجة تتفجّر في تجويف الفم لهيبًا حارقًا، يعقبها التهاب حاد يسد الحلق مصحوبًا بآلام حادة، ثم يتلوه شعور بتشقق في أنسجة مدخل الحلق؛ يعني باختصار تتحالف كل الأعراض لتشل تفكير المرء وهناءته. وكنت قد طلبت العلاج بكل وسيلة، فلم أدع طريقة أو وصفة إلا جربتها: ذهبت إلى معالج بالطب الشعبي، وتلك أخصائي في الطب الغربي، ثم إلى متخصص في العلاج بالأعشاب، وسمعت أن هناك من يعالج بالتدليك، فلم أبرح حتى قصدته حتى المعالجون الشعبيون من طائفة الدجالين، الذين يدورون في الشوارع

يبيعون وصفاتهم الرخيصة التي لا تزيد عن كونها أنواعًا رديئة من المسهّلات- حتى هؤلاء- سألتهم وسألت غيرهم وغيرهم، وكل من هبّ ودبّ في مهنة التطبيب والعلاج، سواء من المعالجين المعترف بهم مهنيًا ورسميًا، أو من المتكسبين رزقهم في الأزقة وعلى الأرصفة والنواصي، دون أية فائدة! ولم أجد كلمة صدق في كل ما سمعت، إلا ما قالته امرأتي، بعد طول معاناة ويأس من إمكانية العلاج. قالت إن السيدة الوالدة هي السبب، من حيث إنها أورثتني حلقًا سريع العطب والهشاشة إلى هذا الحد، وأنا لم يعد بيدي حيلة، ولا بيد أمي أن تصلح العوار.

أردت أن أسعل بقوة كي أطرد البلغم الذي يسد قصبة الهواء، فوقفت مكاني عند أعلى السلم، وملأت صدري بالهواء، وأعدت رأسي إلى الوراء قليلًا وأنا أرفع كتفيّ وقد تقبّض وجهي. وفي اللحظة التي أوشكت فيها على البصاق، انفتح باب شقتنا بهدوء، وأطلت امرأتي برأسها ذي الشعر اللامع كذيل طاووس؛ أطلت عليّ وأنا واقف عند بسطة السلم في مستوى منخفض عن نظراتها. ومن مكانها عند مدخل الشقة، قالت لي:

"منظرك يوحي بأنك ستسعل وتوسخ الأرض كالعادة، ألا تتماسك حتى تضع منديلًا فوق فمك، بدلًا من البصق فوق الأرض؟ تبقى هكذا تتمخط وتثير جلبة من حولك، مثل عربة قطار تدمدم وتملأ الجو ضجيجًا، حتى يسمعك كل سكان البناية".

لم أملك إلا أن أصرّف الهواء المكتوم في صدري، وأهدئ تحفزي وتشنج كتفي ورقبتي، وأنا أدخل الشقة وراء امرأتي.

عدت أنشغل بأشيائي، وأفتش عما أريد أن أفعله. لكن المرأة التي بدا أنها قد سكتت طويلًا حتى فاض بها، انفجرت في تسألني:

"لماذا لم تسعل حتى الآن؟"

"فماذا أفعل يعني؟ لم تعد بي رغبة في السعال"

"يا لك من شخص غريب. ولماذا تجيئك الرغبة في السعال وأنت في الخارج، على السلالم، كأنك تتعمد أن تعرِّف السكان جميعًا أنك وصلت، كأنك تخشى ألا يعرفوا بمجيئك، هه؟ ولماذا تريدهم أن يعرفوا بمجيئك؟ أتظن أنهم سيفتحون الأبواب ترحيبًا بمقدمك الجليل؟ كأنك سعادة رئيس الإدارة، أو المدير العام بجلالة قدره! ألا تنتبه إلى أن صوتك المتحشرج- وأنت تسعل- يمكن أن تتكدر منه أسماع الناس؛ ألا تخشى أن يشتموك في سرّهم قائلين إنك همجي غير مهذّب؟"

قلت: "ولكن الكُحَّة تأتيني بالرغم مني، فأنا غير متعمد مضايقتهم. ومنذ قليل، كاد حلقي يتمزَّع من شدة الألم، فقلت إنني سأرتاح لو طردت ما في حلقي، ثم إنني لا أصدر أصواتًا متحشرجة، كما تزعمين".

"فلماذا إذن لا تسعل الآن، وتريح نفسك؟ الباب وأغلقناه، فاسعل كما تشاء".

"أخشى لو سعلت أن يخرج صوتي عاليًا"، قلت لها.

"طيب، حاول أن تخفّض صوتك قليلًا.."

"خلاص.. أنا الآن، فعلًا، لا تواتيني الرغبة في السعال".

"أنت يا ذا الرجل غريب حقًّا، ألم أقل لك هذا؟ منذ ساعة وأنا أقول لك اسعل كما تريد، فتحدق فيَّ ولا تفعل شيئا، كأنك تعاندني، ولا تطرد الزفت الذي في صدرك إلا فوق السلم، وبالخصوص في الطابق الثالث؛ يعني تمضي على الطابق الأول والثاني، ولا تأتيك الرغبة في الكحة إلا عند طابقنا نحن بالذات أو الذي فوقنا؛ وأنت تعلم تمام العلم أن السكان في هذين الطابقين كلهم من زملائنا في الشغل، ومنهم موظفون كبار... تعرف هذا، ولا يهمك كيف يفكرون بنا، وأي انطباع سيأخذونه عنا!"

لم أفتح فمي بكلمة، بل تناولت جريدة "التليفزيون"، وتظاهرت بمطالعتها.

"هيا... هل سأتحايل عليك كي تسعل! لماذا تتجاهل كلامي، وتتصنع أنك تقرأ الجريدة؟"

عاد الولد، في تلك اللحظة، من المدرسة، فتبدد آخر احتمال للسعال، لأن الولد هو ابن المرأة التي أنجبته على مثالها، تمامًا مثلما خلق الله الإنسان على صورته ومثاله؛ ولذلك، فكان لا بد للابن من أن ينسج على منوال الوالدة [يشدو بأنغامها!]. ولو كنت قد علمت أن المرأة عادت من الشغل، لما طاوعت نفسي، وتهيأت للكحة على درج السلم، وأنا طالع إلى الشقة منذ حين. والآن، تبددت تمامًا أية رغبة عندي في الاستجابة لنوبة السعال، وتقريبًا تبددت أيضًا الالتهابات التي كنت أشعر بها في تجويف الحلق، وكل

ما أثارته من آلام.

وامرأتي عمرها ما كانت لتتهاون معي في مسألة الكحة على السلّم؛ بل أكثر من هذا، فلم تكن لتقبل حتى أن أتحدث بصوت جهوري، سواء وأنا طالع إلى الشقة، أو أثناء جلوسي في الشرفة. فكان يكفي أن يعلو صوتي قليلًا، كي تستشيط غضبًا وتصرخ كطفلة حانقة:

"ماذا تفعل باستعراضك؟ هل تظن أن سلوكك هذا يثير الإعجاب؟ يا للعار، ماذا يقول الناس عنا؟ هل نبدو في عيونهم مثل السفلة والرعاع؟"

هكذا، ونحن في الغرفة، غرفتنا التي نعيش بها، لم يكن مسموحًا لأصواتنا- ونحن نتكلم، أو ونحن نسعل- أن تعلو ولو درجة واحدة فوق المعقول؛ وإلا صرخَت في وجهك قائلة: ماذا تقصد من هذه الضجة الصوتية؟ أما دريت أن الحوائط هنا- في بنايتنا- ليست عازلة تمامًا للصوت، وأن أية كلمة تقولها بصوت عال سوف تصل حالًا إلى كل الآذان فوقنا أو تحتنا، على اليمين والشمال؟ ليتك تركب زرًّا منظمًا للصوت في حنجرتك، وتضبطه على أقل درجة ممكنة!

كان حلقي يؤلمني بشدة، وكأن هناك شيئًا محشورًا في مقدم قصبة الهواء، شيئًا غليظًا قدر مفتاح ضبط الأصوات، الذي تكلمت عنه زوجتي؛ ولعله يفسر التضخم غير العادي في كتلة تفاحة آدم البارزة في رقبتي. وكان تضخمها اللافت هو ما أثار تعليقات زملائي ومعارفي، حتى صاروا ينادونني في العمل بـ"أبي غضروف"، وهي تسمية لم تكن تروق لامرأتي كثيرًا، وكانت

تستحثني على أن أشعر بالفخر، رغم كل تعليقاتهم الساخرة؛ بزعم أن هذا الجسم الغضروفي البارز علامة على درجة عالية من الذكورة. وقالت إن النساء يعجبن بالرجل الذي يحمل في رقبته غضروفًا بارزًا على هذا النحو؛ والرجال مهما حاولوا، فلن يمكنهم تضخيم حجم التفاحة الآدمية الطبيعية ليثبتوا ذكورة خارقة للعادة. ومن ناحيتي، فلم أكن أعبأ بكل هذا، وظللت أتمنى لو كانت تفاحتي أضأل مما هي عليه.

استغربت لما اكتشفت أن عددًا ممن كنت أتكلم معهم يعتبرون أن موقف زوجتي يستحق التقدير، معللين ذلك بأنه زيادة في الاهتمام بي وبأحوالي، على أساس أنها مسئولة بالأصل عن شئوني كلها. ومع هذا فقد بَقِيْت عند وجهة نظري من أن "تدخلها زاد عن حده كثيرًا، خصوصًا وقد وصل الأمر، ولو بالفكاهة العابرة، إلى فكرة تركيب آلة هندسة صوتية في مقدم الحنجرة". وقد كان الطرف الثاني في معادلة التأذي من ارتفاع حدة السعال هو الولد الصغير، الذي كان يسرع إلى أمه في معظم الأحيان شاكيًا:

"ماما، تعالي اسمعيه وقد انفجر صوته من جديد!"

أو يقول لها: "بابا يتكلم معي الآن، وهو يرفع صوته عن آخره!"

فترد عليه قائلة: "سأجيء حالًا، وأضبط له مفتاح صوته".

حينئذٍ، كانت تتفاقم آلام الحلق، وأشعر كما لو كان ثمة "خشخشة" أو "صرير" يتردد في أحبالي الصوتية، كأنها بقايا اهتزازات ميكروفون صدئ متعطّل، لكثرة ما تناولته الأيدي العابثة؛ فينحدر صوتي إلى الخفوت، ثم

الثلاثي تدريجيًا إلى أن ينكتم تمامًا فلا تصدر عنه نأمة، فينحبس من دون ضغطة على زر إغلاق، لأن الزر ساعتها يكون قد خمدت أنفاسه من تلقاء نفسه؛ لذلك، فقد كنت ألزم الصمت كثيرًا وأنا في بيتنا، ولا أحاول الكلام مع أي من الطرفين... المرأة وولدها، باعتبارهما معًا جناحي حزب سري على تواطؤ مستمر، طوال الوقت.

فقط، وفور انعطافي بزاوية حادة عند أول الشارع، كنت أرفع القيد عن حنجرتي، وأجرب الصوت بدرجاته كما أشاء؛ فأطلق لنفسي العنان، متخيلًا أني في حوار عابر مثلًا مع أحد المارة، أو في موقف احتجاجي على كثرة الزحام وتعطل المرور. وفي كل هذا، كنت حريصًا على ألا ترتفع نبرة الكلام إلى حدها الأقصى، وإلا تصور الناس أني مختل عقليًا، بل إنهم - ذات مرة - تصوروا فعلًا أني مجنون مشرد بالشوارع، فأحاطوا بي يريدون مشاكستي؛ وسرعان ما تبينوا أني شخص طبيعي مثلهم. فلما خاب أملهم في اتخاذي مادة للفرجة والتسلي، انطلقوا في طريقهم ساخطين، وألسنتهم تنال مني. وساعتها، انتابني الأسف الشديد لأجلهم؛ نعم، شعرت بالأسف لأني أحبطت آمالهم في أن يسعدوا لبعض الوقت، بمعابثة شريد هائم في الطرقات. لكني بالطبع كنت أتحسب لكل العواقب، وأنا ماشٍ مجلجلًا بصوتي على هواي؛ فكنت أتلفت خلفي محاذرًا أن يكون ولدي ورائي، إذ كنا نقصد معًا نفس الطريق كل يوم: هو إلى مدرسته، وأنا إلى عملي؛ فكم خشيت لو سمعني ووشى بي عند أمه؛ أظنها ما كانت لتتوانى عن أن تصيح بي قائلة:

"ماذا دهاك كي تجعل من نفسك أضحوكة وسط المارة، اليوم؟ فيمَ كنت

تطلق لصوتك العنان بهذا الصياح الرهيب، وأنت ذاهب إلى عملك؛ ألم تخش أن تقع في قبضة الشرطة وتسبب لنفسك المتاعب؟ قل لي، ماذا كنت تقصد من فعلتك هذه، هل كنت تنافس السيارات في إثارة الضجيج؟ علمًا بأن السيارات نفسها أصبحت ممنوعة من إطلاق النفير كيفما يحلو لها!"

تكلمت مدافعًا عن نفسي، فأوضحت لها أني لم أطلق صوتي بالصياح، كما يقال، بيد أن الولد حسم الموقف بشهادة قاطعة:

"سمعته بأذنيَّ هاتين، يا ماما، وهو يهتف بأعلى صوته في الشارع، هكذا: واء واواواوا"

وتسارع الزوجة إلى التصديق، فتقول:

"هو ذاك، انصت... انصت جيدًا؛ فهذا هو صوتك، هذا هو الصوت الذي تظنه جميلًا فتطلقه في الأسماع من حولك، هذا هو الصوت الذي يطلقه رجل مهذب مثلك... أتتصور ذلك؟ وأظن أنك لن ترفع عقيرتك على هذا النحو بين زملائك في العمل".

أهز رأسي، مثلما يهز كلب مبلل بالماء جسده هزًا عنيفًا متصلًا؛ فأنا أعرف معنى أن يكون المرء في عمله، ومقدار وكيفية التصرف اللائق بمثل هذه الأماكن العامة.

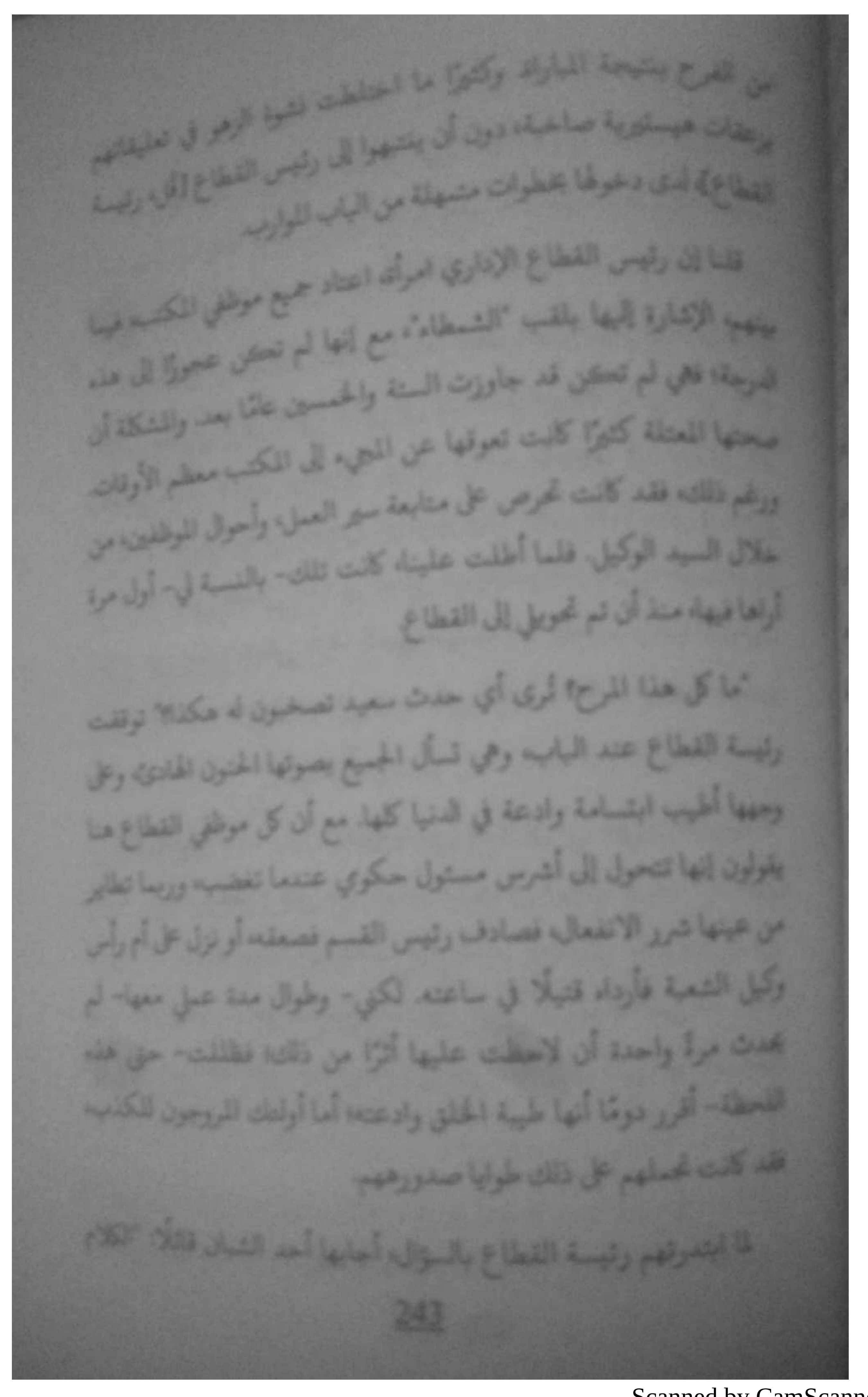
صحيح؛ فالحرص واجب في مكان العمل؛ الحرص واجب هناك، لأن امرأتي يمكن أن تصلها أخباري، وماذا فعلتُ، وكيف تكلمتُ في مكتبي؛ وبالطبع، فلست أريد أن أتسبب لها في أي حرج بما يمكن أن يشاع حول

سلوكي هناك؛ بالذات وقد بذَلَتْ جهدًا خارقًا لكي تعمل على نقلي من المصنع إلى قطاع الإدارة العامة، ولم يعد معقولًا أن أرتكب حماقات تضطرها إلى التوسط لنقلي مرةً أخرى؛ فمن هنا كان حرصي على أداء عملي بسلاسة، مع الانتباه الشديد إلى ضبط درجة صوتي أثناء حديثي مع الآخرين، بحيث تستقر على أقل معدل يسمح للناس بأن يسمعوني بوضوح؛ لدرجة أني كنت أشعر كأني الوحيد الذي يخفض صوته مقابل الجميع الذين كانوا يرفعون أصواتهم إلى درجة الصخب الهادر الذي يتجاوز كل لياقة وتحضُّر. أصوات منفِّرة تكاد تخترق طبلة الأذن من بشاعتها، ورغم هذا كله فلم يحدث مرة أن خرجت عن سلوكي المهذب معهم، ولا تدخلت في شئونهم، ولا شكوت أحدًا منهم؛ فكلٌّ يتحمل مسئولية تصرفاته وسلوكه، ويعرف ما الذي ينبغي الالتزام به من عدمه. لكن المزعج في الموضوع (والمُقرف أيضًا!) هو أن سلوكهم يؤثر عليَّ بصورة سلبية تمامًا، بمعنى أن طول بقائي معهم والألفة والساعات التي أقضيها بجوارهم قد شكلت نوعًا من الغواية، بحيث أصبحتُ أخشى فقدان السيطرة على صوتي، بمرور الأيام، منساقًا إلى تيار الصخب الصوتي الدائب. لكن الأمور لم تمض في هذا الاتجاه، لحسن الحظ، بعد أن أجرى رئيس القطاع تحقيقًا مع الجميع، واتخذ- على إثر ذلك- إجراءات تأديبية، سواي أنا وحدي؛ بل إنه أشاد بسلوكي المهذب أيما إشادة. وهنالك فقط، أدركت فجأةً قيمة نصائح امرأتي.

ثم نجيء إلى حكاية ما حدث بشأن مباراة كرة القدم. والموضوع هنا يتعلق بإحدى مباريات المنافسة الكبرى للحصول على كأس العالم. وأنا

أجهل الناس فيما يتصل بكرة القدم، وكل ما أعرفه عنها لا يزيد عما يتبادر إلى سمعي من بعض الكلمات الشائعة في اللعبة؛ كلمات متناثرة من قبيل: "التسلل"، "إصابة مرمى"، إلخ. ولطالما وجدت عُسرًا في محاولة فهم مثل هذه المصطلحات البسيطة المتعلقة بها. وكنت- منذ يومين- قد شاهدت في التليفزيون، وبمحض المصادفة، إحدى تلك المباريات. وبعيدًا عما كان يجري فوق أرض الملعب بالذات، فقد كان أكثر ما شد انتباهي، كالعادة في مشاهدة اللعبة على الشاشة الصغيرة، هو تلك الموجات الهادرة المتلاحقة من صيحات جماهير المشجعين فوق المدرجات؛ جماهير بعدد الرمل، وكل واحد فيهم قد فقد عقله من الجنون. ولعل السبب المشجع على هذا الفقدان هو عدم وجود الزوجات في الملاعب. نظرتُ وقلتُ يا لَحَظ كل هؤلاء الناس، سواء أكانوا مكسيكيين أو من أية شعوب أخرى! وبقيت طوال المباراة مفعم المشاعر، وقد بلغ بي التأثر مداه بما أراه أمامي على شاشة التلفاز. وكنت طيلة الوقت متلهفًا على إحراز هدفٍ ما، كي أسمع- مرةً تلو المرة- ذلك الصراخ المجنون المتصاعد من المدرجات. أي هدفٍ كان يكفي، ومن أي فريق ضد الآخر، لا يهم؛ فلم أكن أعرف على وجه الدقة مَن يلعب ضد مَن؟ فما أزال أتابع وأنصت هكذا إلى أن تنبَّهَت في أعماقي جذور النزوات الدفينة (كذا تسميها زوجتي، تتأملني وتقول إن أعماقي تنطوي على جذور نزوات دفينة). حتى جاءت اللحظة التي وددت فيها أن أصبح مثلهم، وأزمجر وأصرخ بصيحات وحشية مجنونة؛ بيد أني لم أجرؤ؛ والمرأة قاعدة... قيد عِيَاني.

كان الشبان، صباح اليوم التالي في مكتب القطاع، يكادون أن يطيروا

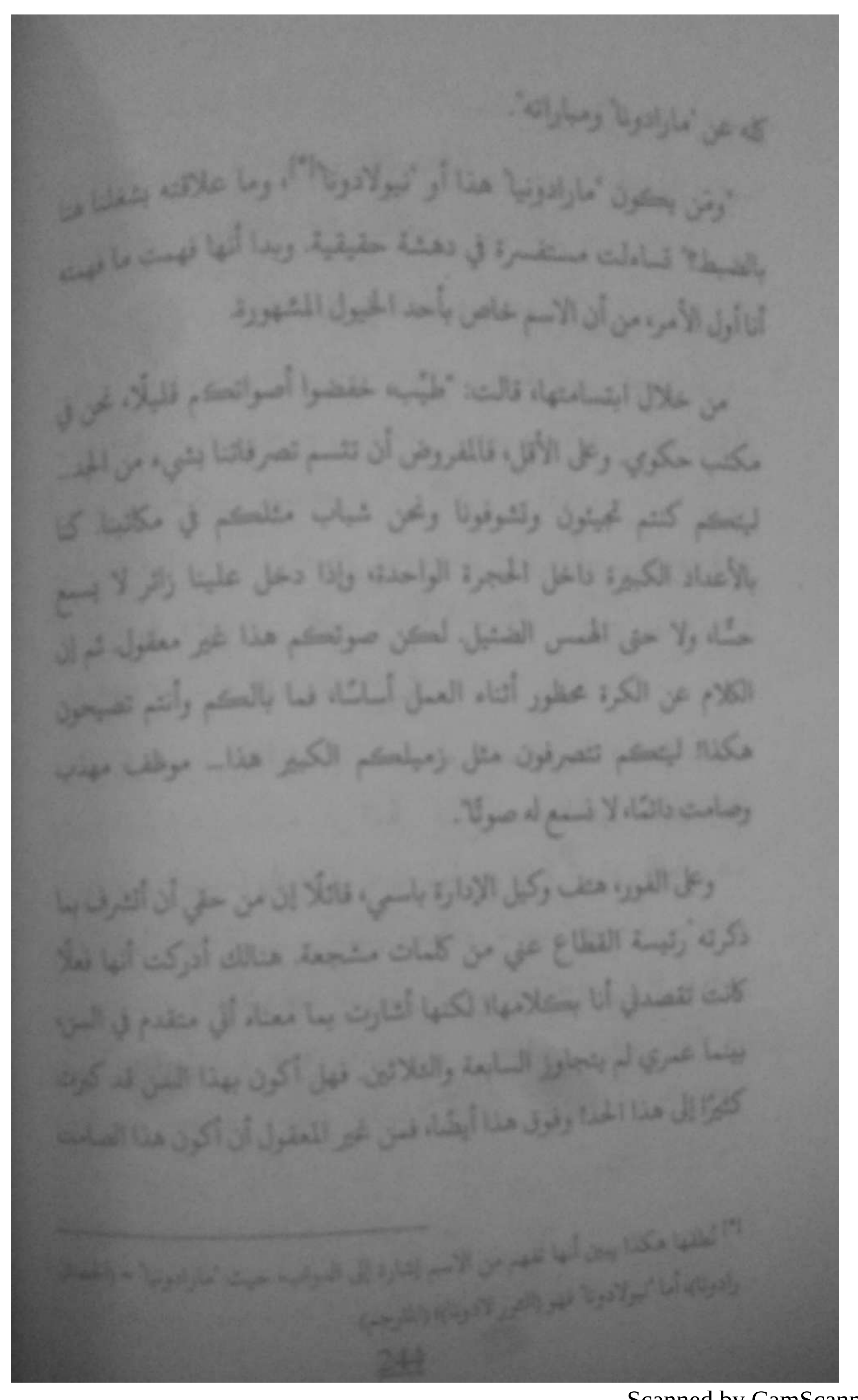


من الفرح بنتيجة المباراة. وكثيرًا ما اختلطت نشوة الزهو في تعليقاتهم بزعقات هيستيرية صاخبة، دون أن ينتبهوا إلى رئيس القطاع (أقول: رئيسة القطاع)؛ لدى دخولها بخطوات متمهلة من الباب الموارب.

قلنا إن رئيس القطاع الإداري امرأة اعتاد جميع موظفي المكتب فيما بينهم الإشارة إليها بلقب "الشمطاء"، مع أنها لم تكن عجوزًا إلى هذه الدرجة؛ فهي لم تكن قد جاوزت الستة والخمسين عامًا بعد. والمشكلة أن صحتها المعتلة كثيرًا كانت تعوقها عن المجيء إلى المكتب معظم الأوقات. ورغم ذلك، فقد كانت تحرص على متابعة سير العمل، وأحوال الموظفين، من خلال السيد الوكيل. فلما أطلت علينا، كانت تلك -بالنسبة لي- أول مرة أراها فيها، منذ أن تم تحويلي إلى القطاع.

"ما كل هذا المرح؟ ترى أي حدث سعيد تصخبون له هكذا؟" توقفت رئيسة القطاع عند الباب، وهي تسأل الجميع بصوتها الحنون الهادئ، وعلى وجهها أطيب ابتسامة وادعة في الدنيا كلها. مع أن كل موظفي القطاع هنا يقولون إنها تتحول إلى أشرس مسئول حكومي عندما تغضب، وربما تطاير من عينيها شرر الانفعال، فصادف رئيس القسم فصعقه، أو نزل على أم رأس وكيل الشعبة فأرداه قتيلًا في ساعته. لكني -وطوال مدة عملي معها- لم يحدث مرة واحدة أن لاحظت عليها أثرًا من ذلك؛ فظللت -حتى هذه اللحظة- أقرر دومًا أنها طيبة الخلق وادعة؛ أما أولئك المروجون للكذب فقد كانت تحملهم على ذلك طوايا صدورهم.

لما ابتدرتهم رئيسة القطاع بالسؤال، أجابها أحد الشبان قائلًا: "الكلام



كله عن "مارادونا" ومبارياته".

"ومَن يكون "مارادونيا" هذا أو "نيولادونا"[*]، وما علاقته بشغلنا هنا بالضبط؟" تساءلت مستفسرة في دهشة حقيقية. وبدا أنها فهمت ما فهمته أنا أول الأمر، من أن الاسم خاص بأحد الخيول المشهورة.

من خلال ابتسامتها، قالت: "طيّب، خفضوا أصواتكم قليلًا، نحن في مكتب حكومي. وعلى الأقل، فالمفروض أن تتسم تصرفاتنا بشيء من الجد. ليتكم كنتم تجيئون وتشوفوننا ونحن شباب مثلكم في مكاتبنا. كنا بالأعداد الكبيرة داخل الحجرة الواحدة، وإذا دخل علينا زائر لا يسمع حسًّا ولا حتى الهمس الضئيل. لكن صوتكم هذا غير معقول. ثم إن الكلام عن الكرة محظور أثناء العمل أساسًا، فما بالكم وأنتم تصيحون هكذا!! ليتكم تتصرفون مثل زميلكم الكبير هذا... موظف مهذب وصامت دائمًا، لا نسمع له صوتًا".

وعلى الفور، هتف وكيل الإدارة باسمي، قائلًا إن من حقي أن أتشرف بما ذكرته رئيسة القطاع عني من كلمات مشجعة. هنالك أدركت أنها فعلًا كانت تقصدني أنا بكلامها! لكنها أشارت بما معناه أني متقدم في السن، بينما عمري لم يتجاوز السابعة والثلاثين. فهل أكون بهذا السن قد كبرت كثيرًا إلى هذا الحد؟ وفوق هذا أيضًا، فمن غير المعقول أن أكون هنا الصامت

---

[*] نطقها هكذا يعني أنها تفهم من الاسم إشارة إلى الدواب، حيث "مارادونيا" = [illegible] رادونا)، أما "نيولادونا" فهو [illegible] (المترجم).

الخرس المقطوع دابر اللسان، فليس سوى الشيطان وحده هو الذي لا يصوِّت له صائت.

فيما بيني وبين نفسي، فكرت هكذا. لكن لساني- على الرغم مني- انطلق يقول: سعادة رئيسة القطاع، كلام سيادتك يشرفني كل الشرف ويحرجني أيضًا؛ لأني لا أتميز بشيء فوق الواجب والأصول!

هي العبارة التي لقنتها لي امرأتي، فبقيت أكررها على مسامعها مرارًا حتى حفظتها عن ظهر قلب، فاجتررتها ساعتئذٍ. ولو أني لم أكن أرى في صياغتها شيئًا عبقريًا؛ وبالتالي، فقد أحسست- لما قلتها- بأني أنا الآخر لست من العبقرية في شيء. وحزنتُ على عكس ما بدا في وجه السيدة الرئيسة من رضا بما قلت، فانفرجت تقطيبة باقية في جبينها مثلما تنفرج براعم أقحوان؛ فخطر ببالي حينئذٍ فجأة أن أقول لها: "وأنا أيضًا أحلم بأن أصرخ...واواواوالالالا بأقوى ما في حنجرتي من عزم".

أعرف أن تلك هي مشكلتي، ذلك هو دائي اللعين منذ الطفولة. فكلما مُنِعت من سلوك أو تصرف معين، جمحت بي الرغبة لإتيانه. يُحظر عليّ، مثلًا، أن أفتح فمي بكلمة، فإذا كل همي أن أتكلم لأقول أي شيء... المهم أن أخرق الحظر على أي نحو. كان يقال لي اجلس مكانك ولا تتحرك، فإذا النشاط يستبد بي كي أقوم من مكاني، وأقفز هنا وهناك؛ أو يتوجه إليّ التنبيه بألا أحاول العطس والتمخط وسط الضيوف، فينحصر اهتمامي كله في أن يرتج جسدي بالعطس. ثم كبرت ولازمتني الخصلة. ولو أن المناسب هنا القول بأني ما أزال رهن مزاج طفولة متصل، دون أن يدركني النضج بعد.

فقط، وللتأكيد، أشير، هنا، إلى أن أمي كانت مصدر محظورات الطفولة (علمًا بأنها لم تحظر عليَّ الصياح بأعلى صوت)، وانتقل الدور الآن إلى الزوجة. ألم يزعم أحد علماء النفس بأن الزوجة بديل الأم! فمن يا تُرى البديل الذي تمثله رئيسة القطاع؟

يلزم التأكيد هنا بأن الرغبة في العصيان باطنية فقط، وليست اجتراء حقيقيًا على اقتحام دائرة المنع. فهي لم تدخل إلى حيز الفعل في أي وقت من الأوقات؛ لأني- وفي السياق نفسه- كنت رهن داء آخر لازمني منذ كنت حدَثًا، ألا وهو خشية الكبار. ففي بيتنا، كنت أخشى الوالدين؛ فلما دخلت المدرسة صرت أتهيب المدرسين والناظر والطلاب الأكبر سنًّا؛ وبعد التحاقي بالمصنع، كنت أعمل ألف حساب للسيد المدير ورئيس الورش الفنية؛ وإذ تم تحويلي إلى القطاع الإداري، فقد انتقل مصدر التهديد بالخوف ليتجسد في شخص رئيس القطاع، ووكيل المكتب الفني، ورئيس القسم، وكبار الموظفين، بل وزملائي الأقدم تعيينًا، وكل من أظنهم أقوى نفوذًا. وأعود إلى البيت، فأخاف الزوجة وولدها، بل وضيوفهما؛ حتى اكتشفت أن من يمثلون لي موضوعًا للخوف أكثر من أن يحصيهم عَد، وليس من بينهم جميعًا واحد يخشاني. لذلك، فرغم تفكيري الباطني الدائم في العصيان، لم يحدث قط أن عصيت أحدًا، فكابدت شقاء لا يوصف؛ إذ وجدتني بين شقَّي رحى، بين جموح التوثب باتجاه الرفض وخذلان النكوص عن الاجتراء... النكوص عن الاجتراء.

والآن، فقد تملكت مقدرة تامة على ضبط الصوت بإرادة ووعي، في أي

مكان وزمان، بحيث لا يصدر عني أثناء الكلام إلا نأمة صوت لا تزيد كثيرًا عن طنين جناح بعوضة؛ حتى صار محدثي يسألني أن أرفع صوتي قليلًا... هه؟ ماذا تقول؟... من فضلك، تكلم بصوت أعلى كي أسمعك! وتنبسط أسارير زوجتي، تقول: نعم، هكذا بالضبط! لكن- من ناحية أخرى- ما يزال ثمة شيء في أعماقي يحرِّضني، يسوقني إلى أن أجأر بالصوت العالي، العالي، العالي!

في مساء نفس اليوم الذي شرفتني فيه رئيسة القطاع بالثناء عليّ، قالت لي زوجتي- التي كانت قد عادت لتوها من النوبتجية ـ قالت بسرور واضح:

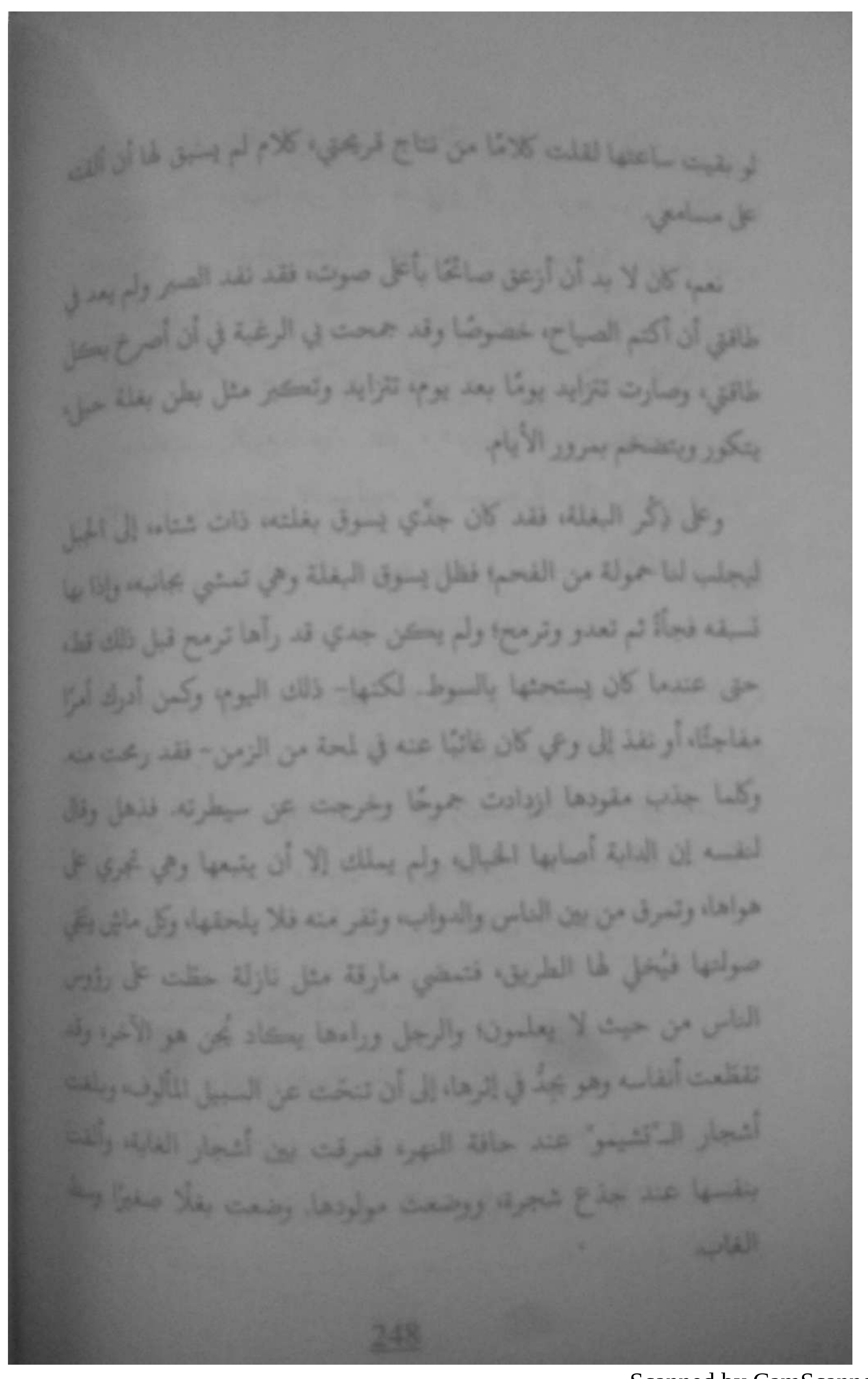
"جاءني الخبر، قالوا لي إن رئيسة القطاع امتدحت سلوكك اليوم في المكتب".

قبل أن يأتي رد الفعل المعقول على كلامها هذا، زاحمني ذلك الشيء الباطني الذي كان يعتمل في تفكيري، واندفع خارجًا بالرغم مني، قلت: "وماذا يعني أن تثني عليّ؟ الفُساء على رئيسة القطاعة وعلى تقديرها... ملعون مثل هذا التقدير، ملعون، ملعون، ملعون!" حاولت جاهدًا أن أكتم هذا الشيء بكل وسيلة، وأن أمنعه من الانطلاق على لساني.

وهي استغربت الأحوال المتبدلة، سألتْ:

"مالك؟ هل جرى لك شيء؟"

أجبتها في الحال: "لا، لم يحدث شيء، أنا بخير، أنا لم أتميز بشيء فوق الواجب والأصول؛ فأنا لم أفعل غير اللائق والواجب، لا أكثر!" قلت نفس العبارة التي لقنتني إياها، ثم استدرت ومشيت مبتعدًا؛ مشيت بسرعة لأني



لو بقيت ساعتها لقلت كلامًا من نتاج قريحتي، كلام لم يسبق لها أن ألقت على مسامعي.

نعم، كان لا بد أن أزعق صائحًا بأعلى صوت، فقد نفد الصبر ولم يعد في طاقتي أن أكتم الصياح، خصوصًا وقد جمحت بي الرغبة في أن أصرخ بكل طاقتي، وصارت تتزايد يومًا بعد يوم، تتزايد وتتكور مثل بطن بغلة حبلى، يتكور ويتضخم بمرور الأيام.

وعلى ذكر البغلة، فقد كان جدّي يسوق بغلته، ذات شتاء، إلى الجبل ليجلب لنا حمولة من الفحم؛ فظل يسوق البغلة وهي تمشي بجانبه، وإذا بها تسبقه فجأة ثم تعدو وترمح؛ ولم يكن جدي قد رآها ترمح قبل ذلك قط، حتى عندما كان يستحثها بالسوط. لكنها- ذلك اليوم، وكمن أدرك أمرًا مفاجئًا، أو نفذ إلى وعي كان غائبًا عنه في لمحة من الزمن- فقد رمحت منه وكلما جذب مقودها ازدادت جموحًا وخرجت عن سيطرته. فذهل وقال لنفسه إن الدابة أصابها الخبال، ولم يملك إلا أن يتبعها وهي تجري على هواها، وتمرق من بين الناس والدواب، وتفر منه فلا يلحقها، وكل ماشٍ يتقي صولتها فيُخلي لها الطريق، فتمضي مارقة مثل نازلة حطت على رؤوس الناس من حيث لا يعلمون؛ والرجل وراءها يكاد يُجن هو الآخر وقد تقطعت أنفاسه وهو يجدُّ في إثرها، إلى أن تنحّت عن السبيل المألوف، وبلغت أشجار الـ"كشيمو" عند حافة النهر، فمرقت بين أشجار الغابة، وألقت بنفسها عند جذع شجرة، ووضعت مولودها. وضعت بغلًا صغيرًا وسط الغاب.

فأنا البغل المشار إليه! أنا البغل طبعًا، وإلا فكيف لواحد من الأسوياء أن تتسلط عليه رغبة شيطانية في الصياح الوحشي! كيف، وأنا لست أحد تلك السباع الهائمة في البرية، لا أنا نمر ولا فهد ولا ذئب ولا حتى غوريللا أو خنزير بري، إلخ؛ يعني- باختصار- هي فكرة غريبة على عقل آدمي حصل على قدر من التعليم والتربية. لكن ماذا يفعل هذا الذي تعلم وتربى مع فكرة عنيدة تتأبى على الانقياد! فأنا- حيال ذلك الأمر- مفتقد للاتزان العقلاني... والسبب هو جذور الغرائز الدفينة. ففي كل مصيبة، تكمن دائمًا جذور نزوية لعينة. فلأجرب مرةً العيش مع جذوري الغريزية الخبيثة، عسى أن تنصلح الأحوال، وتأخذ الأمور مسارها السليم، بشرط أن أعثر على مكان يلائم تلك المواجهة الحاسمة؛ مكان يناسب ميلاد ذلك البغل الحشوي الغريزي الضئيل. وبالطبع، فلن يكون المنزل مكانًا مناسبًا، ولا المكتب الإداري في القطاع، ولا الشارع العام بالتأكيد.

فكرتُ في الذهاب إلى الحدائق العامة. وأنا- منذ زمان بعيد- لم أذهب إلى حديقة. ولو أني كنت- في شبابي- أذهب صباح كل يوم إلى الأماكن الخلوية، فأجد أعضاء الفرق المسرحية منهمكين في تدريباتهم، بما فيها التدريبات الصوتية، حيث يرفعون عقيرتهم بالغناء عند أقصى درجة. فما المانع من أن أذهب أنا الآخر إلى هناك، وأرفع عقيرتي بأصخب صياح على وجه الأرض، ويراني الناس، ويظنون أني أحد أعضاء تلك الفرق التمثيلية. بكّرتُ ذات صباح ومشيت إلى أقرب حديقة، فاستغربت زوجتي وقالت إنني مجنون لكي أتركها ساعة دفء حميم، وأمضي خارجًا لا تدري إلى أين.

قلت إنني ذاهب إلى التمارين الصباحية، فتساءلت وما الداعي لهذه التمارين الآن بالذات؛ قالت إنهم في الشغل لن يخصموا راتبي لأني غير لائق رياضيًا... يعني، فما الحاجة الملحة للتمرين؟ لم أكترث لكلامها، ومشيت وأنا مندهش؛ فهي امرأة... أنثى، يعني، والمفروض أن تدرك تمامًا ما يصاحب حالة الوضع من تلهُّف وارتباك.

ذهبتُ ركضًا. ولما وصلت إلى هناك، اكتشفت أن المكان ليس في هدوء شجرة "تشيمو" على حافة نهر؛ بل هو بركان يغلي ويفور بكل الجالسين والشاربين قهوة الصباح، والراكضين والمصطفين صفوفًا في تمارين أول النهار... مِرجَل مليء بالفوران حتى حافته. وليس ثمة فرق مسرحية تمارس تمارينها الصوتية. فهل بادت الفرق المسرحية من الوجود، أم تفرقت، أم إنها لم تعد تمرِّن أصواتها، أو ربما مُنعت من التدريب الصوتي بالمرة؟ يا لَلسماء، كيف لي أن أجأر بصوتي ها هنا، وسط كل هؤلاء الناس من قُدامي وخلفي وحولي في كل بقعة من هذا المكان، مثل قطع الـ"يوتياو" [الزلابية] المحتشدة فوق سطح زيت يغلي؟

لثلاثة أيام متتالية، ظللت أذهب في البكور، والحال لا يتبدل.

تدبَّرت الذهاب إلى أبعد حديقة في البلدة. قصدت إليها بعد ظهيرة أحد الأيام، متوقعًا أن تخلو ساحاتها من المتريضين والراكضين والمهرولين ضمن تمارين اللياقة البدنية. لكني مُنيت بخيبة أمل، إذ رأيت أعداد مرتاديها- في ذلك الوقت- أكثر من زبائن أول النهار، وحركتهم أنشط من قطع الـ"يوتياو" إياها في قدور الزيت الصباحية، وقد احتشدت في كل زاوية؛ فبقيت أتمنّى

وأبحث عن ركن هادئ يخلو من الناس؛ حتى بدا لي أني عثرت عليه أخيرًا.
وما كدت أقترب مطمئنًا، حتى فوجئت بولد وبنت يتسحَّبان خارجين من
وراء الشجيرة منعقدة الأوراق، فطارت روحي من ذعر المفاجأة. بقيت ساكنًا
لحظةً أسترد فيها أنفاسي. وما كدت أفعل حتى لمحت عاشقين آخرين
يكمنان وراء شجيرة مجاورة، ثم لم ألبث حتى اكتشفت أن وراء كل
الشجيرات- في هذه الناحية- ولدًا وبنتًا تحت كنف الأغصان الكثيفة،
يتحركان معًا بأجمل ما يتحرك به اثنان في هذا العالم، ويند عنهما صوت
شديد الفوران شبيه بما يصدر عن مياه في مرجل، تغلي وتتقلَّب؛ فصرت
أحسد القوم على سعة حيلتهم، ونبوغهم في العثور على أماكن نائية غير
مأهولة حقًّا. لكني عدت وفكرت فيما أنا مقدم عليه من حالي، وقلت
لنفسي: كيف- يا تُرى- يتسنى لي الصياح الآن، وسط هذا الحشد المحيط
بي من كل جانب رائق؟ ثم لم أملك إلا أن أغادر المكان خائب المسعى، بينما
الرغبة في الصراخ مشتعلة في أعماقي تتأجج فيضًا حارقًا، تجتاحني اجتياح
نار تتلظَّى، لا طاقة لي على احتمالها.

فكرت في الذهاب إلى الضاحية القريبة، حيث الأرض فسيحة، وغابات
البامبو مترامية الأطراف، وجداول الماء المنسابة، والبرك المتفرقة هنا وهناك،
وعلى حوافها أسراب الإوز تستحم وتنثر أجنحتها، والجو كله يتيح فرصة
مناسبة لما عقدت عليه العزم من صياح تنعتق به طوايا النفس منذ سنين.
ركبت خط الأتوبيس الذاهب إلى أبعد محطة في الضواحي، وطالعت أسماء
المحطات على اللوحة المعدنية، فوجدتها تشير- في معظمها- إلى أماكن

يغلب عليها الطابع القروي، أو الغابي الدهري في بعض الأحيان، فهذه "عزبة" كذا، وتلك "بحر" كذا، والأخرى "أحراش" منطقة كيت. قرأتها جميعًا بتمعُّن، وأثار انتباهي اسم المحطة الأخيرة "ترعة لانساو" [شق أو بالأحرى 'غدير الورد'!]، فتعلقت بالاسم، وقررت الذهاب إلى هناك. وفي الطريق اكتشفت أن المحطات المشار إليها باسم "عزبة" و"زاوية" كلها عبارة عن أحياء سكنية أكثر عمرانًا وازدحامًا وازدهارًا عن وسط المدينة نفسه، وقد امتلأت شوارعها الكبيرة بعدد هائل من السيارات التي أعاقت الحركة المرورية في خط سير الأتوبيس لمدة ساعة كاملة. أما المحطات التي تحمل أسماء "خان" و"حدائق"، فهي عبارة عن ورش للمصانع الانتاجية، وقد قامت من وسطها المداخن العالية النافثة للدخان. وبالنسبة لمحطة "ترعة لانساو" [غدير الورد]، فلم يكن بها غدران ولا ورود، بل كانت عبارة عن بيوت سكنية متجاورة، منها العالي وكثيرها المنخفض أو متوسط الارتفاع ومعظم المساكن كانت شبه متلاصقة، حتى بدت البنايات العالية- في أماكن متفرقة منها- كأنها اشمأزت من الجوار الواطئ الفقير، فانتحت جانبًا وشمخت بطرف أنفها في السماء. وبالطبع، فلم يكن لي أن أقف في تلك المساحة الفاصلة بين البيوت الواطئة وجاراتها العالية، كي أطلق العنان لحنجرتي، وأجأر بالصوت الحبيس. ولم يكن بمقدوري تجاوز تلك البيوت كلها إلى ما وراءها، عند حافة العمران، كي أمارس الصراخ على هواي؛ لسبب بسيط، وهو أنه لم يكن ثمة "ما وراء" حافة عمران؛ إذ امتلأ الأفق المترامي ببيوت أخرى متراصة، وبين هذه وتلك انداحت مساحات ضئيلة للغاية من المزروعات القريبة من البيوت، قريبة كأنها بعض باحاتها أو أفنيتها التابعة

لها من قريب، ولو أنها أكبر قليلًا من الأفنية... ولم أكن لأتصور نفسي واقفًا وسطها أطلق زئيرًا مدويًا يجلجل في الأنحاء.

ركبت الأتوبيس الذاهب في الاتجاه المعاكس، وقلت فلأجرب أماكن أخرى. ثم لاحظت أن الفارق ليس كبيرًا، بالإضافة إلى ما رأيته عيانًا من أن التطور قد لحق بهذه الضواحي البعيدة عن قلب المدينة، فانقلبت إلى أحياء سكنية مأهولة في معظمها، بحيث لم تدع موضعًا ملائمًا لراغب في صياح جنوني.

تذكرت فجأةً بيت العائلة القديم، البيت الكائن على بعد مائتي ميل عن المدينة.

تذكرت أشجار السرو الكثيفة القائمة على حافة النهر الطويل، وأسراب الكركي الأبيض العائدة إلى مبيتها أول المساء؛ تذكرتها والأسماك الصغيرة تسقط من مناقيرها في الطرقات؛ وأنا أجري وأجمع مما تساقط الشيء الكثير. كانت تلك غابة كبيرة من أشجار السرو التي تأوي في جنباتها هوام الليل، وأسراب من ابن عرس والقطط والأرانب البرية؛ وقيل إن 'الأيائل النهرية' شوهدت بها؛ بيد أن الأرض هناك سهلية منبسطة تمتد عند أطراف التل، بينها وبين المناطق الجبلية نحو عشرين ميلاً أو يزيد، ولا نعرف من أية ناحية قصدتها الأيائل لتستقر بها؟ فكنتُ، أيام صباي، أروح وأجيء مع أقراني حافي القدمين، ثم نجلس كلنا قدام باب بيتنا نلهو بمشاكسة الفتيات، اللاتي يقدمن على بلدتنا من المناطق الجبلية القريبة؛ فكنا نجري وراءهن حتى نقف قبالة غابة السرو، وترهبنا شجراتها وأسرارها المسربلة بالظلال،

ونصرخ معًا بكل ما في حلوقنا من طاقة، تتصايح صيحات صبية عابثين نطلق العنان لأصواتنا على هوى نزواتنا الصغيرة، ونصخب لدى أطراف البلدة ملء صدورنا، وفتيات الجبل- من وراء الدغل- يجاوبننا بأصواتهن المشردة، فيلتئم في الصدى صخبنا... جدائل من نداء أسطوري غائم، كما تغيم في شاشات التلفاز الصور والظلال:

يا فتاة الجبال..

يا ابنة التلال

قولي لي أين أنت..

تعالي، فوق النهر

تعالي، فوق شطوط المدى

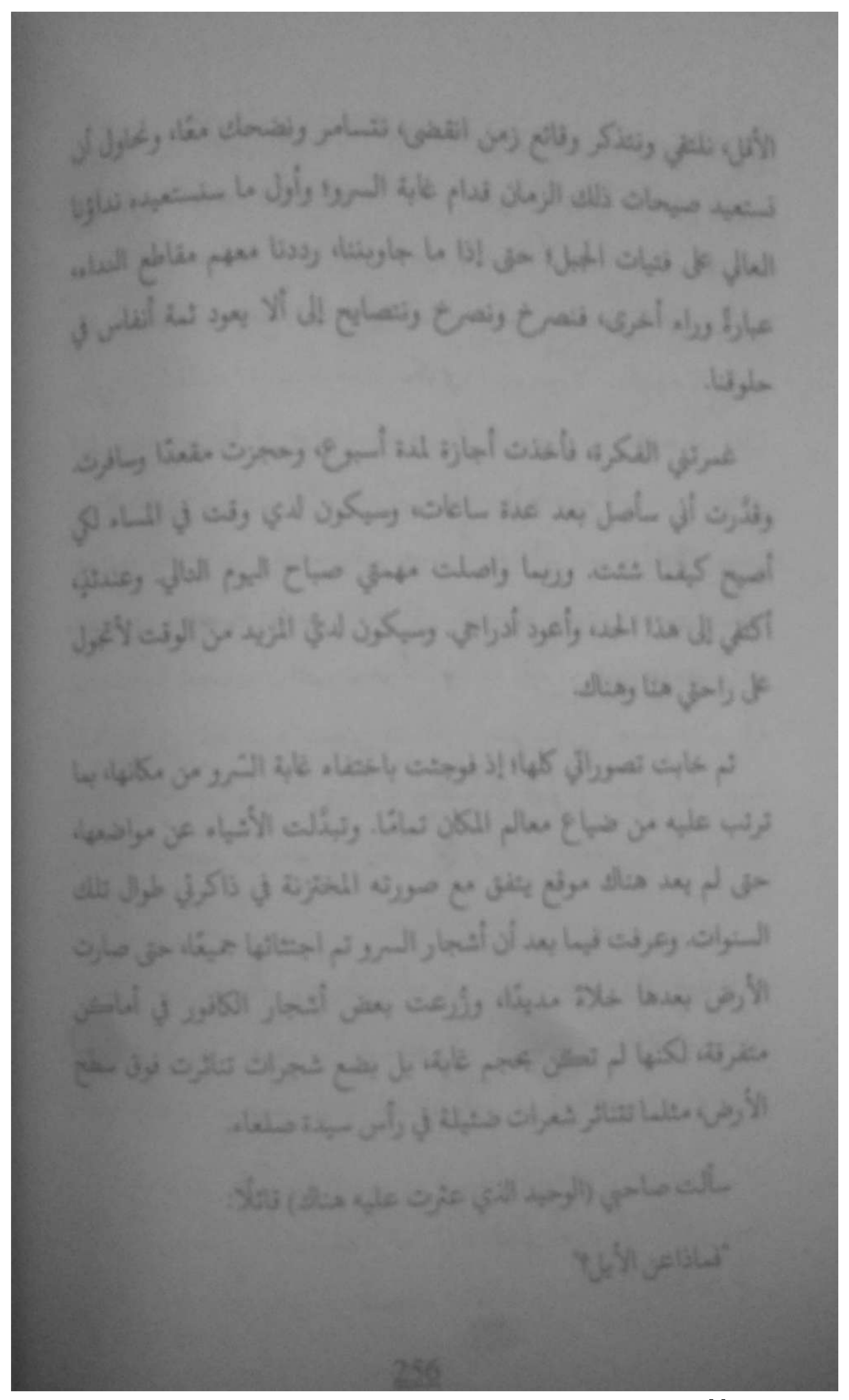
لكن الأصداء كانت ترددها هكذا: يا فتاة الجبال التلال، قولي لي أين أنت، أين أنت؛ تعالي فوق النهر وشطوط المدى.

لم يكن هناك مَن يزجرنا، وقتئذٍ، حتى الأمهات بملاحقاتهن المعتادة وكل "الممنوعات" التي حفظناها عن ظهر قلب: ممنوع تسلق الأشجار، حاذر أن تنزل النهر، إياك والشجار مع الآخرين! كلها لم توقفنا عن الهتاف تجاوبًا مع بنات الجبل؛ بل على العكس تمامًا، راحت أمي تحرّضني على الصياح بكل قوتي، قالت ازعق بعزم ما في طاقتك، لئلا ينحبس صوتك وأنت بعد صغيرا وكانت حكاية المرض الذي ألمّ بصوتي هذه ما تزال بعد لم تتضح بصورة كافية. وأذكر أن صديقًا كان قد نصحني، منذ وقت غير بعيد، بأن أجرب الكشف عن صوتي في القسم الطبي التابع لأكاديمية الموسيقى. وقال

لي وقتها إنه مكان مشهود له بالكفاءة، تمامًا مثل قسم التجبير والعظام في كلية التربية البدنية. والمعروف أن القسم الطبي بأكاديمية الموسيقى مشهور بكفاءته في تشخيص وعلاج أمراض الأنف والأذن والحنجرة. جلست وقال لي: الطبيب افتح فمك على اتساعه؛ فلما فتحت فمي على اتساعه، سألني: ما شغلتك؟ قلت: موظف حكومي، تنهّد طويلًا، وقال إنه لا يدري كيف يصارحني بما على طرف لسانه حتى لا يحرجني. قال... أنتم هكذا دائمًا أيها الموظفون، تريدون طوال عمركم أن تشعروا بأنكم أصحاب مكانة في المجتمع، وكل واحد منكم يظن نفسه أنه متعلم بحق. والمشكلة أنكم تتقمصون شخصية المثقف المتحذلق، تتكلمون بصوت المثقفين الناعم المخنث، ولا تفهمون أن الصوت هو أهم وظيفة لابد من ممارستها منذ ساعة الميلاد الأولى... الصوت لا يمكن كتمانه، ياحضرات! وإلا حصلت المشاكل، وجاءت الأمراض والمصائب، فأنت بكتمانك لصوتك تعمل شيئًا شبيهًا بإخصاء الديكة. أنا دائمًا ما يحضر إليّ مرضى كثيرون في مثل حالتك بالتمام!

نفس ما قالته لي أمي بالضبط، وكأنه كان يتنصت عليها، وهي تقول ذلك. لكن امرأتي (لما حكيت لها) بصقت، وشتمته شتائم قبيحة، وقالت: هذا طبيب خرفان، وأنه هو مَن يجب إخصاؤه، وليس أي أحد آخر.

قررت السفر إلى بيتنا القديم في البلدة، وكل مرادي من السفر هو الصياح بملء صوتي. صحيحٌ أنه لم يعد لي هناك أي أقارب الآن، لكني ربما استطعت العثور على بعض من أصدقاء الطفولة، واحد منهم أو اثنين على



الأول، نلتقي ونتذكر وقائع زمن انقضى، نتسامر ونضحك معًا، ونحاول أن نستعيد صيحات ذلك الزمان قدام غابة السرو؛ وأول ما سنستعيده نداؤنا العالي على فتيات الجبل؛ حتى إذا ما جاوبننا، رددنا معهم مقاطع النداء، عبارة وراء أخرى، فنصرخ ونصرخ ونتصايح إلى ألا يعود ثمة أنفاس في حلوقنا.

غمرتني الفكرة، فأخذت أجازة لمدة أسبوع، وحجزت مقعدًا وسافرت. وقدّرت أني سأصل بعد عدة ساعات، وسيكون لدي وقت في المساء لكي أصيح كيفما شئت. وربما واصلت مهمتي صباح اليوم التالي، وعندئذٍ أكتفي إلى هذا الحد، وأعود أدراجي. وسيكون لديَّ المزيد من الوقت لأتجول على راحتي هنا وهناك.

ثم خابت تصوراتي كلها؛ إذ فوجئت باختفاء غابة السّرو من مكانها، بما ترتب عليه من ضياع معالم المكان تمامًا. وتبدّلت الأشياء عن مواضعها، حتى لم يعد هناك موقع يتفق مع صورته المختزنة في ذاكرتي طوال تلك السنوات. وعرفت فيما بعد أن أشجار السرو تم اجتثاثها جميعًا، حتى صارت الأرض بعدها خلاءً مديدًا، وزُرعت بعض أشجار الكافور في أماكن متفرقة، لكنها لم تعطِ بحجم غابة، بل بضع شجرات تناثرت فوق سطح الأرض، مثلما تتناثر شعرات ضئيلة في رأس سيدة صلعاء.

سألت صاحبي (الوحيد الذي عثرت عليه هناك) قائلًا:

"فماذا عن الأيل؟"

"أي أيل؟" رد على سؤالي بسؤال، وهو مرتبك.

قلت: "ألم يكن في الغابة قبل إزالتها أحد الأيائل؟ ألم تعثروا عليه وأنتم تقطعون الشجر؟"

"لم أسمع بشيء من ذلك. وربما لو كان فيها أيل لهرب إلى الجبل، وهم يقطعونها".

طيب، وماذا عن فتيات الجبل؟ رجعن إلى الجبل طبعًا.

فمَع مَن إذن أهتف صائحًا بأعلى صوتي؟ ذبلت رغبتي في الصياح ومجاوبة الصوت وأصدائه. وكنت أحسب أن مسقط رأسي هو الموضع الوحيد الذي تأتنس به وحشة رجائي، بيد أني- حتى بعد زوال الرغبة في الصياح- فوجئت بأعداد من شبان البلدة يتوافدون ويتحلّقون بي، كأني أحد تلك الكائنات الفضائية العجيبة. وأخذوا يتساءلون، وهم يحدقون فيَّ بأبصارهم: من أين الرجل؟ ماذا يعمل، وماذا يكسب في الشهر؟ وفيم جاء إلى هنا؟ لماذا لم يحضر معه امرأته؟ كم تمنيت ساعتها أن أصرخ وأصرخ في وجوههم، لما كان هذا يجد ذاته مبررًا لموقف هزلي يفرض نفسه فوق رؤوسنا جميعًا. لما تبدد الحشد، ابتدرتُ صاحبي بسؤال:

"هل شعرت في حياتك بأنك تريد أن تصيح بكل قوة؟"

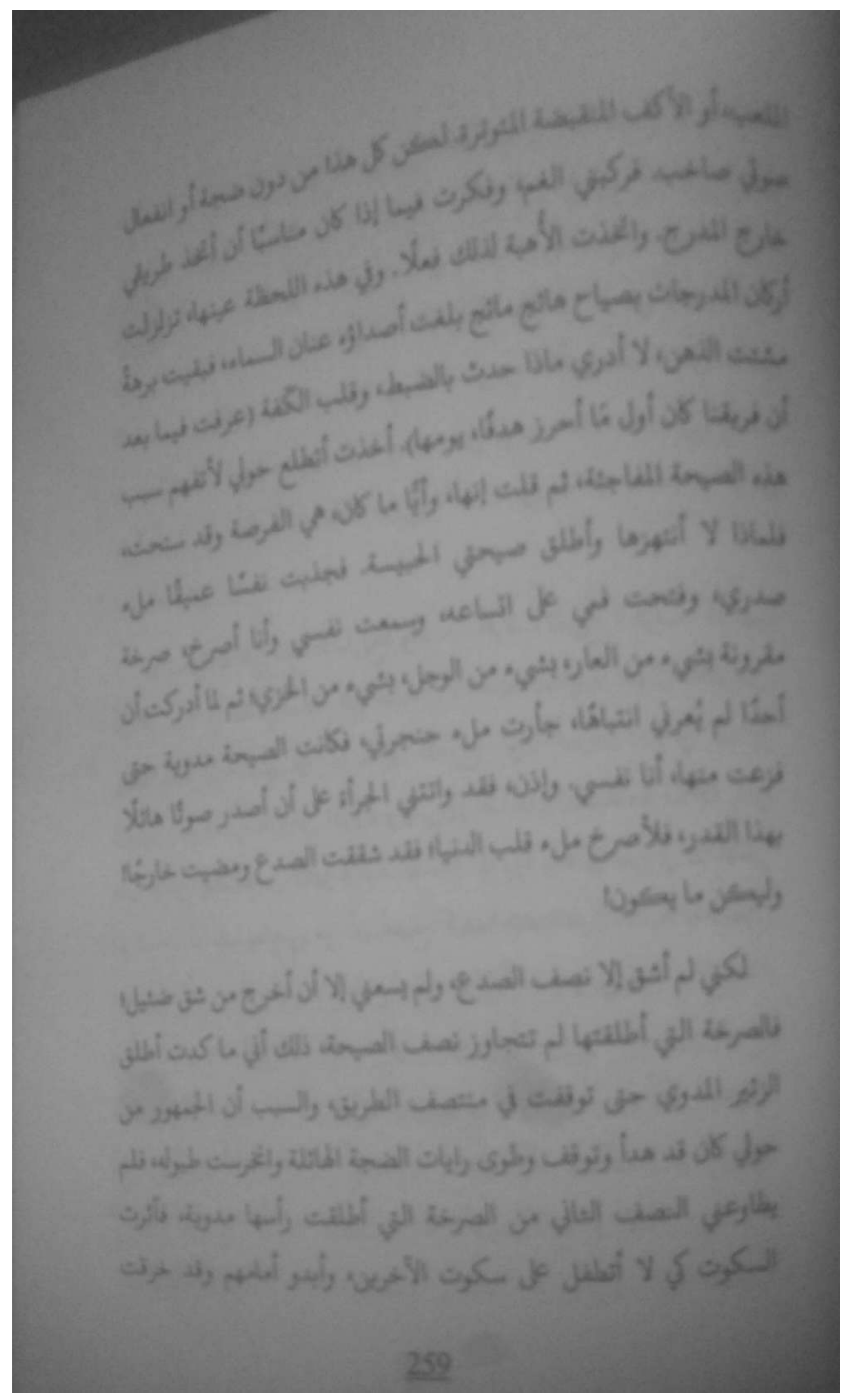
لوهلة، بدا غير مستوعب للسؤال. ولعله شك في دقة سمعه، لكن العبارة اخترقت أذنيه بوضوح، واختمرت في وعيه للحظات. هنالك، أجابني قائلًا:

"ولماذا أصيح؟ هل جُننت؟ أنا لست طفلًا كي أصيح".

مستحيلٌ أن أطلق العنان لصياحي الآن، بالطبع، وإلا لظَن بي الجنون. وكان أن رجعت إلى المدينة وقد تعقدت مشكلتي، وتفاقمت أزمة البغل الصغير بين جوانحي، بدرجة تفوق الاحتمال.

وتصادف، في تلك الأونة، الإعلان عن مباراة كرة قدم لفرق الدوري العام، وجاء فريق مدينة "أ" ليلعب في مدينتنا. فقلت إنها فرصة للجميع كي يسعد بمباراة مثيرة، وفرحت فرحة لا توصف بهذا الخبر، باعتبار أن الفرصة قد واتتني أخيرًا؛ خصوصًا لما تذكرت ذلك الصخب الجنوني الذي صاحب مباراة كأس العالم إياها، فكان أن اشتريت تذكرة وذهبت، تحدوني الآمال دون اكتراث بفائز في المبارة أو خاسر؛ فلم تكن هذه المسألة تهمني على أي نحو من الأنحاء، على أساس أن هدفي الوحيد من حضوري هو الصراخ وحده ولا شيء آخر؛ لا سيما أن الصراخ- في هذه المناسبات- لا يدخل في بند المخالفات القانونية. وساعة أن جلست بين الناس على المدرجات، ملأني فيضٌ من الفرحة بالخلاص.

لكن المحبط في الأمر أن الجمهور هنا ليس مثل مشجعي فريق المكسيك، من حيث إنه بدا هادئًا مهذب المسلك، جادًّا ووقورًا؛ جمهور جاء للمشاركة في اجتماع تحضيري لمؤتمر وطني، وليس للعبة رياضية شعبية. وعلى أية حال، فقد بدا عليه الاهتمام بما يجري في الملعب بين الفريقين المتنافسين، ومن حين لآخر تسري همهمة وسط المدرجات... همهمات خفيضة مصحوبة بشيء من الانفعال الواضح في حركات الأيدي المشيرة تجاه



الملعب، أو الأكف المنقبضة المتوترة. لعلني كل هذا من دون ضجة أو انفعال صوتي صاخب، فركبني الغم، وفكرت فيما إذا كان مناسبًا أن آخذ طريقي خارج الملعب، واتخذت الأهبة لذلك فعلًا. وفي هذه اللحظة عينها، تزلزلت أركان المدرجات بصياح هائج مائج بلغت أصداؤه عنان السماء، فبقيت برهة مشتت الذهن، لا أدري ماذا حدث بالضبط، وقلب الكفة (عرفت فيما بعد أن فريقنا كان أول مَن أحرز هدفًا، يومها). أخذت أتطلع حولي لأتفهم سبب هذه الصيحة المفاجئة، ثم قلت إنها، وأيًا ما كان، هي الفرصة وقد سنحت، فلماذا لا أنتهزها وأطلق صيحتي الحبيسة. فجذبت نفسًا عميقًا ملء صدري، وفتحت فمي على الساعة، وسمعت نفسي وأنا أصرخ، صرخة مقرونة بشيء من العار، بشيء من الوجل، بشيء من الخزي؛ ثم لما أدركت أن أحدًا لم يُعرني انتباهًا، جأرت ملء حنجرتي، فكانت الصيحة مدوية حتى فزعت منها، أنا نفسي. وإذن، فقد واتتني الجرأة على أن أصدر صوتًا هائلًا بهذا القدر، فلأصرخ ملء قلب الدنيا؛ فقد شققت الصدع ومضيت خارجًا؛ وليكن ما يكون!

لكني لم أشق إلا نصف الصدع، ولم يسعني إلا أن أخرج من شق ضئيل؛ فالصرخة التي أطلقتها لم تتجاوز نصف الصيحة، ذلك أني ما كدت أطلق الزئير المدوي حتى توقفت في منتصف الطريق، والسبب أن الجمهور من حولي كان قد هدأ وتوقف وطوى رايات الضجة الهائلة وانخرست طبوله، فلم يطاوعني النصف الثاني من الصرخة التي أطلقت رأسها مدوية، فآثرت السكوت كي لا أتطفل على سكوت الآخرين، وأبدو أمامهم وقد خرقت

الصمت خرقًا ساذجًا، فيظنون بي الظنون؛ وربما قالوا إني مختل عقليًا، أو شخص غريب الأطوار. كم وددت تلك اللحظة لو اكتملت سعادتي باستكمال نصف الصرخة، ولو أنها- في الحقيقة، وبالمعيار المضبوط- كانت تعتبر نصف النصف؛ فتلك هي الأقدار وأحكامها التي تحرمني نصف نصف النصف من باقي صيحة محتجزة. وببلاغة الرمز، فكأن نصف البغل الجنيني قد تدلت منه رجلاه دون باقي الجسد، حتى لم يعد هناك مفر من إعادتهما مرةً أخرى إلى بطن أمه. فتلك قروح دامية يشقى بها من يكابدها، وتجلّ تباريحها عن الوصف.

لما استولت عليَّ تلك التباريح، وأخذت أترقب تفريج الكرب، اكتشفت أن السبب في هذه المعاناة هو اهتمامي الشديد بمتابعة أحوال المتفرجين. واكتشفت أني- منذ أن جئت إلى المدرج- وأنا أصرف انتباهي كله إلى الجمهور في المدرجات من حولي، وليس إلى ساحة الملعب، مترقبًا أية بادرة صياح من جانبهم، كي أنتهز فرصة الضجة المدوية وأطلق صراخي أنا الآخر. ثم تساءلت عما يمنعني من أن أصيح كيفما شئت دون التقيد بالجمهور، خصوصًا أن امرأتي ليست حاضرةً معي، ولا أحد يعرفني هنا. وعلى هذا، بدأت أركز اهتمامي على الملعب نفسه، بحيث أصرخ وقت تسديد الهدف بالضبط، لا يهم في ذلك إن صاح الجمهور أو لم يصِح، لا يهم أبدًا، لا يهم في شيء. ولحسن الحظ، فساعة أن تمنيت دخول الكرة في المرمى، تم ذلك على الفور، وتم تسديد الهدف، وقبل أن يفيق حارس المرمى من ذهوله:

"آآ هاآآآآ"

انطلقت زاعقًا، قبل أن يفيق الجمهور من ذهوله.

واصلت الصياح على ثقة بأنهم سيتبعوني على الفور.

لكن، للغرابة، لم تتبعني منهم سوى الشتائم:

"أير الكلب..."

"جبان!"

"هل جننت؟"

"اغلق فمك، واخرس!"

وبالطبع، فقد لزمت الصمت فورًا. والصرخة التي لم أكد أُطلق سراحها انخرست في عنفوانها. أدركت ساعتها فقط أن الفريق المنافس هو الذي أحرز الهدف، وقد فاتني الاهتمام بالتمييز بين شارات الفريقين ولون راياتهما وملابس اللاعبين، إلخ؛ وإلا لكنت فطنت إلى أن اللاعب ذا الفانلة الحمراء والشورت الأخضر، صاحب الكرة المسددة، يتبع الفريق الآخر.

عزّ عليّ الالتفات، من شدة الحرج، وقد شعرت أنه لم يعد لي مكان بين مَن انقطعت بيني وبينهم أسباب التفاهم. وملعب الكرة- كما يقولون- ساحة لكل التوقعات الممكنة وغير الممكنة على حد سواء. المهم أنه لم يعد لي أن أبقى طويلًا ها هنا. فأي صياح هذا الذي يتطلب الإذن بالموافقة من الآخرين، أو التوافق مع حالتهم المزاجية المتقلبة، بحيث يأتي وفق رغبتهم واستعدادهم؟ انتهزتُ فرصة انشغال الجمهور بالمباراة، وانسللت خارجًا من

المدرج. وعند الباب، وجدت صبية صغارًا يرجون أن أعطيهم تذكرتي كي يجلسوا بها على مقعدي، ما دُمت لن أعود إلى مكاني. أعطيتها لهم، فصاروا يتخطفونها من بعضهم بعضًا وكادوا يتعاركون. لم أكترث بما يقع بينهم ومضيت خارجًا من الموضع الذي لم أجد به حلًا لمشكلتي، فكان لزامًا أن أسلك سبيلًا آخر.

عزمت على الذهاب إلى جبل "إيميشان". وكنت قد سمعت من أحد الشبان- ممن تعرَّفت إليهم أيام عملي بالمصنع- أنه كان يقصد إلى قمته المميزة باللون الذهبي، ويرقب طلوع الشمس وأطياف السحاب في الأجواء البعيدة. ولم يكن صديقي هذا قد أدركته آفة الرغبة في الصراخ فوق قمم التلال، لكنه- من فرط تأثره، وهو عند القمة الذهبية- لم يتمالك نفسه من الصراخ، ذات مرة. وكان قد ذكر لي أنه لم يكن يدري بماذا يصرخ، حينما واتته الرغبة المفاجئة تلك المرة؛ فما كان منه إلا أن تطلع إلى الشمس وطائفة السحب الغامر عند حد الأفق وصاح:

"آيس كريم ... اللذيذ!"

سكت قليلًا، وشرح لي سبب عبارته تلك بأنه لم يكن يعرف عبارة أخرى غيرها؛ وذلك بحكم عمله بائعًا للآيس كريم قبل مجيئه إلى المصنع. واعتبر أنه لا يهم بماذا يزعق، ما دام الأمر لا يعدو كونه "صياحًا في صياح"!

كان لابد لي أن أتذكر هذا الأمر مبكرًا. وعمومًا، فالوقت ما يزال متاحًا حتى الآن. وهذا في حد ذاته يكفي لكي يشيع في نفسي قدرًا من التفاؤل.

وبالنسبة لقِمّة جبل إيميشان، فهي- فيما أعرف- تعتبر من بين أعلى القمم في منطقتنا هذه، إذ تبلغ نحوًا من ثلاثة آلاف وسبعة وسبعين مترًا ارتفاعًا فوق سطح البحر. لم أفكر طويلاً في الأمر، بل قررت طلب أجازة لمدة ثلاثة أيام فقط لزيارة بيت العائلة، والإطمئنان على صحة الوالدة؛ وكانت قد أصيبت بوعكة في الأيام الماضية؛ وسأقول لامرأتي أني ذاهب في مهمة خاصة بالمكتب، تجنبًا لإثارة شكوكها. ويبدو أني أصبت بشيء من الاضطراب الذهني أو الخبال بعد ذلك؛ إذ اتضح أني لم أتقدم بطلب أجازة إلى السيدة رئيسة القطاع فعلًا، وأني توهّمت ذلك. وارتبكت أفكاري للغاية، وقلت إن ذلك ربما يكون قد حصل في الحلم؛ لأني لم أتذكر شيئًا من ذلك حتى قطعت التذكرة وسافرت، ووصلت إلى منطقة "باوكواس".. نعم، تمامًا، فأنا بالفعل لم أتقدم بطلب الأجازة. ولما لاحظ زملائي تغيبي عن العمل، واتصلوا بزوجتي قالت لهم إنني في مهمة تابعة للمكتب، فاستغربوا جدًّا بالطبع، وظنوا أن مكروهًا قد وقع لي.. كل هذا لم أكن أعرف عنه شيئًا، فيما كنت مشغولًا- منذ وصولي إلى "باوكواس"- بالصعود إلى القمة الذهبية. وفوجئت بأن زوار الجبل الراغبين في الصعود إلى قمته كثيرون جدًّا، لم أتخيل أنهم كثيرون إلى هذا الحد، لدرجة أن المسافة من تحت الجبل إلى قمته كانت تمتلئ بالزوار؛ وكل زائر وراء الآخر في صف طالع أو نازل مثل طوابير النمل الزاحفة. وليس ثمة فراغ لمزيد. فكنت أخفض رأسي، وأواصل الصعود مثابرًا. وقد سبقتُ كل خطوط النمل الزاحفة، التي كانت تشعر بي وأنا أزاحمها صعودًا، وتظن أني أتعجل البحث عن دورة المياه. فظللت أصعد وأصعد طوال النهار حتى بلغت القمة بنهاية اليوم. لما بلغتها، حجزت غرفة

في الفندق، واستأجرت سترة واقية من البرد، وتعشيت في المطعم، ثم نمت مبكرًا؛ وقلت إن النوم في وقت مبكر مطلوب لأن الجو بارد جدًا، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية لأني كنت أحتاج إلى الراحة وتوفير أقصى درجة من الطاقة المطلوبة بدءًا من صباح الغد، للصياح بكل جهد ممكن، ولمعرفتي بأن الجبل مقصد إقبال جماهيري كثيف؛ فلم يكن من المناسب الاستيقاظ في وقت متأخر، وإلا لفوجئت بأعداد هائلة من الناس قد سبقتني إلى هناك، مثل الأعداد التي فوجئت بها يوم ذهابي إلى الحديقة العامة؛ مما قد يحول بيني وبين غايتي من الزيارة.

وفي منتصف الليل، انتبهت قليلًا على صوت جلبة صادرة عن بعض ممن وصلوا في وقت متأخر؛ فقلت يا لَلأعداد الزاحفة إلى هذا المزار الديني العريق. وأغفيت وقتًا، ثم صحوت بعد الرابعة فجرًا بقليل، فاكتشفت أن هناك مَن ناموا قبلي واستيقظوا قبل أن أفيق، ولعلهم لم يناموا أصلًا؛ لأني-حيثما ذهبت- وجدت زحامًا كثيفًا، حتى كنت أشق طريقي بصعوبة بين المتزاحمين، وأنا في غاية الكرب خشية العجز عن بلوغ الغاية، مما يضيع كل ما تجشمته من أجل الزيارة بددًا. ذهبت بي الظنون كل مذهب حتى شككت في رواية زميل المصنع القديم، وقدَّرت أنه عمره ما جاء إلى القمة الذهبية [المقدسة!]، ولا صاح فيها صيحة واحدة. واستقر عزمي على أن أحقق ما جئت من أجله هنا، وأطلق صيحاتي عاليًا، مهما كانت الظروف؛ وحتى لو كانت أعداد الناس حولي آلافًا مؤلفة، فسأصيح من دون تردد، وليكن ما يكون، يعني حتى لو انهالت عليَّ الشتائم من كل صوب، فلن أتراجع؛ فليس

من السهل أن أجيء إلى هنا مرةً أخرى، وليس من المستساغ أيضًا أن أعود بالبغل الجنيني إلى حيث جئت. فلا مفر من أن أضعه هنا، وأفرغ من مخاض الميلاد.

لم أكن أنا الذي اقتربت بإرادتي من رأس الجبل الذهبي، بل كانت الجموع الزاحفة هي التي أخذتني في خضمها، جذبتني مع المتقدمين في الأمام، ودفعتني مع المتدافعين من وراء. وساعة أن اقتربت منها، هالني منظر الحشود، حتى بدت من كثرة الرؤوس كأنها ملاءة سوداء كبيرة في تجاور مع صفحة السماء الزرقاء في خلفية المشهد؛ بعض تلك الرؤوس يتحرك وبعضها الآخر ساكن؛ إما بسبب البرد القارس، وإما بدافع الجو المهيب ووقار الترقب انتظارًا للحظة طلوع الشمس؛ الكل صامت في خشوع. ولم يكن لي أن أفتح فمي بشيء وسط تلك الحشود المجللة بالسواد؛ فالشيطان وحده هو المتجرئ في مثل هذا الظرف على الصراخ. فكان عليّ انتظار لحظة الشروق حتى يعم الضوء جنبات الدنيا، وبعدها تنطلق الصيحة. ولو أني لم أكن أترقب لحظة الشروق، على وجه الدقة، وإنما لحظتي المواتية.

وجاءت اللحظة. غير أن الشمس لم تجئ، وصفحة السماء عند مشرقها كانت قد تهيأت تمامًا لهذا المجيء، فانفسح المدى الأزرق الصافي وراء السحب الداكنة، وبدا أنه افترش للطلوع ندفًا متناثرة من غيوم وردية خفيفة تألقت أهدابها بشفافية متدرجة، أخذت تذوب وتنمحي شيئًا فشيئًا، والناس في صمت وخشوع يترقبون طلوع الشمس من طاق النهار؛ وبقلبي فيض متدفق من مشاعر تجلّ عن الوصف. وتذكرت ما قيل لي ساعة وصولي

ليلة أمس، من أن كثيرين جاءوا وطلعوا إلى قمة التل، وانتظروا طلوع الشمس أيامًا طويلة، لكنهم غادروا دون أن يدركوا تلك اللحظة. لكني، من حسن حظي، كنت على موعد مع الشروق الذي رحت أشهد بواكيره بعيني رأسي، سوى أن تلك الغيوم الوردية- التي كانت قد أُشربت بحمرة خفيفة- تهيأت للتلاشي بتدرج وئيد منذ لحظات، وسرعان ما تلاشى لمعان أطرافها لتُبدي ما كان خافيًا وراءها من موجات السحب الداكنة وهي تتلاحق، تتتابع مثل دفقات الموج من تلك الناحية التي أوشكت الشمس على أن تبزغ منها. فما هي إلا لحظات حتى كانت قد حُجبت أهداب السحب الوردية الشفافة بأستار قاتمة مغبشة من أثر اعتكار الألوان، فتبدل أفق السماء الشرقي ساحةً مكفهرةً متكدرة الصفو، في حين كانت الأجواء- فيما عدا تلك البقعة- عامرة بالضياء في جنباتها. هو ذا النهار الطالع، قبل أن تطلع شمسه!

كانت ثمة تنهدات آسفة، فحزنت من وطأتها، وانتابني الأسى.

تفكرت في الأمر، وقلت أليست الحياة مليئة بأشياء كثيرة تجري على هذا النحو! ألا يأتي وقتٌ على المرء يصبح فيه رهن الانتظار، ينتظر ويطول به الزمن وهو على هذه الحال، ثم تنقضي الأوقات دون أن يتحقق له ما كان ينتظره، فيمني نفسه بأشياء أخرى... ويمضي- مرةً أخرى- رهن الانتظار الطويل، ثم ما شأني أنا بانتظار طلوع الشمس؟ ذلك أمرٌ لا يهمني في شيء، ولا علاقة له بما عزمت عليه من الصياح. فمن ذا الذي فرض عليّ أن أزعق عاليًا مع طلوع الشمس! ما المانع من أن أبقى ها هنا حتى يتفرق الناس بعد

الشروق، وساعتها أجرب الصياح. لكن المشكلة أن الحشد هنا بدا كأنه أزلي... بدا كأنه يلزم المكان بالساعات وراء الساعات فلا يبرحه، كأنهم هنا ينتظرون شيئًا يهبط عليهم من السماء يلبي أشواقهم، أو يعوّض زمن الصبر الطويل؛ فبقيت مثل جميعهم أنتظر وأتلبّد بالمكان، إلى أن بدأ الجمع الحاشد ينفض بالتدريج، إلا من قليلين راحوا يتلكأون ويشيرون بأصابعهم صوب الأفق البعيد، ويقولون إنها الهالة البوذية المقدسة... وأشياء من هذا القبيل؛ والبعض كان يلتقط الصور التذكارية. فانتهزت فرصة خلو الساحة من الزحام، وقصدت إلى "شا شين يان" [منحدر التضحيات]، على أمل أن يقل الزحام في هذا الركن البعيد، فتتهيأ الظروف لتحقيق بغيتي. ثم فوجئت بأنه مقابل صف النازلين من الجبل، فهناك صف آخر من الزوار الطالعين، فانزعجت جدًّا. رحت أذرع الخطى جيئةً وذهابًا بالقرب من "منحدر التضحيات"، ثم قررت ألا أكترث بالنظر إلى جمهرة الزوار، فقصدت ركنًا بعيدًا بعض الشيء كي لا أنشغل- على الرغم مني- بالنظر إلى الحشود المتزايدة. وإذ بدا أني وجدت الفرصة سانحة، صاح بي أحدهم:

"أنت، أيها الرفيق، من فضلك، ابتعد إلى جهة اليمين قليلًا".

التفتّ نحوه، ففهمت أنه يستعد لالتقاط صورة تذكارية. فانتحيت جانبًا.

عندئذٍ، صاح بي آخر:

"عفوًا، يا سيدي، ليتك تقف إلى اليسار بمقدار خطوة".

صورة تذكارية أخرى. ولم يكن لي إلا ان أنتقل مقدار خطوة جهة

اليمين. ولو أن هذا الانتقال البسيط لو زاد قليلًا عن الحد لسقطتُ إلى قاع الوادي؛ والسقوط ساعتها سيكون أكثر حرية من الصراخ؛ حيث لن يكون هناك مَن يقف في وجهي.

مرةً أخرى، وجدت فرصة سانحة للصراخ، سوى أني توقفت وسألت نفسي: بماذا أصيح؟ فتلك هي المسألة التي لم أعمل حسابها منذ البداية، لم أفكر جيدًا في هذا، وقد بات من المستحيل أن أصيح مناديًا بعبارة "آيس كريم، اللذيذ!"

استغربتُ وقلت كيف مضى كل هذا الوقت وأنا أفكر في الصياح، فلما جاءت اللحظة المناسبة إذا بي أكتشف فجأةً أنه ليس ثمة عبارة أو كلمة مناسبة للصياح. بقيت ذاهلًا لبعض الوقت، تمامًا مثل البغلة الأم التي فرّت مخترقة الزحام، وعبرت وسط الأسواق والناس حتى دخلت الغابة؛ فلما صارت بين الأشجار وقفت حائرة لا تدري كيف تضع حملها، وما الذي يمكن أن تضعه بالضبط!

وأنا وسط هذه الحيرة، إذا بيد تربت على كتفي، فارتبكتُ وتلفتَ حولي، فإذا بي وجهًا لوجه مع الشرطي الذي طالعت في قسماته شيئًا من الطيبة.

"ماذا تفعل بوقوفك هنا، أيها الرفيق؟"

"هه؟ لا، لا أفعل شيئًا!" أجبته مضطربًا.

"طيب، تعال معي، الآن".

مشيت معه حتى أدخلني غرفة، وأمرني بالجلوس، وراح يسألني بكل بشاشة ولطف عن اسمي وعنواني ومحل عملي. ثم واصل أسئلته عن حالتي الاجتماعية، ومهنة زوجتي، ومحل عملها؛ فلم أدر كيف أجيبه، لأني لا أعرف عملها بالضبط. لكني أجبته فيما عدا ذلك من الأسئلة، أجبته طبعًا بكل إخلاص؛ فلماذا أخفي عنه الحقائق، وما الداعي للف والدوران في مثل هذه الأحوال؟ ذهبت ظنوني إلى ما يمكن أن يكون قد حدث بالأمس مع زميلي مستأجر غرفة الفندق؛ فلعله فقد نقوده، أو أي شيء كان معه، وأعود فأقول إن المراوغة لا تفيد المرء شيئًا سوى أنها تزيد الأمر تعقيدًا.

الملفت أنه قام بتدوين كل ما قلته، كل كلمة حرفًا بحرف، ثم قال لي:

"نحن نلاحظ كل تحركاتك منذ وقت طويل. فقُل لي، يا سيدي، هل هناك ما يحزنك، أو لنقل، هل هناك أمر يسبب لك الاكتئاب والحيرة؟"

قلت: "أبدًا".

قال: "إذا كنت صادقًا، فلماذا ظللت تروح وتجيء عند 'منحدر التضحيات'، ولمدة ساعة كاملة؛ بينما كنت تهذي بعبارات غير مفهومة، وتتحدث إلى نفسك".

مشيت، رائحًا غاديًا طيلة ساعة كاملة؟ وكنت أتحدث مع نفسي؟ أنا؟

"هل يمكن أن تخبرني، بم كنت تفكر ؟"

مستحيل، لا أستطيع إخباره بمَ كنت أفكر؛ لأني لن أفصح عن نفسي

بما فيه الكفاية، وأتلعثم كثيرًا. وكلما أفضت في الشرح زدت الأمر غموضًا، فمِن ثم أجبته قائلًا:

"صدقني، ليس في الأمر أي شيء غير عادي، وليس هناك ما يضايقني".

قال: "إذن، فأنت لا تصدقنا، مع أننا نريد مصلحتك".

سكتُ، فلم أنطق بحرف.

عاد يسألني: "صارحني إذ أسألك، هل أنت مريض، أو يعني، هل سبق لك أن دخلت مصحّة؟"

قلت: "تقصد مصحّة نفسية؟"

قال: "يعني... شيء بهذا المعنى، لو أردت، المهم هل سبق لك دخولها؟"

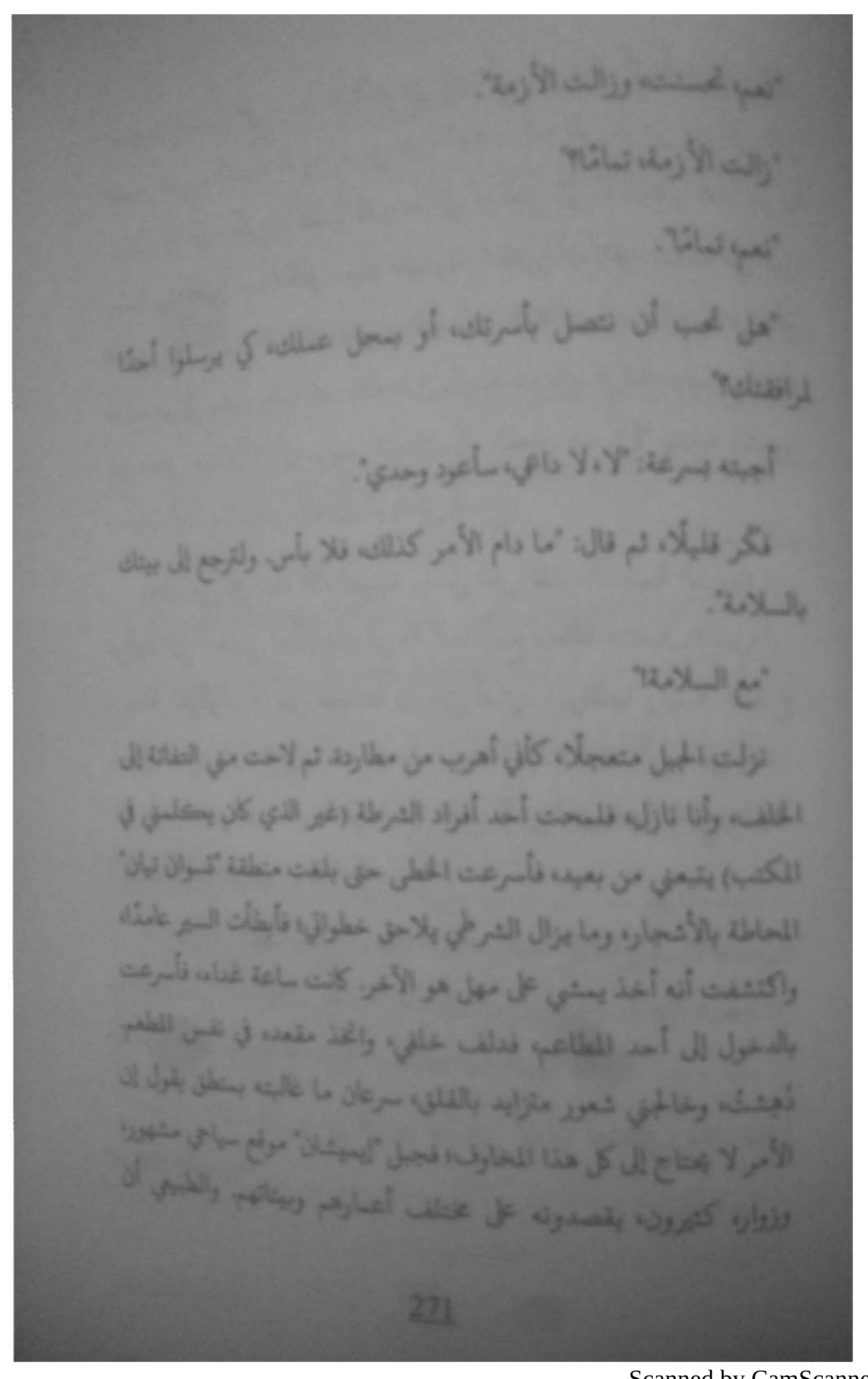
قلت: "ليس بعد".

قال: "ألا تشعر أن حالتك النفسية..."

رأيت أن أحسم الموقف سريعًا، فسارعت إلى القول: "نعم، أعترف لك بصدق أني كنت مكتئبًا بعض الشيء، لكني الآن أحسن حالًا، أنا الآن تحسّنت كثيرًا".

"حقًا؟ هل تشعر بتحسن فعلًا؟" سألني مبتسمًا.

ابتسمت أنا الآخر، تجاوبًا معه. ولكي أزيل أي قدر من الشكوك عنده، قلت:



"نعم، تحسنته وزالت الأزمة".

"زالت الأزمة، تمامًا؟"

"نعم، تمامًا".

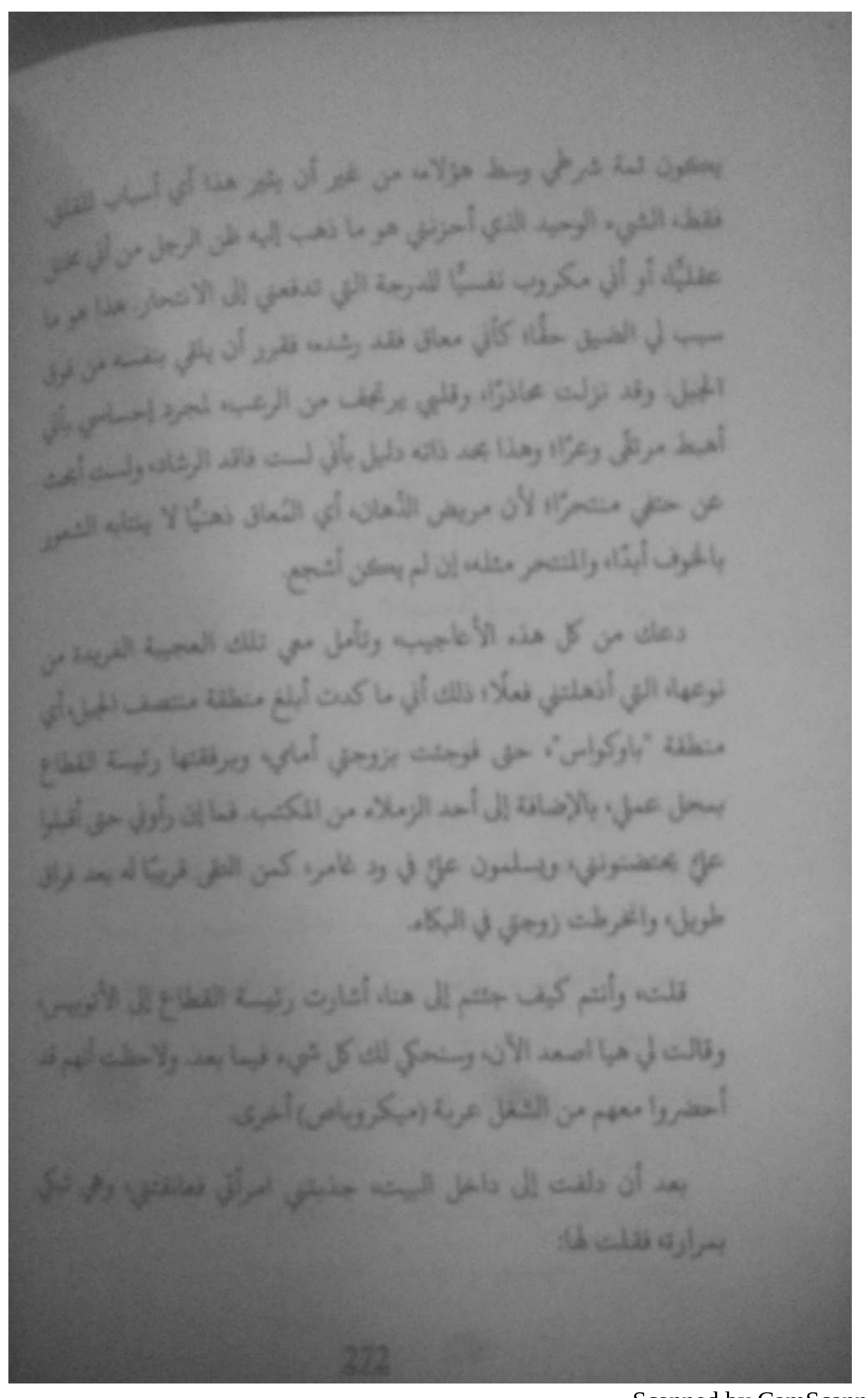
"هل تحب أن نتصل بأسرتك، أو بمحل عملك، كي يرسلوا أحدًا لمرافقتك؟"

أجبته بسرعة: "لا، لا داعي، سأعود وحدي".

فكر قليلًا، ثم قال: "ما دام الأمر كذلك، فلا بأس. ولترجع إلى بيتك بالسلامة".

"مع السلامة!"

نزلت الجبل متعجلًا، كأني أهرب من مطاردة. ثم لاحت مني التفاتة إلى الخلف، وأنا نازل، فلمحت أحد أفراد الشرطة (غير الذي كان يكلمني في المكتب) يتبعني من بعيد، فأسرعت الخطى حتى بلغت منطقة "تسوان تيان" المحاطة بالأشجار، وما يزال الشرطي يلاحق خطواتي؛ فأبطأت السير عامدًا، واكتشفت أنه أخذ يمشي على مهل هو الآخر. كانت ساعة غداء، فأسرعت بالدخول إلى أحد المطاعم، فدلف خلفي، واتخذ مقعده في نفس المطعم. دهشت، وخالجني شعور متزايد بالقلق، سرعان ما غالبته بمنطق يقول إن الأمر لا يحتاج إلى كل هذا المخاوف؛ فجبل "إيميشان" موقع سياحي مشهور، وزواره كثيرون، يقصدونه على مختلف أعمارهم وبيئاتهم. والطبيعي أن

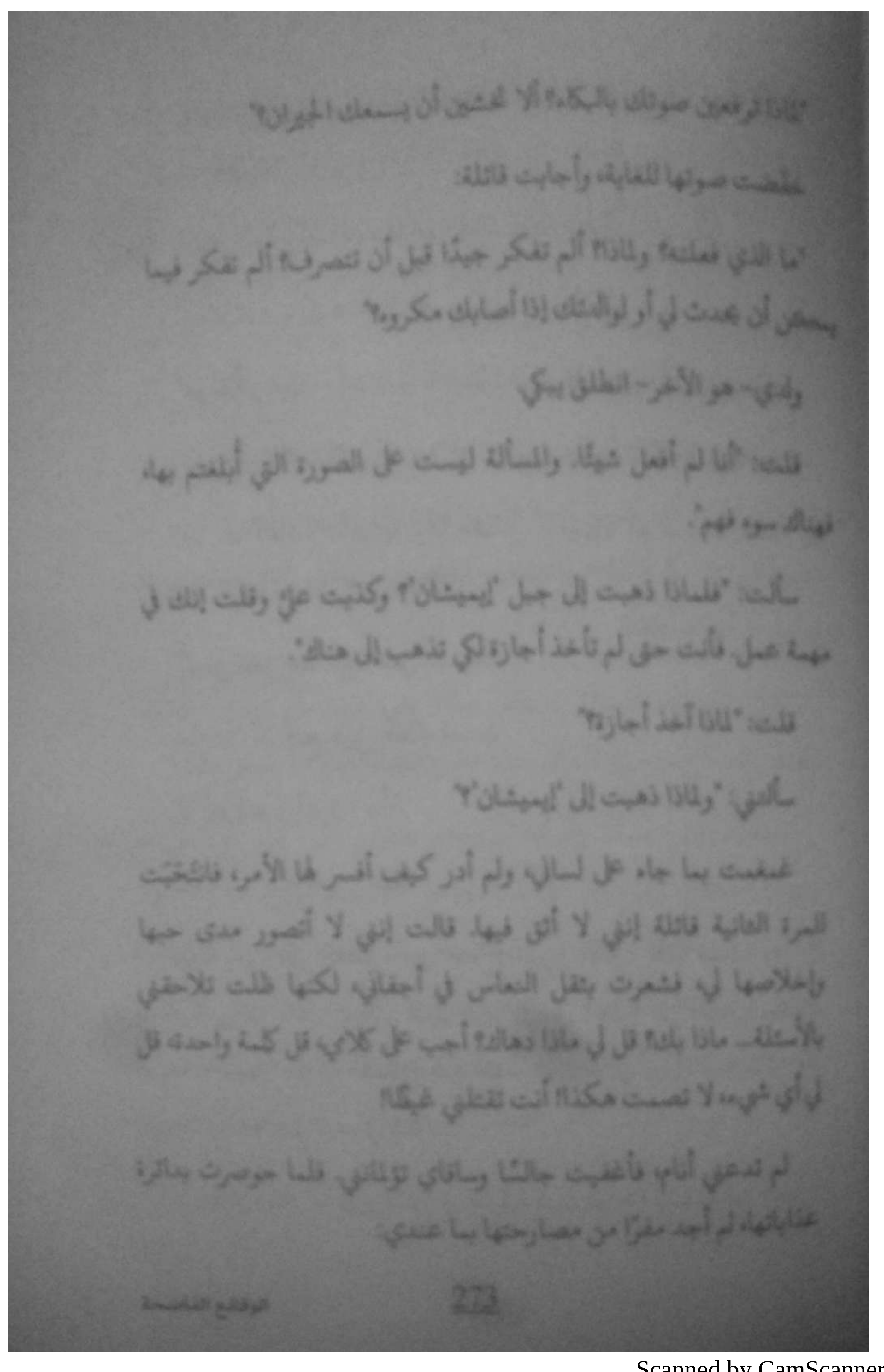


يحكون ثمة شرطي وسط هؤلاء من غير أن يثير هذا أي أسباب للقلق، فقط، الشيء الوحيد الذي أحزنني هو ما ذهب إليه ظن الرجل من أني مختل عقليًا، أو أني مكروب نفسيًا للدرجة التي تدفعني إلى الانتحار. هذا هو ما سبب لي الضيق حقًا، كأني معاق فقد رشده فقرر أن يلقي بنفسه من فوق الجبل. وقد نزلت حاذرًا، وقلبي يرتجف من الرعب، لمجرد إحساسي بأني أهبط مرتقى وعرًا؛ وهذا بحد ذاته دليل بأني لست فاقد الرشاد، ولست أبحث عن حتفي منتحرًا؛ لأن مريض الذهان، أي المعاق ذهنيًا لا ينتابه الشعور بالخوف أبدًا، والمنتحر مثله إن لم يكن أشجع.

دعك من كل هذه الأعاجيب، وتأمل معي تلك العجيبة الفريدة من نوعها، التي أذهلتني فعلًا؛ ذلك أني ما كدت أبلغ منطقة منتصف الجبل، أي منطقة "باوكواس"، حتى فوجئت بزوجتي أمامي، وبرفقتها رئيسة القطاع بمحل عملي، بالإضافة إلى أحد الزملاء من المكتب. فما إن رأوني حتى أقبلوا عليّ يحتضنونني، ويسلمون عليّ في ود غامر، كمن التقى قريبًا له بعد فراق طويل، وانخرطت زوجتي في البكاء.

قلت، وأنتم كيف جئتم إلى هنا، أشارت رئيسة القطاع إلى الأتوبيس، وقالت لي هيا اصعد الآن، وسنحكي لك كل شيء فيما بعد. ولاحظت أنهم قد أحضروا معهم من الشغل عربة (ميكروباص) أخرى.

بعد أن دلفت إلى داخل البيت، جذبتني امرأتي فعانقتني، وهي تبكي بمرارة، فقلت لها:



"لماذا ترفعين صوتك بالبكاء؟ ألا تخشين أن يسمعك الجيران؟"

خفضت صوتها للغاية، وأجابت قائلة:

"ما الذي فعلته؟ ولماذا؟! ألم تفكر جيدًا قبل أن تتصرف؟ ألم تفكر فيما يمكن أن يحدث لي أو لوالدتك إذا أصابك مكروه؟"

ولدي- هو الآخر- انطلق يبكي.

قلت: "أنا لم أفعل شيئًا. والمسألة ليست على الصورة التي أبلغتم بها، فهناك سوء فهم".

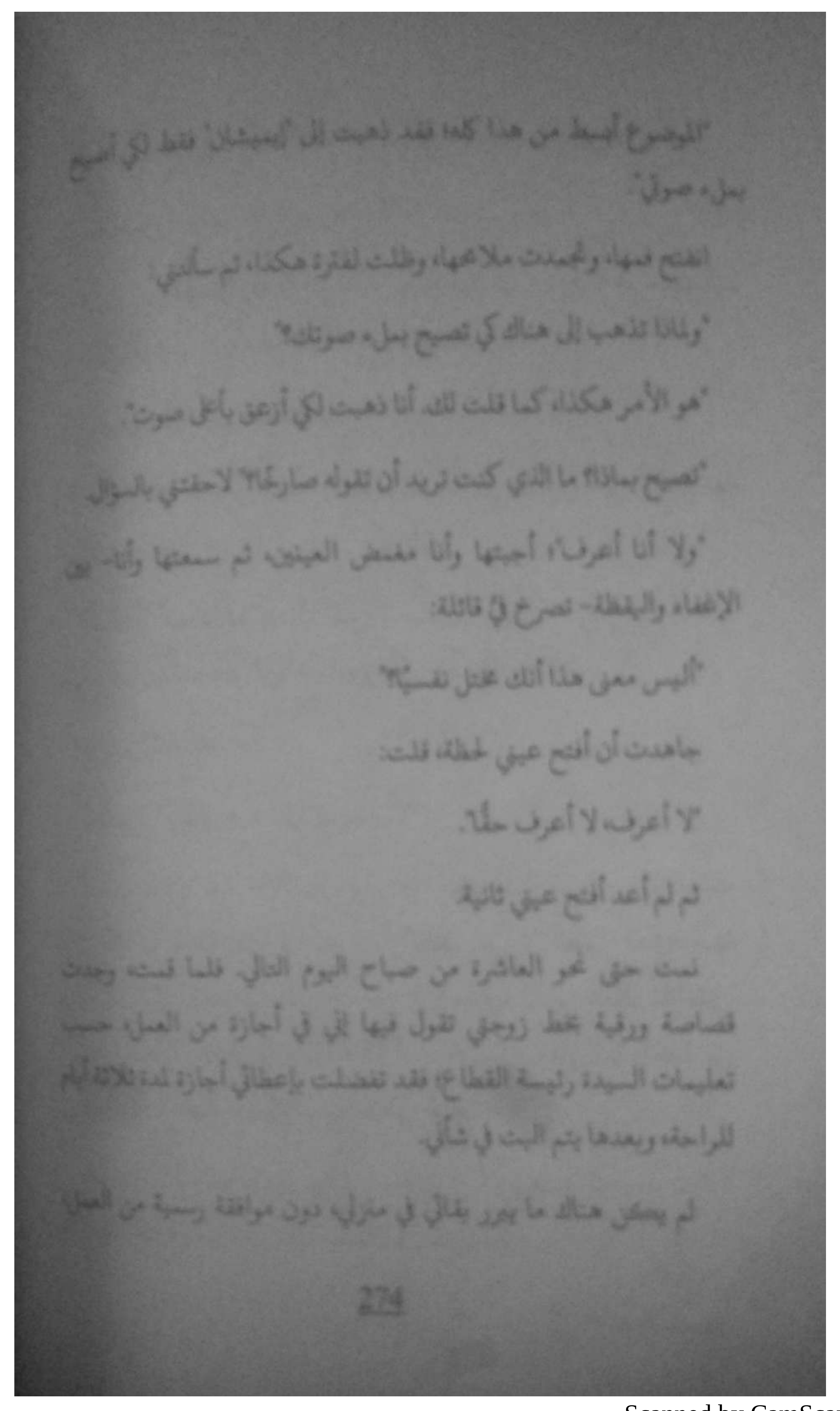
سألت: "فلماذا ذهبت إلى جبل "إيميشان"؟ وكذبت عليّ وقلت إنك في مهمة عمل. فأنت حتى لم تأخذ أجازة لكي تذهب إلى هناك".

قلت: "لماذا آخذ أجازة؟"

سألتني: "ولماذا ذهبت إلى "إيميشان"؟"

غمغمت بما جاء على لساني، ولم أدر كيف أفسر لها الأمر، فانتحبت للمرة الثانية قائلة إنني لا أثق فيها. قالت إنني لا أتصور مدى حبها وإخلاصها لي، فشعرت بثقل النعاس في أجفاني، لكنها ظلت تلاحقني بالأسئلة.. ماذا بك؟ قل لي ماذا دهاك؟ أجب على كلامي، قل كلمة واحدة، قل لي أي شيء، لا تصمت هكذا!! أنت تقتلني غيظًا!

لم تدعني أنام، فأمضيت جالسًا وساقاي تؤلمانني. فلما حوصرت بمثابرة عتاباتها، لم أجد مفرًا من مصارحتها بما عندي:



"الموضوع أبسط من هذا كله؛ فقد ذهبت إلى "إيميشان" فقط لكي أصيح بملء صوتي".

انفتح فمها، وتجمدت ملامحها، وظلت لفترة هكذا، ثم سألتني:

"ولماذا تذهب إلى هناك كي تصيح بملء صوتك؟"

"هو الأمر هكذا، كما قلت لك. أنا ذهبت لكي أزعق بأعلى صوت".

"تصيح بماذا؟ ما الذي كنت تريد أن تقوله صارخًا؟" لاحقتني بالسؤال.

"ولا أنا أعرف"، أجبتها وأنا مغمض العينين، ثم سمعتها وأنا -بين الإغفاء واليقظة- تصرخ في قائلة:

"أليس معنى هذا أنك تختل نفسيًا؟"

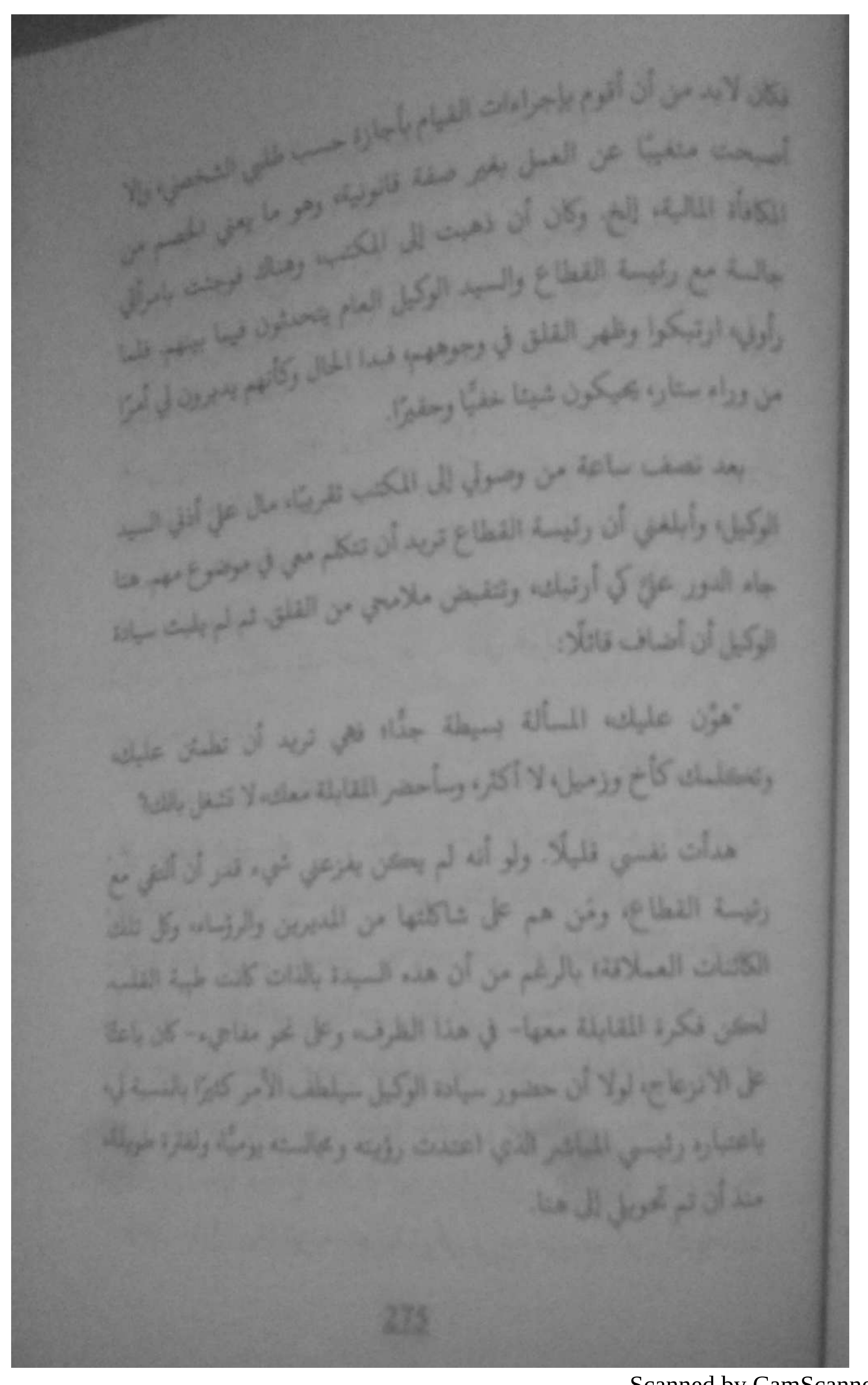
جاهدت أن أفتح عيني لحظة، قلت:

"لا أعرف، لا أعرف حقًا".

ثم لم أعد أفتح عيني ثانية.

نمت حتى نحو العاشرة من صباح اليوم التالي. فلما قمت وجدت قصاصة ورقية بخط زوجتي تقول فيها إنني في أجازة من العمل، حسب تعليمات السيدة رئيسة القطاع؛ فقد تفضلت بإعطائي أجازة لمدة ثلاثة أيام للراحة، وبعدها يتم البت في شأني.

لم يكن هناك ما يبرر بقائي في منزلي، دون موافقة رسمية من العمل،

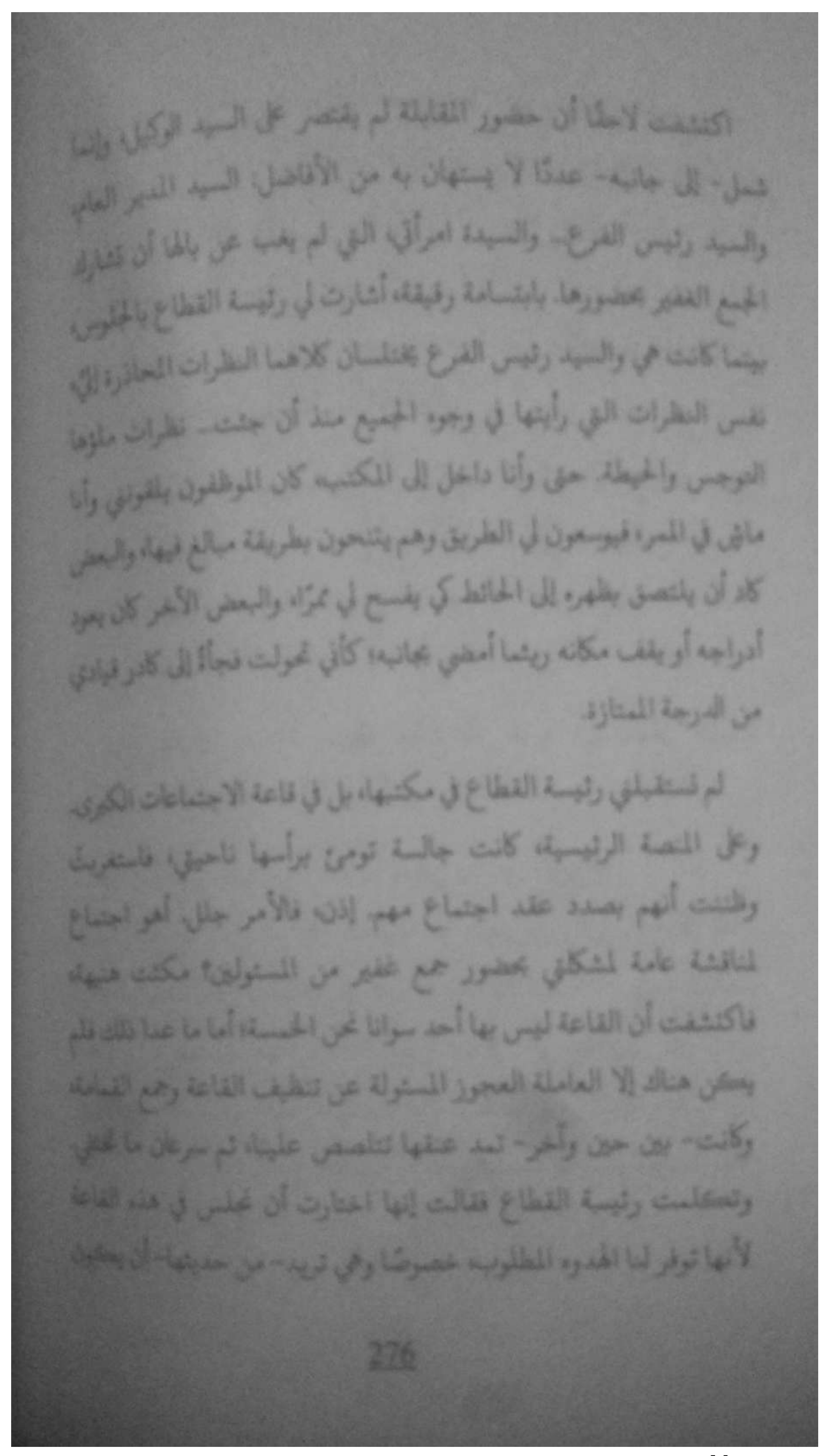


فكان لابد من أن أقوم بإجراءات القيام بإجازة حسب طلبي الشخصي، وإلا أصبحت متغيبًا عن العمل بغير صفة قانونية، وهو ما يعني الخصم من المكافأة المالية، إلخ. وكان أن ذهبت إلى المكتب، وهناك فوجئت بأن زملائي في جلسة مع رئيسة القطاع والسيد الوكيل العام يتحدثون فيما بينهم، فلما رأوني، ارتبكوا وظهر القلق في وجوههم، فبدا الحال وكأنهم يدبرون لي أمرًا من وراء ستار، يحيكون شيئا خفيًا وحقيرًا.

بعد نصف ساعة من وصولي إلى المكتب تقريبًا، مال على أذني السيد الوكيل، وأبلغني أن رئيسة القطاع تريد أن تتكلم معي في موضوع مهم. هنا جاء الدور عليّ كي أرتبك، وتنقبض ملامحي من القلق. ثم لم يلبث سيادة الوكيل أن أضاف قائلًا:

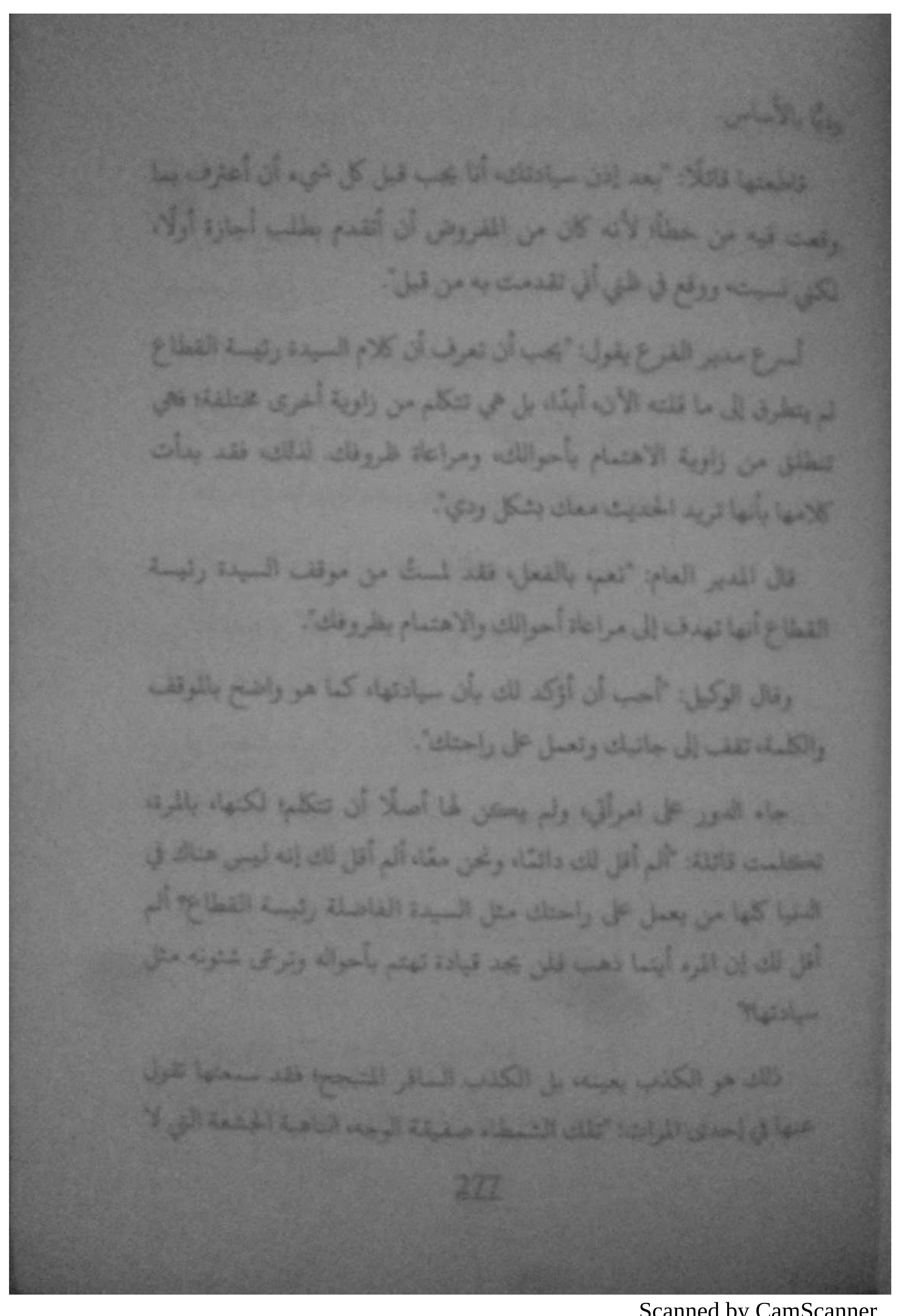
"هوّن عليك، المسألة بسيطة جدًا، فهي تريد أن تطمئن عليك، وتكلمك كأخ وزميل، لا أكثر، وسأحضر المقابلة معك، لا تشغل بالك".

هدأت نفسي قليلًا. ولو أنه لم يكن يفزعني شيء، قدر أن ألتقي مع رئيسة القطاع، ومَن هم على شاكلتها من المديرين والرؤساء، وكل تلك الكائنات العملاقة؛ بالرغم من أن هذه السيدة بالذات كانت طيبة القلب، لكن فكرة المقابلة معها- في هذا الظرف، وعلى نحو مفاجئ- كان باعثًا على الانزعاج، لولا أن حضور سيادة الوكيل سيلطف الأمر كثيرًا بالنسبة لي، باعتباره رئيسي المباشر الذي اعتدت رؤيته ومجالسته يوميًا، ولفترة طويلة منذ أن تم تحويلي إلى هنا.



اكتشفت لاحقًا أن حضور المقابلة لم يقتصر على السيد الوكيل، وإنما شمل- إلى جانبه- عددًا لا يستهان به من الأفاضل: السيد المدير العام والسيد رئيس الفرع.. والسيدة امرأتي، التي لم يغب عن بالها أن تشارك الجمع الغفير بحضورها. بابتسامة رقيقة، أشارت لي رئيسة القطاع بالجلوس، بينما كانت هي والسيد رئيس الفرع يختلسان كلاهما النظرات الحاذرة إليّ.. نفس النظرات التي رأيتها في وجوه الجميع منذ أن جئت.. نظرات ملؤها التوجس والحيطة. حتى وأنا داخل إلى المكتب، كان الموظفون يلقونني وأنا ماشٍ في الممر، فيوسعون لي الطريق وهم يتنحون بطريقة مبالغ فيها، والبعض كاد أن يلتصق بظهره إلى الحائط كي يفسح لي ممرًّا، والبعض الآخر كان يعود أدراجه أو يقف مكانه ريثما أمضي بجانبه؛ كأني تحولت فجأة إلى كادر قيادي من الدرجة الممتازة.

لم تستقبلني رئيسة القطاع في مكتبها، بل في قاعة الاجتماعات الكبرى. وعلى المنصة الرئيسية، كانت جالسة تومئ برأسها ناحيتي، فاستغربت وظننت أنهم بصدد عقد اجتماع مهم. إذن، فالأمر جلل. أهو اجتماع لمناقشة عامة لمشكلتي بحضور جمع غفير من المسئولين؟ مكثت هنيهة، فاكتشفت أن القاعة ليس بها أحد سوانا نحن الخمسة؛ أما ما عدا ذلك فلم يكن هناك إلا العاملة العجوز المسئولة عن تنظيف القاعة وجمع القمامة، وكانت- بين حين وآخر- تمد عنقها تتلصص علينا، ثم سرعان ما تختفي. وتكلمت رئيسة القطاع فقالت إنها اختارت أن نجلس في هذه القاعة لأنها توفر لنا الهدوء المطلوب، خصوصًا وهي تريد- من حديثها- أن يكون



ودياً بالأساس.

وقاطعتها قائلاً: "بعد إذن سيادتك، أنا يجب قبل كل شيء أن أعترف بما وقعت فيه من خطأ؛ لأنه كان من المفروض أن أتقدم بطلب أجازة أولاً، لكني نسيت، ووقع في ظني أني تقدمت به من قبل".

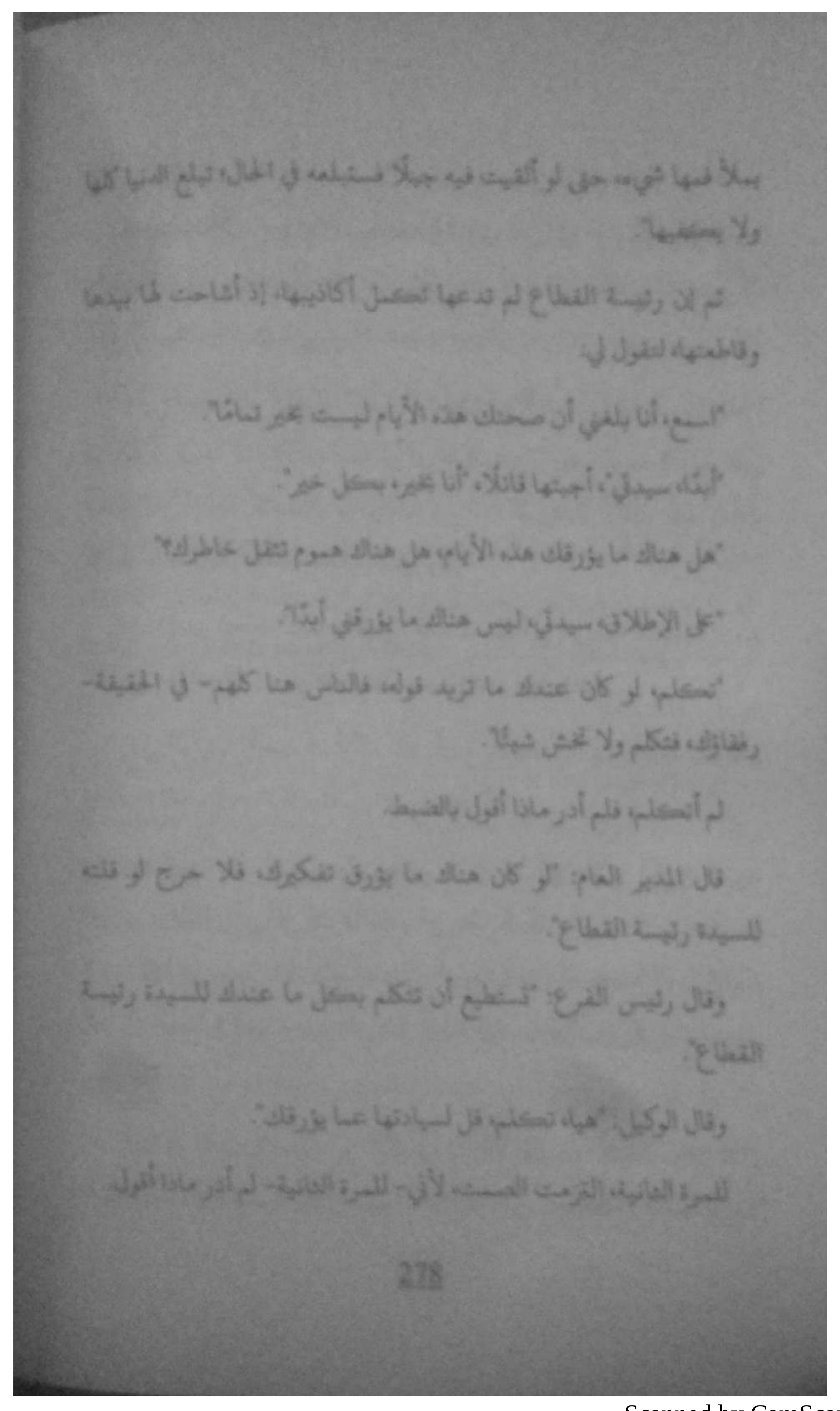
لسرع مدير الفرع يقول: "يجب أن تعرف أن كلام السيدة رئيسة القطاع لم يتطرق إلى ما قلته الآن أبدًا، بل هي تتكلم من زاوية أخرى مختلفة؛ فهي تنطلق من زاوية الاهتمام بأحوالك، ومراعاة ظروفك. لذلك، فقد بدأت كلامها بأنها تريد الحديث معك بشكل ودي".

قال المدير العام: "نعم، بالفعل، فقد لمستُ من موقف السيدة رئيسة القطاع أنها تهدف إلى مراعاة أحوالك والاهتمام بظروفك".

وقال الوكيل: "أحب أن أؤكد لك بأن سيادتها، كما هو واضح بالموقف والكلمة، تقف إلى جانبك وتعمل على راحتك".

جاء الدور على امرأتي، ولم يمكن لها أصلاً أن تتكلم؛ لكنها، بالمرة تكلمت قائلة: "ألم أقل لك دائمًا، ونحن معًا، ألم أقل لك إنه ليس هناك في الدنيا كلها من يعمل على راحتك مثل السيدة الفاضلة رئيسة القطاع؟ ألم أقل لك إن المرء أينما ذهب فلن يجد قيادة تهتم بأحواله وترعى شئونه مثل سيادتها؟"

ذلك هو الكذب بعينه، بل الكذب السافر المتبجح؛ فقد سمعتها تقول عنها في إحدى المرات: "تلك الشمطاء صفيقة الوجه التافهة الجشعة التي لا



يملأ فمها شيء، حتى لو ألقيت فيه جبلًا فستبلعه في الحال، تبلع الدنيا كلها ولا يكفيها".

ثم إن رئيسة القطاع لم تدعها تكمل أكاذيبها، إذ أشاحت لها بيدها وقاطعتها، لتقول لي:

"اسمع، أنا بلغني أن صحتك هذه الأيام ليست بخير تمامًا".

"أبدًا، سيدتي"، أجبتها قائلًا، "أنا بخير، بشكل خير".

"هل هناك ما يؤرقك هذه الأيام، هل هناك هموم تثقل خاطرك؟"

"على الإطلاق، سيدتي، ليس هناك ما يؤرقني أبدًا".

"تكلم، لو كان عندك ما تريد قوله، فالناس هنا كلهم- في الحقيقة- رفقاؤك، فتكلم ولا تخش شيئًا".

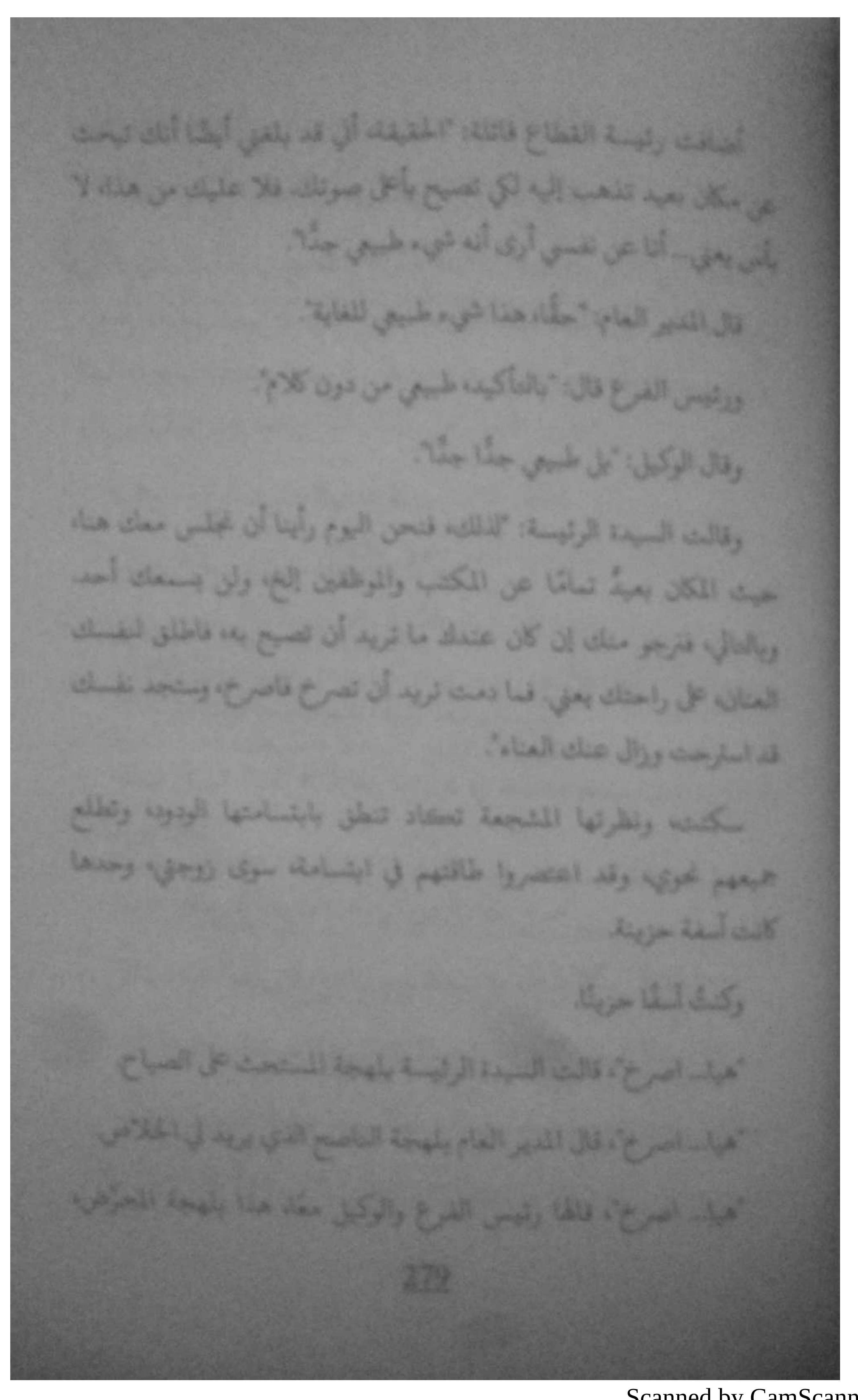
لم أتكلم، فلم أدر ماذا أقول بالضبط.

قال المدير العام: "لو كان هناك ما يؤرق تفكيرك، فلا حرج لو قلته للسيدة رئيسة القطاع".

وقال رئيس الفرع: "تستطيع أن تتكلم بكل ما عندك للسيدة رئيسة القطاع".

وقال الوكيل: "هيا، تكلم، قل لسيادتها عما يؤرقك".

للمرة الثانية، التزمت الصمت، لأني- للمرة الثانية- لم أدر ماذا أقول.



أضافت رئيسة القطاع قائلة: "الحقيقة أني قد بلغني أيضًا أنك تبحث عن مكان بعيد تذهب إليه لكي تصيح بأعلى صوتك، فلا عليك من هذا، لا بأس يعني... أنا عن نفسي أرى أنه شيء طبيعي جدًّا".

قال المدير العام: "حقًّا، هذا شيء طبيعي للغاية".

ورئيس الفرع قال: "بالتأكيد، طبيعي من دون كلام".

وقال الوكيل: "بل طبيعي جدًّا جدًّا".

وقالت السيدة الرئيسة: "لذلك، فنحن اليوم رأينا أن نجلس معك هنا، حيث المكان بعيدٌ تمامًا عن المكتب والموظفين إلخ، ولن يسمعك أحد. وبالتالي، فنرجو منك إن كان عندك ما تريد أن تصيح به، فاطلق لنفسك العنان، على راحتك يعني. فما دمت تريد أن تصرخ فاصرخ، وستجد نفسك قد استرحت وزال عنك العناء".

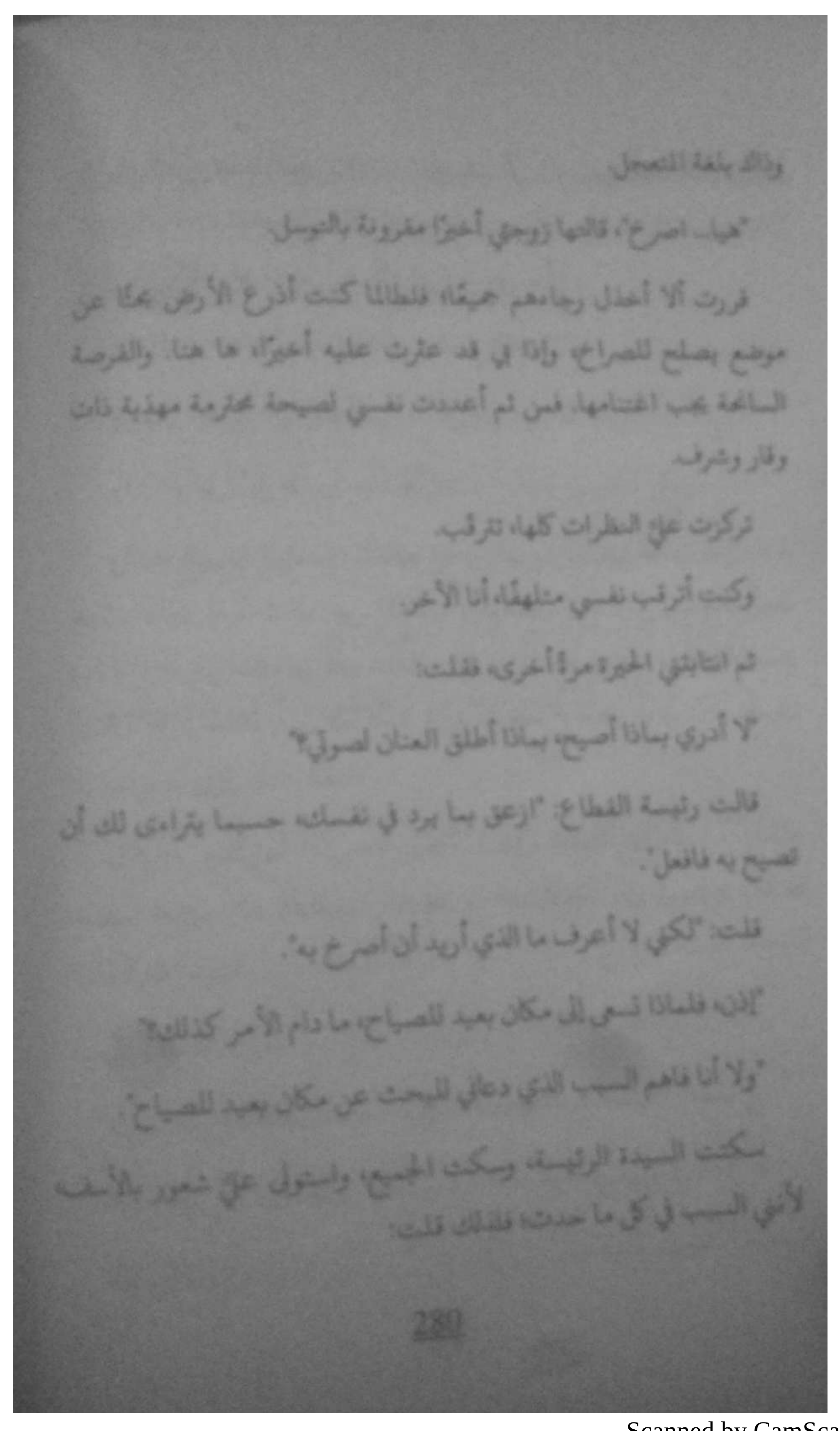
سكتت، ونظرتها المشجعة تكاد تنطق بابتسامتها الودود، وتطلع جميعهم نحوي، وقد اختصروا طاقتهم في ابتسامة سوى زوجتي، وحدها كانت آسفة حزينة.

وكنت أسفًا حزينًا.

"هيا... اصرخ"، قالت السيدة الرئيسة بلهجة المستحث على الصياح.

"هيا... اصرخ"، قال المدير العام بلهجة الناصح الذي يريد لي الخلاص.

"هيا... اصرخ"، قالها رئيس الفرع والوكيل معًا، هذا بلهجة المحرِّض،



وذلك بلغة المتعجل.

"هيا.. اصرخ"، قالتها زوجتي أخيرًا مقرونة بالتوسل.

قررت ألا أخذل رجاءهم جميعًا؛ فلطالما كنت أذرع الأرض بحثًا عن موضع يصلح للصراخ، وإذا بي قد عثرت عليه أخيرًا، ها هنا. والفرصة السانحة يجب اغتنامها، فمن ثم أعددت نفسي لصيحة محترمة مهذبة ذات وقار وشرف.

تركزت عليّ النظرات كلها، تترقب.

وكنت أترقب نفسي متلهفًا، أنا الآخر.

ثم انتابتني الحيرة مرة أخرى، فقلت:

"لا أدري بماذا أصيح، بماذا أطلق العنان لصوتي؟"

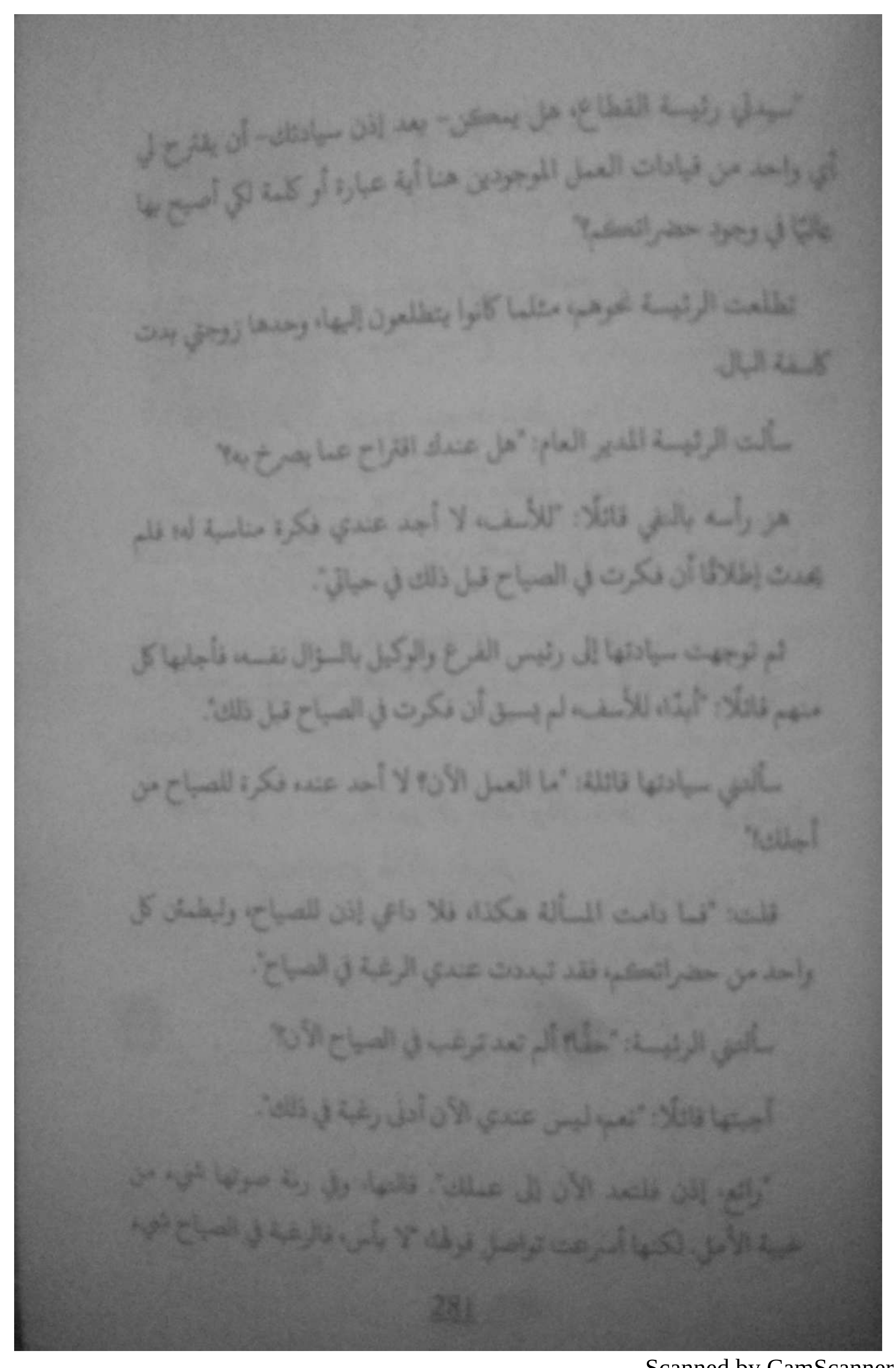
قالت رئيسة القطاع: "ازعق بما يرد في نفسك، حسبما يتراءى لك أن تصيح به فافعل".

قلت: "لكني لا أعرف ما الذي أريد أن أصرخ به".

"إذن، فلماذا تسعى إلى مكان بعيد للصياح، ما دام الأمر كذلك؟"

"ولا أنا فاهم السبب الذي دعاني للبحث عن مكان بعيد للصياح".

سكتت السيدة الرئيسة، وسكت الجميع، واستولى عليّ شعور بالأسف لأنني السبب في كل ما حدث؛ فلذلك قلت:



"سيدتي رئيسة القطاع، هل يمكن -بعد إذن سيادتك- أن يقترح لي أي واحد من قيادات العمل الموجودين هنا أية عبارة أو كلمة لكي أصيح بها عاليًا في وجود حضراتكم؟"

تطلعت الرئيسة نحوهم، مثلما كانوا يتطلعون إليها، وحدها زوجتي بدت كاسفة البال.

سألت الرئيسة المدير العام: "هل عندك اقتراح عما يصرخ به؟"

هز رأسه بالنفي قائلًا: "للأسف، لا أجد عندي فكرة مناسبة له؛ فلم يحدث إطلاقًا أن فكرت في الصياح قبل ذلك في حياتي".

ثم توجهت سيادتها إلى رئيس الفرع والوكيل بالسؤال نفسه، فأجابها كل منهم قائلًا: "أبدًا، للأسف لم يسبق أن فكرت في الصياح قبل ذلك".

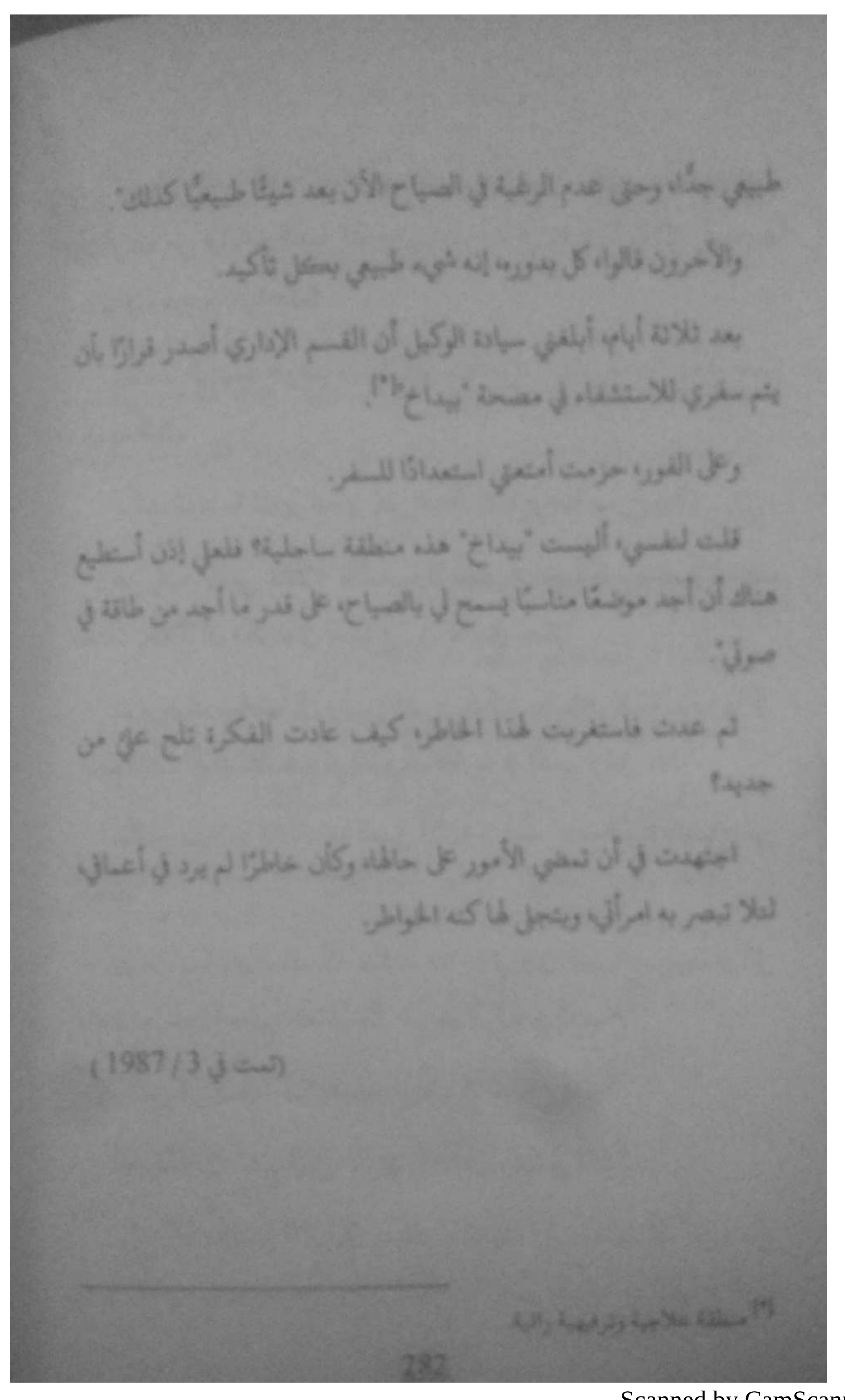
سألتني سيادتها قائلة: "ما العمل الآن؟ لا أحد عنده فكرة للصياح من أجلك!"

قلت: "فما دامت المسألة هكذا، فلا داعي إذن للصياح، وليطمئن كل واحد من حضراتكم، فقد تبددت عندي الرغبة في الصياح".

سألتني الرئيسة: "حقًا؟ ألم تعد ترغب في الصياح الآن؟"

أجبتها قائلًا: "نعم ليس عندي الآن أدنى رغبة في ذلك".

"رائع، إذن فلتعد الآن إلى عملك". قالتها، وفي رنة صوتها شيء من خيبة الأمل، لكنها أسرعت تواصل قولها: "لا بأس، فالرغبة في الصياح شيء



طبيعي جدًا، وحتى عدم الرغبة في الصياح الآن يعد شيئًا طبيعيًا كذلك".

والآخرون قالوا، كل بدوره، إنه شيء طبيعي بشكل تأكيد.

بعد ثلاثة أيام أبلغني سيادة الوكيل أن القسم الإداري أصدر قرارًا بأن يتم سفري للاستشفاء في مصحة "بيداخ"[*].

وعلى الفور، حزمت أمتعتي استعدادًا للسفر.

قلت لنفسي، أليست "بيداخ" هذه منطقة ساحلية؟ فلعلي إذن أستطيع هناك أن أجد موضعًا مناسبًا يسمح لي بالصياح، على قدر ما أجد من طاقة في صوتي.

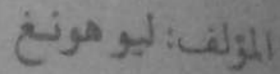
ثم عدت فاستغربت لهذا الخاطر، كيف عادت الفكرة تلح علي من جديد؟

اجتهدت في أن تمضي الأمور على حالها، وكأن خاطرًا لم يرد في أعماقي لئلا تبصر به امرأتي، ويتحول لها كنه الخواطر.

(تمت في 3 / 1987)

---

[*] منطقة علاجية وترفيهية راقية.



المؤلف: ليو هونغ



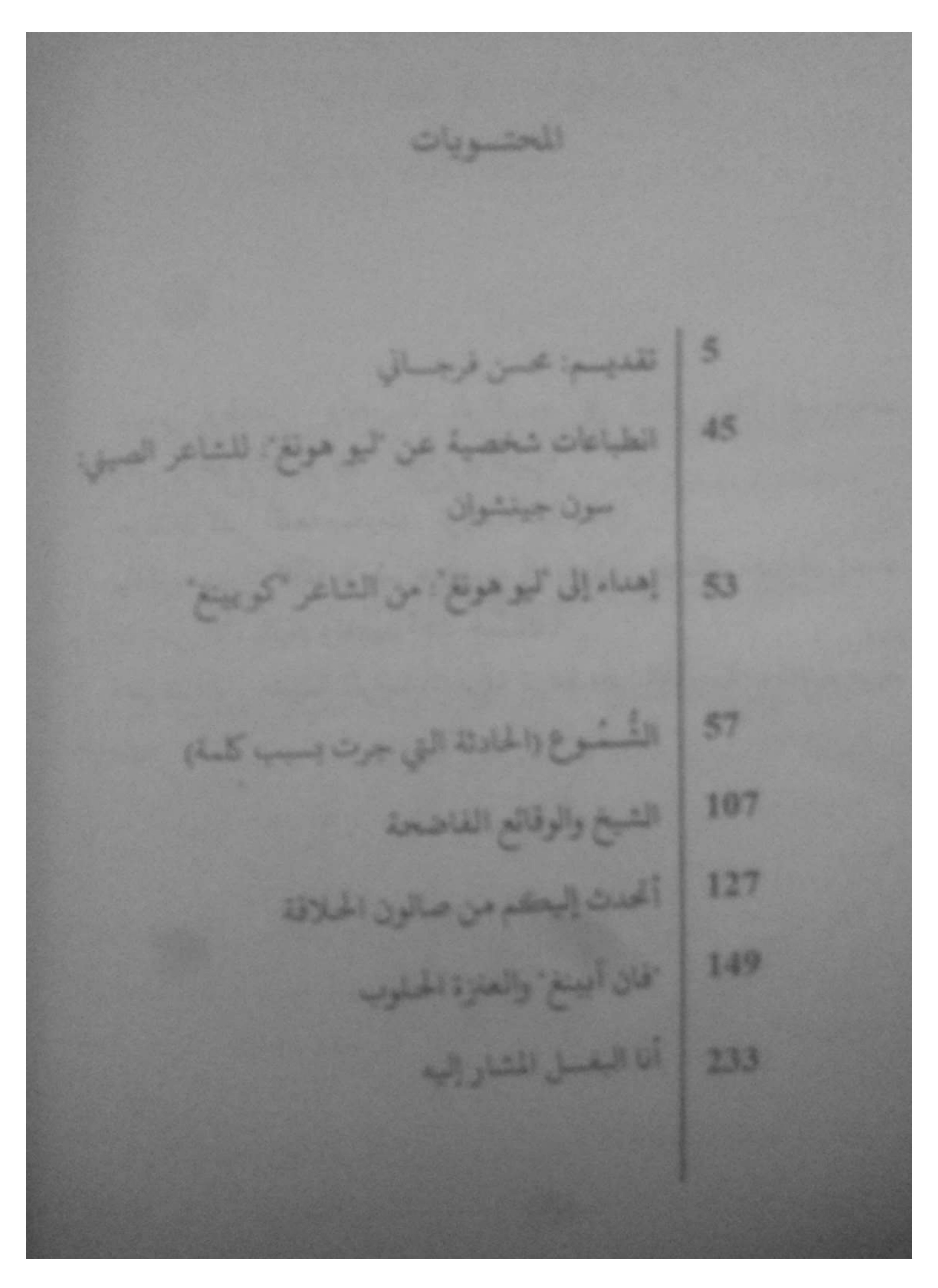
لقبه الأصلي: وانغ تشنهوا؛ وُلد بمنطقة "تشونغ تشينغ" بإقليم "سيتشوان". تخرج عام 1956 في قسم اللغة الصينية، وعمل لفترة مدرسًا بالمرحلة الابتدائية في قرية نائية، بإقليم سيتشوان. بدأ حياته الإبداعية في 1952، ثم عمل نائبًا لرئيس تحرير جريدة "تشينان تسوجيا" [الأدباء الشبان]، ثم مقررًا عامًا لاتحاد الكتاب الإقليمي، على مدى خمس دورات متتالية، وانضم إلى عضوية اتحاد كتاب الصين في 1983.

أهم أعماله القصصية: مجموعة قصصية بعنوان "شقشقة البلابل"، رواية "ابنة الحجار الذي يعاقر خمرًا"، "مجموعة قصصية ساخرة" . وقد حصلت قصته "شقشقة البلابل" على جائزة التميز الأدبي في 1981، ثم حصلت رواية "ابنة الحجار الذي يعاقر خمرًا" على جائزة الأدب الصيني في 1988.

المترجم: د. محسن فرجاني

مدرس الصينية بكلية الألسن. ترجم إلى العربية: من التراث الصيني "الكتب الأربعة"، "كتاب الطاو"، "سياسات الدول"، "فن الحرب عند سونبين"، "كتاب ليتزو"، "كتاب الشعر القديم". ومن الأدب الصيني الحديث والمعاصر، ترجم لـ مويان، "الحلم والأوباش" (مجموعة قصصية)، ورواية "الثور"، فضلًا عن "مختارات قصصية من الأدب الصيني الحديث" (تحت الطبع).

عضو بلجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، وحاصل على جائزة الدولة الصينية عن الإسهام المتميز في الكتاب الصيني المترجم (2013).



المحتـويات


بوك كافيه
بوكافيه
Book Cafe

هي الترجمة العربية الأولى لقصص ليُو هونغ، الصوت الفريد- بالغ الأهمية- في القَص الصيني الراهن؛ وإن كنا نسبقُ الغرب- هذه المرة- إلى اكتشافه.

كشفٌ إبداعي لآليات وأشكال قَهر الإنسان العادي، البسيط، على يد نظام اجتماعي وأخلاقي شمولي وفاسد، وتعرية- بلا شعارات- لعذابات بسطاء هذا الزمان البسطاء، بلا ميلودراما أو عاطفية؛ بل بنبرة ساخرة، متهكمة، تنتمي إلى «الكوميديا السوداء»، التي تضرب بوعي وعُمق في جسد المأساة الإنسانية.

فـ «الصوت لا يمكن كتمانه، ياحضرات! وإلا حصلت المشاكل، وجاءت الأمراض والمصائب، فأنت بكتمانك لصوتك تعمل شيئًا شبيهًا بإخصاء الديكة».

وترجمة رفيعة المقام، عن الصينية مباشرةً، من أحد أساتذتها المقتدرين، صاحب هذا الاكتشاف الفريد.

تصميم الغلاف: أحمد اللباد



www.gocp.gov.eg

